تجليد صالح

11 APR 1978

[illegible]

روايات تاريخ الإسلام

مسلسلة [illegible]

١ ـ فتاة غسان

تشرح حال الاسلام من ظهوره الى فتوح العراق والشام مع بسط عادات العرب وأخلاقهم فى آخر جاهليتهم وأول اسلامهم

٢ ـ أرمانوسة المصرية

فيها تفصيل فتح مصر على يد عمرو بن العاص مع بسط سائر أحوال العرب والاقباط والرومان فى ذلك العصر

٣ ـ عذراء قريش

تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان بن عفان وخلافة الامام على وما نجم عن ذلك من الفتنة وواقعتى الجمل وصفين

٤ ـ ١٧ رمضان

تتضمن مقتل الامام على وبسط حال الخوارج وقيام الفتنة واستئثار بنى أمية بالخلافة وخروجها من أهل البيت

٥ ـ غادة كربلاء

تتضمن ولاية يزيد بن معاوية وما جرى فيها من مقتل الامام الحسين وأهل بيته فى كربلاء ، وواقعة الحرة وغيرها

٦ ـ الحجاج بن يوسف

تتناول حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير الى فتحها وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان ، مع وصف مكة والمدينة

٧ ـ فتح الاندلس

تتضمن تاريخ أسبانيا قبيل الفتح الاسلامى ووصف أحوالها وفتحها على يد طارق بن زياد ومقتل رودريك ملك القوط

٨ ـ شارل وعبد الرحمن

تشرح فتوح العرب فى بلاد فرنسا وما كان من تكاتف الافرنج بقيادة شارل مارتل وأسباب فشل العرب فى أوربا

أبو مسلم الخراسانى

تشتمل على سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية الى مقتل أبى مسلم وما يتخلل ذلك وصف عادات الخراسانيين

١٠ ـ العباسة أخت الرشيد

تشتمل على نكبة البرامكة وما يتخلل ذلك من وصف مجالس الخلفاء وملابسهم ومواكبهم ، وحضارة الدولة فى عصر الرشيد

١١ ـ الامين والمأمون

تفصل الخلاف بين الامين والمأمون ، وقيام الفرس لنصرة المأمون حتى فتحوا بغداد ، ودخائل السياسة بين العرب والفرس

١٢ ـ عروس فرغانة

تحوى وصف الدولة العباسية فى عصر المعتصم بالله وقيام الفرس لارجاع دولتهم ونهوض الروم لاكتساح المملكة الاسلامية

١٣ ـ أحمد بن طولون

فيها وصف جامع لمصر وبلاد النوبة وعلاقاتهما السياسية فى أواسط القرن الثالث للهجرة على زمن أحمد بن طولون

١٤ ـ عبد الرحمن الناصر

تشتمل على وصف بلاد الاندلس وحضارتها فى زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الاموى وخروج ابنه عبد الله عليه

١٥ ـ فتاة القيروان

تتضمن ظهور دولة العبيديين أو الفاطميين فى أفريقية ومناقب المعز لدين الله وقائده جوهر، وانتزاعه مصر من الدولة الاخشيدية

١٦ ـ صلاح الدين الايوبى

تتضمن انتقال مصر من الفاطميين الى الايوبيين على يد السلطان صلاح الدين ، مع وصف طائفة الاسماعيلية

١٧ ـ شجرة الدر

تتضمن مبايعة شجرة الدر ، وسيرة الامير ركن الدين بيبرس وحالة الخلافة العباسية وقتئذ وانتقالها من بغداد الى مصر

١٨ ـ الانقلاب العثمانى

تشرح أحوال الاحرار العثمانيين وما قاسوه فى طلب الدستور. ووصف يلدز وقصورها وحدائقها وعبد الحميد وجواسيس

892.78
Z39fnA
c.1

فتح الأندلس

أو

طارق بن زياد

تتضمن تاريخ أسبانيا قبيل الفتح الاسلامى ،
ووصف أحوالهـــا ، وفتحهـــا على يد
طارق بن زياد ، ومقتل رودريك ملك القوط

تأليف

جرجى زيدان

78873

دار الهلال بمصر

BIBLIOTECA REAL MUSEO CENTRAL

— ١ —

الأندلس احدى مقاطعات أسبانيا ، واسمها فى الاصل «وندلوسيا» نسبة الى « الوندال » أو « الفندال » وكانوا قد استوطنوها بعد الرومان ، فلما فتحها العرب سموها الاندلس ، ثم أطلقوا هذا الاسم على أسبانيا كلها

وكانت هذه البلاد جزءا من مملكة الرومان الغربية الى القرن الخامس للميلاد ، فسطا عليها « القوط » وهم من القبائل الجرمانية الذين رحلوا من أعالى الهند الى أوربا طلبا للعيش والمرعى ، وأقاموا فى بواديها

وقد سيطر القوط على مملكة الرومان الغربية قبل سيطرة العرب على المملكة الشرقية ببضعة قرون ، وأنشأوا الممالك فى فرنسا وألمانيا وانجلترا وغيرها من دول أوربا الباقية الى الآن

وكان فى جملة تلك القبائل قبيلة القوط الغربيين « فيسيقوط » . فسطت على أسبانيا فى القرن الخامس وانتزعتها من الرومانيين ، وأنشأت فيها دولة قوطية انتهت بالفتح الاسلامى سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) على يد طارق بن زياد القائد الشهير

وكانت عاصمة مملكة القوط فى أسبانيا مدينة « طليطلة » على ضفاف نهر التاج فى أواسط أسبانيا ، وكانت فى ذلك العهد مدينة عامرة ، فيها الحصون والقلاع والقصور والكنائس والاديار ، كما كانت مركز الدين والسياسة ، وفيها كان يجتمع مجمع الأساقفة كل عام ينظر فى الامور العامة

وكان ملك الأسبان عام الفتح الملك «رودريك» الذى يسميه العرب « لذريق » ، وهو الذى اغتصب الملك اغتصابا سنة ٧٠٩ م مع أنه لم يكن من العائلة المالكة ، مما جعل أبناء الملك السابق ينقمون عليه . وكانت أسبانيا تنقسم يومئذ الى ولايات أو « دوقيات » يتولى كل دوقية منها حاكم يسمى الدوق أو الكونت ، ويرجعون فى أحكامهم جميعا الى الملك المقيم فى طليطلة

وطليطلة واقعة على أكمة يحيط بها نهر التاج من الشرق والغرب والجنوب بما يشبه حدوة الفرس ، ووراءه جبال متسلسلة تحجب الأفق عن أهل المدينة ، وفيها مغارس الزيتون وكروم العنب ، وغابات السنديان والصنوبر ، وفى منتصف المدينة الكنيسة الكبرى التى جعلها المسلمون بعد الفتح مسجدا ، وهى من الفخامة والمناعة على جانب عظيم . وكان الناظر اذا القى نظرة على أبنية طليطلة من

شاهق تبين فيها من ضروب الأبنية مزيجا من الطرز الرومانية والقوطية . وحول المدينة من الشمال ووراء النهر من الجهات الاخرى مغارس الفاكهة والاثمار وسائر أصناف الاشجار ، اذا أطل الواقف من احدى نوافذ منازلها أشرف عليها كلها

▭

وكان فى جملة قصور الملك رودريك قصر شرقى المدينة فوق أكمة تشرف على ضفاف النهر ، تحيط به حدائق واسعة تحوى صنوف الاشجار والرياحين والازهار ، على مرتفعات تتخللها مجارى الماء على غير نظام مما يزيدها جمالا ، ويحدق بها كلها الا من جهة النهر سور حوله الحراس فى منازل بنوها لهم بجانب أبواب البستان

وكان بجانب قصر الملك قصر صغير متصل به يستطرق الى البستان من جهة وله باب مستقل من جهة أخرى ، وعدة قصور متفرقة فى جوانب ذلك البستان ، بعضها للحاشية وبعضها للامراء ، ومن بينها قصر كبير كان يقيم فيه أولاد الدوقات والكونتات حكام الولايات ، جريا على العادة المتبعة عند ملوك القوط فى ذلك الزمان . فقد كان من عاداتهم أن يجتمع فى بلاطهم فى طليطلة أبناء ولاتهم هؤلاء وبناتهم يقيمون هناك ويربون فى البلاط الملكى معا ، يتعارفون ويتعاشرون فيشبون على ما يرضاه الملك ويتأدبون فى خدمته ثم يتزوجون

ففى صباح الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ٧١١ للميلاد كان أهل طليطلة مشتغلين بالاحتفال بعيد الميلاد ، والناس يتقاطرون الى الكنائس والاديار يهنىء بعضهم بعضا ، وأكثر الكنائس ازدحاما فى ذلك اليوم الكنيسة الكبرى لأن أكبر أساقفة طليطلة يصلى فيها ولأن الملك رودريك كان سيحضر القداس بنفسه ومعه حاشيته وكبار رجال دولته ، ولذا غصت الكنيسة على سعتها وامتلأ فناؤها وما جاورها من الشوارع والاسطح بالناس ، على اختلاف الاعمار والاجناس ، تطلعا الى رؤية الملك ومشاهدة موكبه الحافل ، اذ كان لايزال قريب العهد بالملك وقلما رآه أهل طليطلة من قبل فكيف بأهل المجاورة ؟ فاغتنموا جميعا فرصة ذلك العيد لمشاهدة الرجل الذى اختلس الملك من « غيطشة » Witiza ملكهم السابق

وقد خرجت النساء من بيوتهن لمشاهدة موكب الملك رودريك ، الا فتاة من أهل البلاط الملكى اغتنمت اشتغال الملك ورعيته بذلك

خريطة بلاد المغرب والأندلس فى عهد الفتوحات الاسلامية

العيد لتخلو الى نفسها وتفكر فى أمرها . وكانت هذه الفتاة من بنات الكونتات حكام الولايات ، وتقيم فى القصر الذى يجمعهن جميعا بجوار قصر الملك ، فنقلها الملك منذ بضعة أيام الى القصر الصغير المتصل بقصره . وهو اكرام حسدها عليه كل رفاقها ورفيقاتها ، ولكنه كان سببا كبيرا فى تعاستها وانشغال بالها ، فلما خرج الملك ورجال دولته وسائر أهل البلاط للاحتفال بالعيد اعتذرت هى بانحراف صحتها

وكان ذلك اليوم صاحيا زاهيا ، يندر مثاله فى فصل الشتاء ، وقد أطلت الشمس من وراء الآكام وأرسلت أشعتها على نهر التاج وما على ضفافه من الحدائق وفى جملتها حديقة قصر الملك ، فبخرت ما كان على الاوراق والازهار من الطل ، وكان يوما يحلو للناس الخروج فيه من المنازل الى البساتين لاستقبال أشعة الشمس والتمتع بمناظر الطبيعة ، ولذا اغتنمت الفتاة غياب الملك وحاشيته ونزلت تتمشى فى طرق تلك الحديقة وقد تدثرت برداء من الحرير الاحمر مبطن بالفرو اتقاء البرد ، غطى أكتافها ومعظم جسمها الا ذيل ثوبها (الفستان) الارجوانى المزركش بالقصب فانه ما زال يتلألأ وراءها فى أشعة الشمس . وأما رأسها فقد كان مكشوفا وعليه شبكة من الحرير الابيض تضم شعرها الذهبى ضمة واحدة وترسله الى ظهرها مستعرضا كأنها خارجة من الحمام على عادة الرومان التى اقتبسها عنهم القوط فى تلك العصور . وكان ذلك الشعر الذهبى يتلألأ من خلال تلك الشبكة خصوصا اذا وقعت عليه أشعة الشمس فى أثناء مرور الفتاة بين الاشجار . على ان اكتساءها بذلك الرداء لم يخف جمال قامتها ورشاقة مشيتها . وأما وجهها فقد كان ممتلئا ناصع البياض ، مشربا بحمرة ، يكاد يشف عما تحته ، وقد زاده الانحراف والذبول هيبة وجمالا ، وفيه عينان تجمعان الى الصفاء والزرقة شيئا لا يعبر عنه بغير السحر ، وفم مع صغره لايبدو الا مبتسما ابتسام الجلال والحشمة

سارت الفتاة فى الحديقة ومعظم أشجارها عار من الورق ، وأكثر رياحينها خال من الازهار ، كأنها تشارك فتاتنا الذبول والانكسار ، بينما كانت الارض وكأنها بساط من العشب الاخضر ، مرصعة ببعض الازهار التى تتفتح فى الشتاء . فمشت الفتاة وهى لا تبالى بما قد يعترضها فى طريقها من الاغصان المدلاة ، هذا يلطم كتفها وذاك صدرها أو رأسها ، وبين يديها امرأة عجوز تحوم حولها وتراعى حركاتها وتزيل العقبات من سبيلها ، وهى ليست أقل منها قلقا ولكن الزمان حنكها ،

ومرور الحدثان علمها ان الاحوال لاتدوم على حال !

وكانت الفتـاة تمشى وتلتفت نحو القصر ، ثم ترسل نظرها من خلال الاشجار الى ما يطل عليه ذلك البستان من الحدائق البعيدة وفوقها جبال شامخة يعلو بعض قممها ثلج تنعكس عنه الاشعة كأنها جبال من الفضة ، والفتاة تارة تنزل فى واد وطورا تصعد على تل ، والعجوز تقطف لها زهرة من هنا وثمرة من هناك فتتناولها ولا تتكلم كأنما حكم عليها بالسكوت !

وبعد برهة انتهت الى أكمة منبسطة تطل على النهر ، يكسوها عشب قصير كأنه بساط من الديباج وقد تطاير عنه الندى بوقوع الاشعة عليه ، فراق لفتاتنا الجلوس عليه والتعرض لأشعة الشمس التماسا للدفء ، وللتمتع بمنظر السماء الازرق الصافى ، فالتفتت الى العجوز وقالت بصوت مختنق لطول السكوت : « ماقولك ياخالة ؟ ألا نقعد على هذه الاكمة نتمتع بهذا الطقس الجميل .. ؟ »

فهرعت العجوز وهى تصلح نقابا كانت قد لفت به رأسها وحول أذنيها تجنبا للبرد وقالت : « اقعدى حيثما تشائين يا حبيبتى » . قالت ذلك وأسرعت الى كرسى من خشب كان فى بعض طرق الحديقة وجاءتها به فأبت القعود عليه وقالت : « أفضل هـذا العشب فان القعود عليه حسن فى مثل هذا اليوم ! » فقعدت العجوز بين يديها وهى لاتزال تراقب حركاتها ، وقلبها يحوم حولها ، وقدسرها ارتياحها الى مناظر الطبيعة ، فجعلت ترغبها فى تسريح نظرها فيما تشرفان عليه من مجرى النهر وما وراءه من التلال التى تكسوها غابات الصنوبر والزيتون والسنديان ، وما يتخلل الغابات من بيوت متفرقة هنـا وهناك وهى تقول : « تأملى يا فلورندا هذه المناظر الجميلة فينشرح صدرك واتركى عنك الاوهام »

وكانت تلك التعزية سببا فى هياج شجون فلورندا فقالت : « لقد اذكرتنى يا خالة بأمر أحاول تناسيه .. كيف ينشرح صدرى وأنا فيما تعلمين من انشغال زاده انتقالى الى هذا القصر .. ؟ »

قالت : « وما يخيفك من ذلك الانتقال وقد أصبحت أقرب الى قصر الملك وأعز جانبا .. ! ؟ »

فقالت وهى تنظر الى آخر مايقع نظرها عليه من مجرى النهر كأنها ترى قاربا بعيدا : « ان ذلك الانتقال هو الذى أخافنى .. وياليته نقلنى الى أطراف المدينة ، بل ياليته أرجعنى الى والدى ! » . قالت ذلك وشرقت بدموعها فاشتغلت عن النظر الى ذلك القارب بما جال

فى خاطرها من أمر والدها وبعدها عنه ووقوعها فى ذلك الخطر

وكانت العجوز خالة أم فلورندا ، وقد احتضنتها من طفولتها وربتها فى بيت والدها ، حتى اذا آن مجيئها الى بلاط الملك على عادتهم الجارية كلفها أبوها أن تكون معها ، فقضت فى عشرتها بضعة عشر عاما ، لم تكن تزداد خلالها الا حبا لها وانعطافا نحوها لما فطرت عليه من الجمال واللطف . فلما رأتها تبكى انفطر قلبها وقالت : « أما الرجوع الى والدك فانه ميسور ، ولكن بقاءك هنا لا أرى فيه بأسا خصوصا لأجل الفونس »

فلما ذكرت العجوز اسم الفونس ظهرت البغتة على وجه الفتاة وكأنها كانت فى غفلة وأفاقت ، فدق قلبها وصعد الدم الى وجهها فزال ذبول لونها ، ثم تنهدت والتفتت الى العجوز وقالت : « دعينى من الفونس .. حتى الفونس نفسه من أسباب شقائى وقد كنت كما تعلمين أحسبه سبب سعادتى . دعينى أبكى »

فقالت العجوز : « مالى أراك تحسبين الشقاء محدقا بك من كل ناحية وأنت من أسعد خلق الله ؟ كيف تقولين ان الفونس من أسباب شقائك وهو خطيبك ويتفانى فى سبيل مرضاتك ؟ »

قالت : « أعلم ذلك وهو الذى يزيد بلبالى ! أحبه ويحبنى ، ولكن ما الفائدة من هذه المحبة ! ؟ ان الذنب ذنبك ياخالة .. أنت علقت قلبى به ، وكنت خالية لا أعرف القلق . سامحك الله ! »

قالت : « لم أندم على ما بذلته من الجهد فى تقريب قلبيكما لأنكما متناسبان خلقا وخلقا . وأنتما من عائلة واحدة . ولما سعيت فى تقريبكما كان هو ولى عهد هذه المملكة الواسعة . ولما توفقت الى ارتباطكما برباط الخطبة حسبت انى أوصلتك الى أوج السعادة ، لأن الفونس كان لا يلبث أن يصير ملكا على أسبانيا كلها فتكونين أنت ملكة القوط ، ولم يخطر لى أن يحصل ما حصل من الانقلاب فيسعى أهل المطامع والاغراض فى اهلاك أبيه واخراج الملك الى أحد قواده » . ولما بلغت الى هنا خفضت صوتها والتفتت الى ما حولها مخافة أن يسمعها أحد ثم عادت الى اتمام حديثها فقالت : « فاذا كنت تعدين خروج الملك من يديه شقاء فلا ألومك ! »

فقطعت فلورندا كلام خالتها وقالت : « لا لا . ليس ذلك سبب شقائى وانما هو انقطاع الفونس عن المجىء الى .. ها قد مضت أشهر

ولم أشاهده ، وأظننى لن أشاهده بعد أعوام خصوصا بعد انتقالى الى هذا القصر ، أعوذ بالله من هذا الانتقال ، ان قلبى يحدثنى بسوء سيصيبنى منه ، ولذا ترينى منذ انتقلت اليه وأنا منحرفة الصحة لا يهنأ لى عيش »

قالت : « أراك واهمة ياحبيبتى فما فى هذا القصر الا ما يدعو الى انشراح صدرك . وأما سبب انقباضك فانما هو شوقك لألفونس ، وهذا مالا ألومك فيه وان يكن معذورا فى تغيبه ، لأن الملك يراقب حركاته وسكناته خوفا منه ، لعلمه بما اختلسه من قبضة يده ! »

وكان القارب الذى وقع نظر فلورندا عليه فى أعلى النهر قد توارى بين بعض الصخور ثم عاد فظهر من بينهـا على مقربة من حديقـة القصر . وحالمـا وقع نظر فلورندا عليه خفق قلبها لأنها رأت فيه الفونس واثنين من رجاله ، فلم تعد تعلم ماذا تقول ، واكتفت بالاشارة اليه فاقترب القارب من الضفة ونزل الفونس الى البر ، وأشار الى الرجلين فنزل أحدهما ومشى فى جهة أخرى وظل الثانى فى القارب . وكان الفونس حالما وقع نظره على فلورندا قد سار اليها وعليه لباس القواد الرسمى ، المؤلف من سروال منتفخ قصير مبطن بالفرو الى الركبة ، وحول صدره دراعة مقفلة من الامام ، وفوقها قبـاء قصير ارجوانى اللون وحول خصره منطقة من جلد عريضة ، وعلى رأسه قبعة صغيرة لها جناحان من ريش الطير ومن تحتها شعره الاسود يسترسل الى كتفيه

وكان الفونس فى العشرين من عمره ، ولم يستطل شعر عارضيه وشاربيه بعد . وكان أبيض الوجه أسود العينين ، اذا نظرت فى عينيه تبينت فيهما الحب والوداعة مع النباهة ولم تر فيهما شيئا من المكر . وكان قد علق بحب فلورندا مذ كان أبوه على عرش أسـبانيا وهو يومئذ ولى عهد المملـكة لأنه أكبر أخوته . وكانت فلورندا تستبعد حصولها عليه يومئذ ، ولكن خالتها العجوز سعت لدى الملكة والدة الفونس قبل وفاتها بما لها من الدالة عليها بسبب القرابة التى بينهما ، فنجحت وتعلق الفونس بفلورندا تعلقا شديدا ، وكان يتردد عليها كثيرا ، ويجالسها كل يوم تقريبا ، ثم انشغل عنها بعد وفاة والده بما انتابه من ضياع الآمال ، فضلا عن ان رودريك الملك الجديد وضع عليه العيون والارصاد ، فخاف المجىء اليها ، ولـكنه كان يترقب الفرص لرؤيتها كما كان يسأل عن أحوالها حتى سمع بانتقالها من القصر القديم الى القصر الملاصق لقصر الملك وانها تقيم فيه وحدها ،

فهاجت فيه عوامل الغيرة ولم يعد يستطيع صبرا عن مقابلتها للتمتع برؤيتها واستطلاع فكرها ، فاذا رآها لا تزال على عهدها أسرع فى عقد قرانه بها ، لأنه كان يظنها زهدت فيه بعد خروج الملك من يده . واتفق احتفال أهل طليطلة بعيد الميلاد فى تلك الفترة ، وخرج الملك فى موكبه الى الكنيسة الكبرى والفونس فى جملة البطانة ، فخطر له وهو فى أثناء الطريق أن يتخلف عن الموكب خلسة ويمضى الى فلورندا ، اذ كان قد بلغه انحراف صحتها فرجح انها لا تخرج الى الصلاة فى ذلك اليوم ، فاختار المجىء فى القارب لئلا يراه أحد فى أسواق المدينة . وجاء معه فى القارب اثنان من خاصته ، فلما نزل الى البر أرسل أحدهما لاستقدام فرسه حتى يعود عليه راكبا الى الموكب قبيل خروج الملك من الصلاة ، واستبقى الآخر فى القارب لعله يحتاج اليه ، ولما وقع بصره على فلورندا لم يتمالك أن أسرع نحوها وهو يثب وثبا !

▭

أما هى فلما رأته قادما بغتت وظهرت البغتة فى عينيها ، وأسرعت دقات قلبها وارتعدت ركبتاها ، وأرادت أن تقف لملاقاته فلم تستطع من شدة التأثر ، وامتقع لونها وشخصت ببصرها اليه وهى لا تصدق انها تراه !. وأما هو فلما دنا منها ولم تقف له ولا رحبت به تحقق عنده ما كان يظنه من زهدها فيه ، وبعد أن كان مسرعا بلهفة المشتاق تباطأ ، وندم على مجيئه وتطفله . لكنه ما لبث أن رأى العجوز تهرول اليه وهى تتعثر بطرف ثوبها حتى كادت تقع وهى تقول : « أهلا وسهلا بحبيب القلب الفونس » فاطمأن قلبه ، فمشى حتى اقترب من فلورندا فاذا هى لا تزال جالسة وقد التفت بالرداء ويداها مختبئتان فيه ، حتى اذا وقف بين يديها رفعت بصرها اليه بنظرة خرقت أحشاءه ، وقرأ فيها ما لو كتب على القرطاس لملأ عدة صفحات ! قرأ فيها العتب والتعنيف ، وقرأ الشوق والوجد ، وقرأ فيها الحب والغرام والاستعطاف والاستفهام ، فلم يستطع جوابا على تلك المعانى الا بالجثو على ذلك البساط الاخضر وهو يقول بنغمة المحب الولهان : « السلام يافلورندا السلام ! » . ومديده وأحنى رأسه كأنه يسألها احسانا فظلت هى شاخصة اليه ، ويداها لا تزالان مختبئتين فى ذلك الرداء ، ولبث الاثنان برهة وعيونهما تتخاطب وتتفاهم حتى غلب الدمع على فلورندا فغشى عينيها ، فحجب عنهما وجه الفونس فأخرجت يدها من الرداء لتمسح عينيها ، فسبقها الفونس الى استخراج منديله ومسحهما به ثم مسح به وجهه وتنشق

رائحته وتنهد تنهدا شديدا ، وأعاد يده فمدها الى فلورندا فلم تمد يدها اليه ، ففهم انها تتعمد ذلك دلالا وعتبا فلم ينتظرها ، بل مد يده وقبض على يدها قبضة ارتعدت لها فرائص الاثنين كأنما مستهما كهرباء قوية !

مضت فترة وهما يتخاطبان بالالحاظ ، ولهما من قراءة الافكار ما يغنيهما عن الالفاظ . وكانت العجوز تتشاغل عنهما بقطف بعض الازهار والاستتار بين الاغصان رفقا بعواطفهما واغضاء عما قد يبدو منهما فى مثل هذه الحال . وظل الفونس ساكتا وقد عول على الصبر حتى تكون فلورندا البادئة بالكلام ، فقضيا برهة واليد فى اليد ، والعين على العين ، والقلبان يتسارعان كأنهما يتفاهمان بالخفقان ، وقد غشى الاعين ماء لامع هو من أكبر دلائل الهيام !

ثم فتحت فلورندا الحديث بنغمة الدلال والعتاب قالت : « ما الذى جاء بك يا الفونس ؟ »

قال : « لا أدرى ما الذى جاء بى ياحبيبتى . فهل تعلمين أنت ؟ أما الذى أعلمه فهو أنى أسير هواك ، وانى حى برضاك ميت بجفاك . حبيبتى فلورندا : هل عندك مثل ما عندى ؟ نعم أعلم انك كنت تحبيننى ، ولكن هل أنت باقية على ذلك أو على بعضه ، أم غيرك ما غير أحوالنا وأضاع آمالنا ؟ »

فأدركت انه يشير الى خروج الملك من يده ، فسحبت أناملها من بين أنامله بلطف ، وأظهرت أنها تحول وجهها عنه ، ونظرها لا يزال ثابتا فى نظره كأنها تقول له : « أهذا هو مبلغ علمك بالحب وعواطف المحبين؟ » . ففهم الفونس مغزى تلك الاشارة فقال لها : « لم أكن أشك فى صدق مودتك وقد امتزج قلبانا ـ ولكننى حسبت سوء حظى غيرك ، وانى بعد أن خسرت أبى وملكى جرنى سوء الطالع الى خسارة ماهو أثمن من ملك العالم كله ! » . قال ذلك وقد أبرقت عيناه وانبسطت أساريره ، وهو لايزال ينظر اليها ويتوقع أن يسمع قولها فعادت الى السكوت ، والتفت بردائها وحولت نظرها الى مجرى النهر وأصغت الى صوت هديره ، فاستولى على الحديقة سكون لم يكن يتخلله الا خرير الماء وزقزقة العصافير ، فلما طال سكوتها بحث الفونس عن العجوز فاذا هى قادمة وفى يدها بعض الازهار فناداها وهو يقول : « تعالى ياخالة كلمى فلورندا ، عساها أن تتعطف على بكلمة أبرد بها لظى وجدى ! »

وكانت العجوز قد وصلت اليهما فقدمت الزهور الى فلورندا وأجابت الفونس قائلة : « اذا كنت لا تفهم بلا كلام فما أنت من أهل الغرام ! أتحتاج مع ما تراه فى فلورندا الى ايضاح ؟ وهل تظن ما يليق بالشبان من التصريح يليق بالفتيات أيضا ؟ » . ثم التفتت الى فلورندا وقالت : « هذا هو الفونس ، كلميه واسأليه ، وقد سمعت منك شكا فى محبته فهل رأيت صدق قولى فى ثباته ؟ »

فرفعت فلورندا بصرها اليه وقدأخذ الهيام منها مأخذا عظيما حتى ظهر ذلك جليا فيما اعترى عينيها من الذبول واللمعان ، فشخصت ببصرها اليه برهة وهو يكاد يختطفها ببصره وقد نسى مصيبته فى الملك وضياع حقه فيه ، وهان عليه أن ترضى عنه فلورندا ولو خسر العالم بأسره ! وفيما هو غارق فى تلك الهواجس سمعها تقول : « هل شككت فى حبى يا ألفونس ؟ »

قال : « نعم يا منيتى . والمحب كثير الشكوك ! »

فأطرقت وهى تقول : « صدقت ان المحب كثير الشكوك . فقد خامرنى مثل ماخامرك كما قالت خالتى ، ولكن .. »

فقطع الفونس كلامها وقال : « لا أرى مسوغا لشكك فى ، وأنت تعلمين انى متفان فى هواك .. وأما أنا فيحق لى أن أرتاب فى بقائك على عهدى لما أصابنى من نوائب الزمان ، فقد كنت ولى عهد هذه المملكة فأصبحت مثل سائر رجالها »

فلما سمعت ذلك ابتدرته بالجواب قبل استيفاء كلامه قائلة : « لما أحببتك يامنيتى انما أحببت الفونس ولم أحب ولى عهد مملكة القوط . ان الحب لايعتبر الرتب ولا المناصب ، والقلوب يا ألفونس تتعاقد وتتحد ، وهى لاتبصر ولا تقيس ، ولا تكيل ولا تزن . وهى لاتتعارف بالتوصيات ولا تعرف المجاملات ، ولاتفرق بين الحقوق والواجبات .. القلب يا ألفونس لايرى علامات الشرف ، ولايهوى التيجان ولا يخاف الصولجان .. القلب ياحبيبى لايهوى الا القلب ! »

قالت ذلك وقد توردت وجنتاها وبان الاهتمام فى محياها ، وأطرقت وسكتت وفى ملامح فمها أنها لم تستتم الكلام بعد ، فلم يشأ الفونس أن يقطع سلسلة أفكارها فظل صامتا وهو ينظر اليها نظر المستزيد فلما رأته يتوقع كلامها قالت : « على انى آسفة لخروج هذا الامر من يدك ، لا لأنى أحب أن أكون ملكة ، ولكنى .. » . قالت ذلك وغلب عليها الحياء والغضب معا ، فتزايد احمرار وجهها وقطبت أساريرها والتفتت نحو القصر كأنها تخاف رقيبا ، وسكتت . فاشتغل خاطر

الفونس ذلك السكوت وأدرك بعض مرادها ، ولكنه تجاهل وقال لها : « ولكن ماذا يا فلورندا ياحبيبتى ؟ قولى ، أفصحى ! »

قالت وهى تخفض صوتها : « ولكننى لولا هذا التبديل لم أكن أقاسى هذه المتاعب ! لم أكن لأجد نفسى بين أنياب الاسد ، وملاكى الحارس بعيد عنى ! » وخنقتها العبرات ولكنها استمرت فى الكلام فقالت : « ولم يكن لهذا المختلس سبيل الى اقلاق راحتى ! »

فقطع الفونس كلامها وقد ظهرت عليه البغتة واتقدت الغيرة فى قلبه وقال : « بماذا أقلق راحتك ؟ هل خاطبك فى شىء ؟ هل بدا لك منه سوء ؟ أخبرينى ، قولى .. »

قالت : « كلا لم يبد منه شىء ، ولكننى لا أحسب نفسى فى مأمن خصوصا بعد أن نقلنى الى هذا القصر ولم أفهم لهذا النقل معنى . ومن هنا كان بقاء الملك فى يدك أدعى الى سرورى وسعادتى »

فأدرك الفونس الامر الذى تعرض هى به مع ماتوخته من المبالغة فى تلطيف العبارة ، وعلم أنها تقرعه لتقاعده عن المطالبة بحقوقه . وكان لايزال الى تلك الساعة جاثيا بين يديها فلما سمع قولها أحس كأنها صبت ماء غاليا على بدنه ، فوقف وقد غلب عليه الهيام وهان عليه كل شىء فى سبيل ارضائها وقال : « يحق لك أن تعيرينى يا فلورندا اذا كنت متقاعدا عن هذا الامر ، ولكن لكل أجل كتاب . وقد كنت أمسكت عن زيارتك على ألا أزورك الا بعد أن أحقق رغائبك ، فطال سعيى ولم أصل الى المرغوب فلم أعد أطيق الصبر على بعدك . وقد كنت خائفا من فتورك ولكنى رأيت فيك من الثبات فى الحب ما زادنى ثباتا فى مسعاى . فاعلمى يا فلورندا ان ما يتوكأ عليه هذا المختلس من أحزاب الروم عصابة ضعيفة ، وانما تمكن الاساقفة من تنصيبه رغبة فى خدمة رومية ، ثم ان أحزاب المملكة ضده ، وفيهم القوط واليهود وكل من يكره الظلم . وليس هذا محل الافاضة فى هذا الشأن ، ولكننى أقسم لك برأس أبى وان كان مائتا .. ان رودريك هذا لا يلبث أن ينزل ويعود الملك الى أصحابه »

وكانت فلورندا تسمع كلامه وهى تنظر فى وردة من ورود الشتاء كانت خالتها قد جاءتها بها ، فتشاغلت بنثر أوراقها وهى تصغى لما يقول الفونس . فلما بلغ الى قوله « ويعود الملك الى أصحابه » رمت ما بقى بين أناملها من تلك الوردة ، ورفعت بصرها اليه كأنها تتثبت من قوله أو تتفهم حقيقة مايريد ، ففهم مرادها فازداد تهورا فى تصوره ، وأوهمه غرامه أنه قادر على كل شىء فمد يده ومس أطراف شعره

مسترسل على كتفيه وقال : « واذا كنت لاتثقين بقولى فانى أشهدك على نفسى وأشهد هذه الخالة أيضا أن بقاء هذا الشعر حرام على أن لم أف بقولى »

فتحققت فلورندا انه يقسم صادقا ، ولكنها لم تكن تجهل ما يحول بينه وبين تلك الأمنية من العقبات ، فأرادت أن تخفف من عهده فقالت : « لاحاجة بنا الى هذه الاقسام ، لاتعرض نفسك للخطر من أجل الملك فانه مجد باطل . وانما المراد أن نكون معا فى مأمن من أهل الاعتداء ، ولو فى كوخ من أكواخ هؤلاء العبيد الذين يشتغلون فى الحرث والزرع ! »

فأراد الفونس أن يجيبها فسمع صفيرا فبغت ، والتفت فسمع قرع الطبول وقرقعة اللجم فعلم أن موكب الملك راجع من الكنيسة . وقد وصل الموكب الى القصر وهو لا يزال مستغرقا فى حديثه مع فلورندا ، فندم وتحقق انه أخطأ ولابد من أن يسىء رودريك الظن به . ورأته فلورندا قد بغت وسمعت هى مثل ما سمع فأدركت انه أبطأ عن الاحتفال فقالت له : « اذهب الآن بسلام وليكن الله معك . . » . فأمسك يدها وودعها وهو يقول لها : « ادعى لى فانك من الملائكة ودعاؤك مستجاب واذكرينى فى صلاتك عساى أن أوفق لمرضاتك » . فأجابته باشارة من أهدابها وحاجبيها ، فتحول نازلا نحو القارب ليبعد به عن الحديقة ثم يركب فرسه الى القصر من طريق آخر ، وظلت فلورندا واقفة وهى تشيعه ببصرها حتى توارى فعادت الى هواجسها والعجوز بين يديها ، فرجعتا نحو القصر وفلورندا لا تتكلم لعظم ما قام فى نفسها بعد ذلك الحديث ، وقد ندمت لتعريضها بأمر الملك وخافت أن يجر ذلك الى حبيبها الأذى

أما رودريك فقد سار بموكبه الى الكنيسة فى ذلك الصباح وفى نفسه شاغل من أمر الفونس لانه كان يتوقع أن يراه فى الموكب بين الحاشية ، وكانوا قد زينوا الكنيسة للملك زينة باهرة بالرياحين وأضاءوا الشموع وأوقدوا البخور حتى انتشرت رائحته فيما جاور الكنيسة . وكانت أصوات المرتلين والمصلين تسمع لمسافة بعيدة ، والناس يتزاحمون لمشاهدة مركبة الملك حتى كادوا يدوسون بعضهم بعضا ، والمطلون من الاسطح والنوافذ أكثر من المارين فى الاسواق

ولما أقبل الملك بموكبه خرج الاساقفة لاستقباله ووراءهم وبين أيديهم الشمامسة والرهبان يحملون المشاعل من الشمع ، وبعضهم يحمل الصليب أو الكأس ، وما الى ذلك من شارات النصرانية . فترجل

الملك عن بعد وترجل من كان معه ، فكان أول من استقبل الملك رئيس الاساقفة محييا ، فانحنى الملك على يده وقبلها وقبل صليبا مرصعا كان فيها . ومشوا جميعا فى فناء الكنيسة الخارجى والاساقفة ورجال الكهنوت أمامهم حتى أقبلوا على واجهة الكنيسة من الغرب فاجتازوا مدخلها ، وهو يتألف من ثلاثة أبواب أوسطها أعظمها ، عتبته العليا بشكل قنطرة مثلثة عليها نقوش محفورة تمثل الملائكة وبعض القديسين والانبياء . فمشى الملك وعلى رأسه تاج من الذهب يشبه تاج الرومان وشعره مسترسل على كتفيه وظهره ، وشعر لحيته وشاربيه مسترسل الى صدره ، وكل أشراف المملكة بين يديه بالشعور المسترسلة والقبعات المتشابهة ، والكل مبتهجون بما يشاهدونه من الزهو فى ذلك العيد . وساروا فى صحن الكنيسة بين أعمدة فخمة من الرخام النقى أو المرمر ، منصوبة فى ثلاثة صفوف من الغرب الى الشرق يزيد عددها جميعا على ثمانين عمودا ، وعلو الكنيسة من صحنها الى أعلى قبتها ٤٦ مترا ، وطولها يزيد على مائة متر ، وقد زادها فخامة فى ذلك اليوم ما علقوه فيها من الثريات المضيئة بالشموع الملونة والقناديل المنارة بالزيت أمام الصور ، وقد تصاعد البخور وعلت أصوات المرتلين يتخللها غوغاء الناس بالرغم عن سعى الكهنة فى اسكاتهم

ما زال الملك ماشيا حتى استقر على كرسى خاص به بجانب الهيكل ، واستقر سائر حاشيته فى مجالسهم وهم يرسمون علامة الصليب . أما الملك فكان يفعل مثل فعلهم وعيناه شائعتان فى حاشيته من الجماهير كأنه يفتش عن ضائع . وكان فى كرسى عن يمينه قسيس كان يلازمه دائما فيقيم معه فى قصره ، ويصلى له صلاة النوم وصلاة الصبح ، وهو الذى يعرفه ويرشده ويعزيه . وكان الملك لا يذهب فى احتفال الا اصطحبه ، ولا يبرم أمرا الا بمشورته ، اسمه الأب « مرتين » ، وقد طعن فى السن وشاب شعره ، ودق عضله ، وتجعد جلد وجهه ، واستطالت أسرة جبهته ، وغارت عيناه وزادهما ارسال شعر حاجبيه فوقهما غورا واختفاء . وقد تساقطت أسنانه وانخفضت شفتاه حتى أصبح فمه واديا بين جبلين . وكان فى شبابه وكهولته سريع الكلام فلما صار أهتم خالط كلامه تمتمة تتعب السامع فى تفهم ما يقول ! ثم هو قصير القامة منتصبها مثل قامة الشبان ، شديد التعلق بكرسى رومية لانه ربى فيها فشب رومانى المبدأ والغرض ، ولم يكن يحب جنس القوط على الاطلاق ، وكان يحقد على « غيطشة » وأولاده

بنوع خاص ، لان غيطشة كان يكرهه لشدة تعصبه لرومية ، فكان لذلك من أكبر المساعدين على تنصيب رودريك ، وكان رودريك لا يقطع أمرا الا بمشورته . وكان فى جملة مشوراته أن يضيق على الفونس ولا يسمح بغيابه عن القصر ، وأن يكون دائما بين يديه خوفا من أن ينشىء الاحزاب للمطالبة بالملك

فلما وصل الملك الى الكنيسة فى ذلك اليوم كان أول شيء نبهه اليه « مرتين » أن الفونس لم يكن فى جملة فرسان الموكب . فتفرس الملك فيمن حوله فلم يجده بينهم فانشغل خاطره ، ولكنه ما لبث أن شغل عن ذلك برسوم الصلاة وما تقتضيه من الانتباه لحركات الكهنة فى أثناء القداس ، على أنه كان يعود برهة بعد أخرى الى البحث عن الفونس خلسة

— ٢ —

انقضت الصلاة وخرج الملك الى موكبه ، وعاد الى البحث عن الفونس فلم يجده ، فركب ودعا الاب مرتين للركوب معه فقضيا مسافة الطريق يتساران فى سبب تغيب الفونس ذلك اليوم . فلما دنا الموكبُ من القصر رأى الأب مرتين الفونس مقبلا من ناحيته ، مسرعا على جواده ، وكان عالما بعلاقته بفلورندا فأدرك انها هى سبب تغيبه ، ولكنه اقتصر على تنبيه الملك الى قدومه

ولما وصل الملك الى قصره ترجل عند الباب الكبير وصعد بضع درجات عريضة من الرخام تؤدى الى فناء القصر ، ثم الى باحة قائمة على أساطين تستطرق الى بهو متفرع يؤدى الى أجزاء القصر المختلفة وفى جملتها قاعة المجلس . فدخل الملك وقسيسه من طريق خاص يؤدى الى تلك القاعة ، ودخل رجال الدولة وفيهم وفود المهنئين من الطريق العام ، فجلس الملك على عرش مرتفع من الفضة قوائمه بشكل قوائم الاسد والملك فى الملابس الرسمية وعلى كتفه بردة من الديباج موشاة بالذهب ، وعلى رأسه تاج من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة ، وفى يده صولجان من الذهب أيضا ينتهى بصليب مرصع

وكان رودريك فى نحو الاربعين من العمر ، ممتلىء الجسم ، بارز الصدر والبطن ، قوى البدن ، تلوح فى وجهه أمارات البسالة ، عيناه جاحظتان كبيرتان ، وحاجباه غليظان وشعر شاربيه طويل يزيد على طول شعر لحيته ورأسه ، فجلس على عرشه وفوق العرش صورة كبيرة

تمثل السيد المسيح مصلوبا ، وعلى جدران القاعة صور دينية عديدة وجلس بجانبه الاب مرتين ، وبين يديه رجال خاصته ، ثم توافد الناس لتقديم التهانى وفى جملتهم الفونس الذى دخل وحيى الملك وهنأه كما فعل الآخرون ، وجلس فى جملة الجالسين ، فلما هموا بالانصراف أراد أن ينصرف مثلهم فأشار اليه رودريك أن يبقى ، فأوجس خيفة من ذلك الاستبقاء ولكنه صبر ، حتى اذا خلا المجلس ولم يبق فى القاعة غير الملك والقسيس ناداه الملك فوقف بين يديه فقال له : « ما الذى أخرك عن مرافقة الموكب فى هذا الصباح يا الفونس ؟ »

فبغت الفونس ولم يكن مستعدا للجواب ، لانه لم يكن يظن الملك يهتم لغيابه هذا الاهتمام ولكنه تجلد وأجاب : « كنت فى شاغل عاقنى عن القيام بفروض الصلاة بين يدى جلالة الملك »

قال الملك : « من الغريب أن يتفق لك هذا الشاغل فى تذكار عيد الميلاد ، وفى ساعة خروج الموكب . . ! » . قال ذلك ، وحول نظره الى صورة فى الحائط تمثل مريم العذراء تحمل طفلها وتشاغل بتمشيط طرف لحيته بأنامله ، فقال الفونس : « نعم انه اتفاق غريب ، ولكنه وقع ولا حيلة فى وقوعه ، وانى أتأسف لذلك »

وكان الأب مرتين فى أثناء ذلك مشتغلا بتلاوة بعض الصلوات أمام صورة مريم العذراء بصوت منخفض لايسمعه أحد ، ولما فرغ من صلاته عاد وتزمل بردائه وأصلح قلنسوته ، وجلس بجانب الملك وأصغى لما يدور بينهما . فلما رآه الفونس مهتما بالامر اختلج قلبه لعلمه بما يحمله له من ضغينة . أما الملك فلما سمع الاعتذار لم يقبله ، ولكنه رأى من الحكمة أن يؤجل مناقشته الى أن يقف على رأى القسيس فأراد أن يصرفه ، ولكنه سمع القسيس يقول له : « يظهر ان انشغالك كان فى قصر جلالة الملك ، أو بجوار قصره » . قال ذلك وتنحنح وتشاغل بمسح فمه بمنديله ، فزاد استياء الفونس منه ولكنه خاف اذا أجابه أن يصرح بشىء آخر

وأما الملك فانه توسم فى عبارة القسيس شيئا كان يتردد فى ذهنه فأراد أن يقف عليه منه على حدة ، فلم يصبر على الفونس حتى يجيب ، بل التفت اليه لفتة الاستخفاف والتهديد والاغضاء معا وقال : « انصرف الآن يا بنى ، واحترس أن تفعل ذلك مرة أخرى »

فأحس الفونس عند ذلك بفرح سكن له جأشه ، وكأن ثقلا كبيرا نزل عن صدره فتحول نحو الباب ، وخرج وهو لا يكاد يرى شيئا

أمامه لعظم ما قام فى نفسه من أسباب القلق . ولم يكد يخرج من باب القصر حتى انتبه لنفسه ، وتمثل له مركزه وما آل اليه أمره بعد خروج الملك من يده . فقد كان على عهد أبيه اذا مر من هناك تسابق الناس الى تحيته ، ولا يبقى أحد لا يقف له ، وها هو ذا اليوم يمر والناس يتزاحمون فى فناء القصر فلا ينتبه له أحد الا الاصدقاء .. حتى هؤلاء أصبحوا يحاذرون الجهر بصداقته خوفا من أن يسىء الملك ظنه بهم !

خرج الفونس وقد هبت فى نفسه عوامل الغيرة ، وكانت ألفاظ فلورندا لا تزال ترن فى أذنيه فتذكر وعده اياها باستعادة الملك فزاده غيظه منه تمسكا بوعده ، فركب جواده وسار توا الى منزله وهو غارق فى بحار الهواجس وقد هان عليه ركوب المخاطر فى سبيل الانتقام لوالده. واسترضاء فلورندا

أما رودريك فلما خرج الفونس من مجلسه تظاهر برغبته فى الاستراحة ، فدخل غرفته الخاصة حيث جاء بعض رجال القصر فنزعوا لباسه الرسمى وألبسوه ثيابه الاعتيادية ، وهو لا يخاطب أحدا منهم فى شىء لاشتغال خاطره بالعبارة التى سمعها من الاب مرتين عن الفونس والقصر ! فلما فرغ من لبس الثياب دعا الأب للغداء معه فجاء ، وبينما هما على المائدة لم يخاطبه الملك فى شىء لوجود الملكة معهما وهو يحب أن يبعد أمثال هذه الامور عن ذهنها حتى لا تنتابها الغيرة ، فلما فرغوا من الطعام قال الملك : « يا أبتاه أطلب اليك بعد ختام المائدة بالصلاة أن ترافقنى الى غرفتى ... » ولم تكن هذه الدعوة غريبة على الملكة لان زوجها كثيرا ما كان يخلو بالأب مرتين مثل هذه الخلوة ، للمخابرة أو المشاورة أو الاعتراف أو غير ذلك . فلما خلوا فى الغرفة قال رودريك : « ما قولك فى صاحبنا اليوم ..؟ »

قال : « اذا كنت تعنى الفونس فأرى أن جلالة الملك قد بالغ فى الحلم والرأفة فى معاملته .. كيف يتغيب عن موكب جلالتك لأعذار ما أنزل الله بها من سلطان؟ » . قال ذلك فى عجلة ، وبنغمة الاستغراب ، بغية التأثير فى الملك ، ولو لم يكن رودريك قد ألف لهجته وتمتمته لما فهم منها شيئا !

قال الملك : « ولكننى سمعتك تشير الى عذره اشارة لم أفهمها جيدا ! »

فأدرك الأب أن الملك يحتال فى استطلاع ما بين الفونس وفلورندا وهو يتجاهل ويتظاهر بأنه يسأل سؤالا بسيطا ، فسايره الأب على فكره وأجابه بنغمة البساطة قائلا : « لم أقل شيئا ، وانما قلت انه تأخر فى القصر .. »

قال : « وأى قصر ؟! »

قال : « وأى قصر ؟.. قصر جلالة الملك.. كأن مولاى لا يعلم علاقته بذلك القصر .. ! »

قال وهو يبالغ فى التجاهل : « لا أعلم أن له علاقة بهذا القصر بعد أن خرج الملك من أيديهم الى يدى .. ! »

قال : « لا أعنى علاقته بالملك .. بل أعنى علاقته بفلورندا ابنة الكونت جوليان ، التى أمر جلالة الملك بنقلها الى القصر الصغير منذ بضعة أيام ... »

فلما ذكر اسم فلورندا زفر الملك وخفق قلبه حبا وغيرة ، ولكن أنفة الملك ثبتت عزيمته فتجلد كأن الامر لا يهمه وقال : « أهى علاقة قرابة ؟.. أم ماذا ؟.. »

قال : « لا يخفى على جلالة الملك أن بين الكونت جوليان حاكم سبتة والد فلورندا وبين غيطشة قرابة أظنها نسائية ، ولكننى أعنى قرابة الفونس من فلورندا بنوع خاص ... »

قال : « أى قرابة ؟.. »

فضحك مرتين وقال : « كنت أحسب الملك عارفا بذلك ، لان خطبتهما مشهورة من قبل تولى جلالتكم عرش أسبانيا .. »

فلما سمع رودريك ذلك عظم عليه الامر ، لانه كان يحب فلورندا كثيرا ولم يكن يعلم بهذه الخطبة .. ولكنه لم يكن يخاف خروجها من يده اعتمادا على ما له من السيطرة عليها وعلى خطيبها ، وعول على أن يطمعها بالمال والسلطان ، أو يتهددها حتى تترك الفونس وتعيش معه . ولم يشأ أن يطلع القسيس على ما يجول بفكره ، فتظاهر باقتناعه بهذا الجواب ووقف ، فأدرك القسيس أن الملك يريد الانصراف فوقف هو أيضا وانسحب ...

وكان بين غرفة الملك والقصر الذى تقيم فيه فلورندا ممر ليس من سبيل اليه سواه ، فقد بنى على هذه الكيفية لمثل هذه الغاية ، فعول رودريك على مكاشفتها بحبه لعلها تقلع عن محبة الفونس ، ولم

ير أن يستقدمها الى غرفته لئلا تشعر الملكة بذلك وهو انما ينوى معاشرتها خفية عنها ، فأغلق الباب المستطرق الى قصره وفتح الباب المؤدى الى قصر فلورندا . . .

▭

وكانت فلورندا بعد ذهاب حبيبها قد انتقلت هى والعجوز من الحديقة الى القصر وأخذ الهيام منها مأخذا عظيما ، ولكنها لم تلبث أن انشغلت بمراجعة ما دار بينها وبين الفونس فى ذلك الاجتماع فندمت لما فرط من أقوالها المهيجة له على طلب الملك ، وعمدت الى الخلوة بنفسها لعلها تهتدى الى ما يخفف هواجسها ، فدخلت غرفتها وكانت تلك الغرفة تطل على الحديقة من جهة نهر التاج وتحجبها عنه شجرة من شجر اللوز قد تعاظمت أغصانها وتشامخت ، حتى أصبحت فلورندا اذا جلست الى نافذتها لا ترى النهر الا من خلال الاغصان التى كانت قد تجردت فى ذلك الفصل من أوراقها ، فما كادت ترسل نظرها خلالها الى النهر وما وراءه حتى رأت القارب قد بعد عن المكان فأرسلت أفكارها فى فضاء الهواجس

أما العجوز فانها تحولت الى ايقونة بجانب سرير فلورندا فيها صورة المسيح مصلوبا فجثت أمامها وقبلتها وجعلت تقرع صدرها وتطلب الى المسيح أن يحفظ الفونس ويوفقه ، ويتم له الزواج بفلورندا ، ولما فرغت من صلاتها قبلت الصورة وخرجت ، تاركة فلورندا فى هواجسها ، وأغلقت الباب وراءها ، وأوصت الخدم ألا يقربوا الغرفة لئلا يزعجوها . على ان الخدم لم يكن يؤذن لهم بالصعود الى الطبقة العليا من ذلك القصر ، بل كانوا يقيمون فى الطبقة السفلى ، فاذا أرادت فلورندا حاجة بعثت اليهم مع العجوز

واستغرقت فلورندا فى هواجسها أمام النافذة حتى نسيت نفسها وتعبت من التفكير ، ثم أحست بالنعاس فاتكأت على سريرها وهى لا تزال فى الحالة التى قابلت بها الفونس ، فرأته فى منامها قادما نحوها ووجهه يطفح نورا وأحبت أن تقبله فلم تستطع ، فانزعجت ، وأفاقت وهى منقبضة النفس . وبينما هى تمسح عينيها لتتحقق أنها فى المنام سمعت وقع خطوات ، فنظرت فاذا بالعجوز داخلة من الباب وفى وجهها علائم الخوف ، فجلست فلورندا وقد بغتت وقالت : « ما بالك باخالة ! ما وراءك ؟ »

قالت : « ما ورائى الا الخير .. لاتضطربى ! » وسكتت

فازداد قلق فلورندا وصاحت بها : « ماذا جرى هل أصاب الفونس سوء ؟ ! »

قالت : « معاذ الله . . ولكن الملك يدعوك اليه »

فلما سمعت ذلك ، اضطربت جوارحها ، ونسيت هواجسها ، وتشاءمت من تلك الدعوة وقالت : « أين هو ؟ وما الذى يبغيه منى؟ »

قالت : « لا أدرى يا سيدتى ، ولكنى كنت فى غرفتى أصلح بعض شأنى فرأيت الملك بنفسه داخلا دخول السارق فبغت لرؤيته ، فسألنى عنك وطلب الى أن أدعوك الى الغرفة الشمالية من هذا القصر ، على أن تأتى حالا بالحالة التى تكونين فيها ! »

فوثبت فلورندا من فراشها وقد تحققت وقوع الخطر الذى كانت تخافه ، ولكنها اعتمدت على الله وثبتت جأشها ودنت من الايقونة فقبلتها ، وصلت الى الله أن يشجعها وينقذها من مخالب الشرير ، وطلبت الى خالتها أن تصلى عنها أيضا ، ثم التفت بالرداء كما كانت ومشت وهى تتوسل الى الله من أعماق قلبها أن ينجيها من هذه التجربة — ولا يرتاح المرء فى مثل هذه الحالة الا بالتوسل الى القوى العلوية غير المنظورة !

مشت فلورندا كالذاهب الى القتل ! فلا غرو اذا اصطكت ركبتاها وارتعدت مفاصلها وودت أن تكون تلك الغرفة على مسافة أميال منها . . على أنها تشجعت باتكالها على الله حتى اذا دنت من الغرفة سمعت وقع خطوات ، واذا بالملك قد خرج لاستقبالها الى الباب وهو يبتسم لها ويرحب بها ، وقد خيل له أن ابتسامته ستجعلها طوع ارادته ، وانه يكفى أن يظهر ارتياحه لمجالستها لتتفانى هى فى ارضائه !

أما هى فدخلت الغرفة بخطوات ثابتة ، والانفة والعفة يتسابقان الى قلبها ، والغضب والخوف يتجليان فى وجهها ، وهو يسير بين يديها حتى جلس على المقعد ودعاها للجلوس الى جانبه ، فقالت وأمارات الحشمة والرزانة بادية فى محياها : « لا يليق بمثلى أن تجلس فى حضرة الملك »

فقال وهو يضحك : « اجلسى يا فلورندا ، فانى لم أدعك الى لأحملك مشاق التجمل ولكننى أردت أن ألاقيك وأنت فى راحة وسعادة . اجلسى »

قالت : « العفو يا مولاى . . . »

فقطع كلامها وأمسك بيدها وأجلسها ، فأحست لما لمست يدها يده كأن شيطانا يلمسها ، فأحفات ، وجذبت يدها من يده ، وجلست

وهى تحاذر أن يلمس ثوبها ثوبه ، فأحس رودريك باجتذاب يده وكان قد شعر بلمس تلك اليد عكس ما شعرت هى به ، فشق عليه مابدا من نفرتها ولكنه حمله منها محمل الحياء فابتسم وقال : « لا ألومك يا فلورندا لما يبدو فى وجهك من البغتة اذ تقعين لأول مرة بين يدى ملك الإسبان ، ولكن اعلمى يا ملكة الجمال انى لم آت اليك بنفسى الا لأدعوك الى السعادة . ولا أريد أن تخاطبينى كما تخاطبين الملك ، بل خاطبينى كما تخاطبين رجلا يحبك ويهواك ، ويريد أن يجعلك أسعد فتاة فى هذا العالم ! »

فلما سمعت فلورندا قوله تحققت قصده ، ولكنها أحبت التخلص منه بالحسنى فوقفت وهى تقول : « حاشا لمثلى أن تكون غير خادمة حقيرة بين يدى ملك الاسبان الذى يتمثل الناس بشدة بطشه . . ! »

فقطع كلامها وقال : « وما يمنع أن تكونى حبيبتى أيضا ؟ بل أن تكونى مولاتى ومالكة زمامى وزمام مملكتى ؟ ! » . قال ذلك وقد ثارت عواطفه واحمرت عيناه ورجفت شفتاه وهو يحاول التلطف بالكلام والاشارات ، ولكن الخشونة ما زالت غالبة على لفظه وخلقه !

فقالت : « كلا يا مولاى لايمكن أن أكون كذلك . وأرى جلالة الملك قد فرط فيما وفق اليه فى دنياه فان هذا الموقف لا يليق بمثلى ! »

فظنها لا تصدق عظم محبته لها ، وانها تخاف أن يكون عاملا على مخادعتها ، فوقف هو أيضا وقال : « يظهر لى انك لم تصدقى قولى . . ويحق لك أن تستغربى ما يبدو من تفريطى . . ولكننى أعترف لك يا فلورندا انك قد ملكت قلبى وروحى ، وتسلطت على كل جوارحى ، فتعطفى على وتلطفى بالقبول »

قال ذلك وهو ينظر اليها وقد انحنى نحوها انحناء المتذلل المستعطف وبسط يديه وهما ترتعدان من شدة الهياج . . أما هى فلم تعبأ بهذه الظواهر الخادعة فظلت على هدوئها وثبات جأشها وقالت بصوت هادىء : « أقبل ماذا ؟ »

فتوسم من سؤالها قرب قبولها فقال : « ان تكونى شريكة حياتى فتعيشين معى عيش السعادة والرفاء ، وتكونين أنت الآمرة الناهية »

فنظرت اليه نظر التوبيخ والاحتقار وقالت : « وجلالة الملكة ؟ ! »

وكانت تلك العبارة أشد وقعا من الصاعقة على رأسه ولم يكن يتوقع تلك الانفة من فلورندا ، لأنه لم يكن يعرف قيمة العفة ولايدرك قيمة الحرية الشخصية ، ولذلك كان يظن نفسه اذا ابتسم لفلورندا ابتسامة ترامت عند قدميه وسلمت نفسها له ، وقد فاته ان العفة

أثمن مما فى خزائن الملوك ، وأسمى مما على عروشهم ، وأرقى مما تبلغ اليه مدنيتهم . بل هى سيف قاطع تقف به الفتاة أمام الملوك وتحسب أنها أقوى منهم سلطانا وأعز شأنا ! ولذلك كان موقف فلورندا بين يدى رودريك موقف الملك أمام الملك ، ولم يكن تواضعها فى أول الامر الا رغبة فى التخلص بالحسنى ، فلما رأت استرساله فى القول أجابته بكلمة اضطربت لها كل جوارحه ، كلمة ذكرته ارتباطه بزوجته الرباط المقدس الذى لا يجيز له مخاطبة سواها بمثل ذلك ...

فساءه أن تخجله بتلك العبارة لما تتضمنه من التوبيخ والتعنيف ، ولكنه تجاهل مرادها وظل على أسلوبه بالملاطفة فقال : « يا للعجب من جهالتك وغرورك .. ! أدعوك الى السعادة والشرف ، وأمهد لك الطريق اليهما وأنت تقيمين العقبات ؟ ! ألا تعلمين يا فلورندا ان الامر الذى أدعوك اليه ليس فى هذه المملكة ولا فى غيرها فتاة الا وتنذر النذور للحصول عليه ؟ ! تعقلى ، وارجعى الى رشدك ، واعلمى أنك ترفضين سعادة لاينالها الا القليلات ، وشرفا تتطاول اليه أعناق ربات الحجال ! وهل تجهلين انك اذا أطعتنى تنالين عزا لم يحلم به أحد من أهلك ، وانك اذا ظللت على غيك أسأت الى أبيك ، لأننى اذا رأيت منك الرضاء بما عرضته عليك جعلت والدك من أقرب المقربين من البلاط ؟ ! »

فلما سمعت قوله لم تصبر عن الغضب وأحست بسلطان لها يفوق سلطانه فخاطبته بما لايخاطب به الملوك وقالت وهى تشير بأصبعها الى نفسها : « تزعم يا رودريك انك تدعونى الى السعادة والشرف ، وأنت انما تدعونى الى الشقاء والدناءة ؟ انك بمخاطبتك اياى بهذا القول ولو تلميحا قد أهنتنى واستصغرتنى . بل انك بتوهمك قبولى ما تعرضه جعلتنى أدنى خلق الله ! .. فأقلع عن ذلك ودعنى وشأنى ، فانك صاحب عز وسلطان ، ولك الرقاب والاموال ، وأما أنا فليس لى الا هذه الجوهرة .. أفتسلبنى اياها .. ؟ وهل تظن انك اذا أردت ذلك تستطيعه ؟ ! » . وارتعشت يدها وارتجفت شفتاها وابيضتا من شدة التأثر فاستطردت قائلة : « كلا لايستطيع أحد أن يسلبنى هذه الجوهرة ، فانها أثمن من خزائن العالم بأسره .. وهى سلاحى وترسى ودرعى ، وهى سبيلى الى السعادة الابدية ! »

فعظم على الملك ما سمعه من توبيخها حتى رقصت لحيته فى صدره ، ولكن هيبة الحق وسلطان العدل غلبا على غضبه فلم يجسر على اهانتها .

على أنه لم يقطع الامل فى قبولها فأراد مطاولتها بأن يخلط الجد بالهزل فقال : « وهل ذلك الغلام أحق بك منى ؟ »

فلم يزدها قوله الا عزيمة وثباتا ، وقد أدركت أنه يريد الحط من قدر الفونس فقالت : « مهما يكن من أمره فانه نصيبى فى هذا العالم ، وهو خطيبى بشرع الله »

فازداد استغرابا لجسارتها وحدثته نفسه أن يجافيها ويستخدم القسوة فى معاملتها ، ولكنه أجل ذلك الى فراغ جعبة حيله من اقناعها بالملاطفة فقال لها : « يظهر يا فلورندا ان صغر سنك لا يزال غالبا على عقلك ، ولولا ذلك لم تفضلى غلاما لاشأن له ولا مقام على ملك ملوك الأسبان ! ولكننى أعذرك على طيشك ، وأبيح لك التفكير فى أمرك حتى ترجعى الى صوابك ، ولا ترفضى النعمة التى أبذلها لك . . فلا نضيعى هذه الفرصة بما تتمسكين به من الاوهام الباطلة والاعتبارات الفارغة . . وهذا آخر ما أبذله لك من النصيحة . . فتدبرى أمرك »

فلما رأت أن التوبيخ لم يجد معه نفعا عمدت الى اقناعه بنفس برهانه فسكنت اضطرابها وقالت بنغمة التعقل والرزانة : « يقول جلالة الملك انى أتمسك بالاوهام الباطلة والاعتبارات الفارغة ، فما قوله اذا علم أن جلالة الملكة تراود شابا عن نفسه ، وتطلب اليه أن يعيش معها ويكون شريك حياتها . . ! ؟ »

فلما سمع رودريك قوة حجتها مع ما فى ذلك البرهان من التحقير له هاج غضبه ، ولاح له أن يستخدم العنف فى اقناعها ، وهم أن يأمر بالقبض عليها وتعذيبها لعلها ترعوى عن تمسكها بالفونس ، لانه ظنها لم ترفض الا لاغترارها به وتوهمها فيه القوة أو الثروة ، وما زال يعتقد أنها اذا تحققت فقر الفونس وضعفه تتركه وتطلب الكفة الراجحة ، فلا ترى أفضل لها من ملك الأسبان . . وانما توهم رودريك ذلك لانه لا يفهم معنى الحب الطاهر ولا يدرك منزلة العفة الحقيقية . وما درى أن القلبين اذا تعاقدا كانت السعادة كلها فى تعاقدهما دون أن يكون للغنى أو الشرف دخل فى ذلك ، وتوهم أيضا انه اذا حقر الفونس فى عينى فلورندا يزهدها فيه فجاءها من هذا الباب وسكت عما سألته عنه من حيث امرأته فقال : « ألا تعلمين يا فلورندا أن الفونس من بعض أتباعى ، وان زمامه فى يدى أفعل به ما شئت ؟ ! يظهر أنك لا تعلمين ذلك . . ولعلك لا تزالين على ما كنت تعلمينه قبل خروج الملك من يده . . . »

لم يكن ذلك الطعن فى الفونس الا ليزيدها تمسكا به وتفانيا فى محبته ، ولكنها خافت اذا أجابته جوابا عنيفا أن يغضب عليه ويعمل على ايذائه . فأحبت أن تقنعه باللطف لعلها تخفف من غضبه ، ريثما يفتح الله عليها بالفرج فقالت : « اذا صح أن الانسان لا يجب أن يحب غير الذى يكسبه مالا أو شرفا ، فما الذى حبب جلالة الملك فى هذه الفتاة الحقيرة حتى أراد أن يجعلها سيدة أهل عصرها كافة ؟ واذا كانت القاعدة أن نهمل الفقراء وألا نحبهم فما أجدر مولاى الملك بأن يرذلنى ويطردنى من حضرته لانى لا أعد شيئا بجانب سلطانه ورفعة مقامه !.. فأرجو مولاى أن يفعل ذلك فانه أولى بمنصبه وأحفظ لكرامته .. » قالت ذلك وقد توردت وجنتاها من عظم تأثرها وهياج عواطفها واصطكت ركبتاها حتى لم تعد تستطيع الوقوف ، ولكنها تجلدت وتشاغلت بملاعبة أطراف جدائلها بين أناملها ولبثت تنتظر جواب رودريك الذى تبين رباطة جأشها وقوة حجتها فرأى أن يأتيها بالحيلة ويترك العنف الى ما بعد فراغه من الحيل .. ذلك انه لما آنس تمسكها بالفونس وتعلقها به تبادر الى ذهنه أن ابعاده عنها يغيرها ويحملها على قبول سواه ، فتظاهر بأمر طرأ على خاطره بغتة فقال : « لا أزال أعتقد اغترارك بالوهم ، وقد طرأ على أمر يستعجلنى الى القصر الآن وما ذاك الا من حسن حظك ، لانى أترك لك بذلك فرصة تعملين الفكرة فيها لعلك ترجعين الى رشدك . فاذا لم ترجعى بعد هذه الفرصة فلا تلومى الا نفسك ! » . قال ذلك بلهجة شديدة ومشى حتى خرج من الغرفة وترك فلورندا وحدها

أما هى فقد سرها هذا التأجيل لعلها تجد سبيلا للنجاة . فمشت نحو غرفتها وقد فاضت أشجانها وعاد اليها الخوف وتزايد اضطرابها ، فلقيتها العجوز بباب الغرفة فابتدرتها بالسؤال عما جرى فلم تجبها ولكنها ظلت سائرة حتى أقبلت على أيقونة المسيح فجثت أمامها وقرعت صدرها وقد خنقتها العبرات ، وتحول تجلدها ورباطة جأشها بين يدى رودريك الى الحزن والكآبة ولم تر لها فرجا بغير البكاء فجعلت تتضرع الى صاحب تلك الايقونة بدموع حارة ، وبعبارات صادرة عن قلب طاهر يتدفق محبة وتقوى

فلما رأتها العجوز جاثية جثت الى جانبها وصلت معها وكلما قالت فلورندا عبارة أمنت العجوز لها . وكان فى جملة صلاتها قولها : « ابعد عنى أيها المخلص هذه التجربة ، وغير قلب هذا الملك ليرجع الى طاعتك ويشعر بفظاعة الامر الذى هو عازم على ارتكابه .. أرشدنى يارب الى

سبيل أنجو به من هذه الاشراك .. واحفظ عبدك الفونس من كل شر ، واحرسه ، وكن معه .. واجمعنا أيها المخلص لنعيش معا بتقوى الله ومرضاته .. تحنن على هذه المسكينة الغريبة .. هذه الفتاة التعسة التى ليس لها ملجأ سواك .. أنت ملجأ البائسين والضعفاء .. لا تسمح يارب بوقوع هذا الشر فى تذكار ميلادك المجيد .. »

وكانت كلما قالت عبارة تقرع صدرها وخالتها تقول : « آمين » وهما تذرفان الدموع السخينة . فلما فرغتا من الصلاة نهضتا ، وأحست فلورندا بانبساط نفسها وارتياح ضميرها ، وشعرت كأن الاخطار قد زالت عنها وقد ألقت متاعبها عند الله .. ومثل هذه الراحة لايشعر بها غير أهل الايمان الوطيد . فان أحدهم اذا أحدقت به مصائب العالم تحملها بالصبر ، وأذهب آثارها بالصلاة . والبكاء من أقوى مذهبات الانقباض . فكثيرا ما يشعر الانسان بضيق فاذا بكى زال ذلك الضيق . ويغلب هذا الشعور فى النساء أكثر مما فى الرجال

فلما زال اضطراب فلورندا جلست تفكر فى سبيل نجاتها واستغرقت فى الافكار والعجوز جالسة القرفصاء تنظر ما يبدو منها

- ٣ -

فلنترك فلورندا فى تأملاتها ولنرجع الى الفونس ، لنرى ماكان من أمره بعد ذهابه الى منزله . ولم يكن منزله بعيدا عن قصر الملك ، فلما وصل اليه ترجل وسلم الجواد الى بعض الخدم وهم بالدخول ، فأحس بشىء استوقفه فوقف لحظة ثم دخل حتى أتى غرفته ، فرأى خادمه الخاص واقفا ببابها ينتظر قدومه ليبلغ أوامره الى من يريد

وكان ذلك الخادم كهلا قصير القامة ، جاحظ العينين ، أعقف الانف ، بارز الذقن ، ذا لحية قصيرة منفصلة الى شعبتين مخروطتى الشكل ، بارزتين نحو الامام ، دب الشيب فى طرفيهما ولا يزال أصل اللحية عند الذقن أسود أوهو كستنائى اللون .. وكان اسمه يعقوب ، ولم يكن له عناية بتسريح شعره فكان الاهمال ظاهرا فى لحيته حتى لقد تحسبها جذاذة نعجة تلبد صوفها وتشبك ثم نبشت أطرافها ! على أن وجه الرجل كان على الاجمال مضحكا لبروز الانف وجحوظ العينين وبروز اللحية على تلك الصورة . وكان مع ذلك كثير الحركة خفيف الروح لاينفك وجهه ضاحكا . وكان قد ربى فى بيت غيطشة قبل تملكه ، فلما ملك قربه منه وكان يثق به ويعهد اليه بأموره ويسر

اليه كثيرا من آرائه ، وأهـل القصر يحسـدونه على ذلك التقرب خصوصا لأنه غير قوطى ، لم يكونوا يعرفون أصله ولا كيفية وصوله الى ذلك المنصب ! حتى اذا ما دنا أجل غيطشة أوصى أولاده به وأوصاه بهم ، خصوصا الفونس ، فقد أوصاه بالاعتماد على يعقوب فى كل مهماته . وكان الفونس قد تعود احترامه والوثوق به من عهد والده ويعقوب يتفانى فى خدمته . وقد لايظهر لمن يراه لأول وهلة انه ذو رأى أو همة لما يبدو فى وجهه من ملامح المجون مع خفة الروح ، ولكنه كان فى مقام الجد من أكثر الناس جدا وهمة !

فلما وصل الفونس الى غرفته استقبله يعقوب ضاحكا وفتح له الباب فدخل دون أن يكلمه على خلاف عادته من ممازحته ومداعبته ، فأدرك يعقوب انه فى شاغل مهم فوقف لا يخاطبه فى شىء لئلا يعترض مجارى أفكاره أو يثقل كلامه عليه .. أما الفونس فأول شىء فعله عند دخوله الغرفة أن خلع قبعته عن رأسه ، ونزع سيفه وعلقه على الحائط ، وجلس على كرسى من الخشب بجانب نافذة تطل على مغارس طليطلة عن بعد ، وأرسل بصره فى ذلك الفضاء وما زال النهار صاحيا والجو صافيا .. لبث برهة لايتكلم ثم التفت بغتة وصاح : « يعقوب ! » فاذا هو بين يديه . فقال له : « هل جاء عمى الى هنا فى أثناء غيابى .. ؟ »

قال : « كلا يا مولاى انه لم يأت .. ألم تجده فى الكنيسة .. ؟ »

فتذكر الفونس الصـلاة فتبادر الى ذهنـه ان عمه كان فى جملة المصلين لأنه مطران (متروبوليت) ولكنه عاد فتذكر انه بالنظر لما بين عائلته وبين عائلة الملك من التباعد سار للصلاة فى كنيسة أخرى . فقال ليعقوب : « أتظنه سار الى الـكنيسة ؟ ولماذا لم تذهب أنت للصلاة أيضا .. ؟ »

قال : « كنت مشتغلا بأمور البيت .. وقد صليت هنا .. ألا يكفى ذلك ؟ .. »

قال الفونس وكأنه تذكر أمرا كان قد ذهب عن خاطره : « سامحنى فانى نسيت وصية والدى ألا أسألك عن الصلاة .. ما رأيك فى عمى المطران ؟ انى فى حاجة اليه » . قال : « مر ، وأنا أستقدمه على عجل ولو كان فى رومية ! » . قال ذلك وتبسم فأدرك الفونس انه يلمح الى ما بينهم وبين رومية من التنافر . فاستحسن منه هذا المجون وقال له : « لا أظنه بعيدا بهذا المقدار .. الى به »

فخرج يعقوب الى غرفة الخدم فبعث خادما يفتش عن المطران فى الكنيسة وآخر يفتش عنه فى بيته ، وثالثا فى مكان آخر من مظانه ،

ورجع وهو فى شاغل من أمر الفونس ولكنه لم يتجاسر على استطلاع أمره . فلما وصل الى الغرفة أخبر الفونس بما فعله وظل واقفا وهو يلاعب أطراف لحيته بين أصابعه وينتظر أمره ، فلم ينتبه الفونس له لاستغراقه فى هواجسه ، وقد تزاحمت الافكار فى مخيلته وأكثرها بروزا أمر الملك وكيف استبد رودريك فيه واستخف به ، وكيف انه بعد أن كان مطمح أنظار وجهاء المملكة أصبح مثل أحقرهم .. وفكر فى وسيلة لانتزاع الملك منه فاذا هو قاصر من كل وجه ، لا مال عنده ولا رجال ، ولا شيء يقاوم به . ثم تذكر فلورندا وانه عاهدها على اخراج الملك من يد رودريك ، فكيف يرجع عن عهده عاجزا مقهورا ؟! فتجسم لديه المصاب وثقل عليه الفشل ، وندم على ما فرط منه بين يدى حبيبته من القسم ، فضاق صدره ، وصغرت نفسه ، وغلب عليه اليأس ، فتناثرت الدموع من عينيه بالرغم منه — والدمع يفرج الكرب حيث لايرى المرء مخرجا من ضيقه !

وكان يعقوب مايزال واقفا فسمع تنهد الفونس، ثم لحظ من بعض الحركات انه يبكى ، فأدرك انه يفعل ذلك وهو يحسب نفسه فى خلوة فانسل دون أن يشعر به الفونس حتى جلس على كرسيه بجانب الباب ، وقد اشتغل خاطره بالفونس فعزم على استطلاع أمره من المطران بعد مجيئه وقد كانت له عليه دالة كبرى

ومضت برهة ثم عاد أحد الرسل وأنبأ يعقوب بقدوم المطران ، فتذرع بذلك لمخاطبة الفونس فدخل عليه وأخبره بقدوم عمه . وكان الفونس قد فرغ من بكائه وذهب بعض انقباضه ، فلما علم بقدوم عمه لم يسعه الا الابتسام لشدة ما كان له من الثقة فيه لاشتهاره بسداد الرأى والتعقل ، مع محبته لالفونس

وكان اسمه أوباس (عباس) وهو طبعا مثل الفونس يعتبر رودريك مختلسا ، وكان قد بذل جهده فى عدم انتخابه فلم يفلح ، لان حزب الاساقفة الرومانيين غلب على رأيه ، ولانه المطران الوحيد من أمة القوط ، بينما سائر اساقفة طليطلة من الرومان أو الذين ينتمون لرومية ، ولذلك غلب رأيهم .. وكان أوباس منذ تولى رودريك معتزلا الاعمال الا عند الضرورة . وكان فى ذلك اليوم قد صلى صلاة العيد فى منزله ، ثم خرج بعد الصلاة للجلوس فى حديقة المنزل لانه لم يكن يطيق أن يرى رودريك فى ذلك الموكب بدلا من ابن أخيه ، فلما جاءه الرسول يدعوه الى الفونس لبس رداءه وقلنسوته وجاء مسرعا

وكان أوباس حيوى المزاج ، طويل القامة طويل الاطراف ، عريض

المنكبين والجبهة بارز الوجنتين والفكين ، واسع الصدر ، أسمر اللون ، غزير الشعر ، خصوصا شعر لحيته فقد كان مرسلا على صدره الى أسفل منطقته . وأصحاب هذا المزاج فى الغالب أقوياء الارادة مع علو الهمة وقوة البدن وعظم الهيبة . وهم كبار فى كل شىء مارسوه من الحرب أو التجارة أو السياسة، لأنهم يمتازون غالبا عن أصحاب الامزجة الاخرى ويفوقونهم فى كل شىء . وكان أوباس مع ذلك بطىء الخطوات كثير التفكير ، قليل الكلام جهورى الصوت ، وكان قوله سديدا ورأيه صائبا

وبعد قليل سمع الفونس خطوات عمه وكان يعرفها ببطئها وثباتها وشدة وقعها فوقف لاستقباله ، فلما دنا من باب الغرفة تقدم اليه وقبل يده فباركه ، وتقدم يعقوب فقبل يده فباركه وهو يبتسم له مع انه كان قلما يبتسم لأحد ، ثم دخل الغرفة مع الفونس الذى أسرع باغلاق الباب التماسا للخلوة ، فنزع المطران قلنسوته فاسترسل شعر رأسه الى كتفه وكان غزيرا جدا ولم يوخطه الشيب مع انه فى نحو الخمسين من عمره

ونظر أوباس فى وجه الفونس فرآه يبتسم ، ولكنه تبين الدمع فى عينيه وأثر الانقباض فى أسرته فأثر منظره فى نفسه فقال له : « مالى أراك كاسف البال يا بنى ..؟ »

فلم يتمالك الفونس من ارسال دمعتين أخريين وهو لايزال مبتسما ولكنه تجلد وقد ارتاح لرؤية عمه فقال : « لا أظننى أشكو اليك أمرا لا تعرفه .. بل أظنك تشكو مثل شكواى أيضا ... »

فقال : « فهمت مرادك يا ولدى ... ولكن هذا الامر الذى تشكو منه قد أصبح قديما فلا بد من أمر حدث لك وجدد أحزانك »

قال : « صدقت يا عماه .. وأما ما جدد أحزانى فوقوفى بين يدى ذلك الوحش الكاسر فى هذا الصباح وقفة خادم بين يدى سيده .. وقفت وقد استصغرت نفسى حتى حسبتنى ذبت حياء ، ولا أدرى ماذا كان يصيبنى لو طال وقوفى .. ولما خرجت من القصر رأيت رجال الحاشية لا يعبأون بمرورى بعد أن كانوا اذا مررت يتسابقون الى تقبيل يدى ..! »

فقال أوباس : « وما الذى دعا الى وقوفك هذا الموقف وعهدى برودريك قلما يدعوك اليه ؟ ! »

فقال : « لانى تأخرت عن موكبه فى هذا الصباح ، فلم أدركه الا وهو راجع من الكنسة .. »

قال : « ما كان أغناك عن هذا التأخير فلم تكن تسمع تعنيفا ولا تتحمل ملاما حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ... وما الذى أخرك عن الاحتفال ؟ »

فلم يخجل الفونس أن يقص على عمه سبب تأخره لان عمه مطلع على ما بينه وبين فلورندا من المحبة المتبادلة ، وهو الذى وضع عربون الخطبة بينهما فقال له : « سبب تأخرى أنى زرت فلورندا فى هذا الصباح بعد أن طال غيابى عنها . وأنت تعلم انقطاعى عن ذلك القصر وضواحيه منذ ابتليت بمصيبة أبى . وكنت أحسب فلورندا تغيرت فزرتها لأتحقق أمرها فطال الحديث حتى نسيت الموكب ، فلم أنتبه الا وهم عائدون من الكنيسة ، فأسرعت للانضمام اليهم ولم أكن أظن الملك يرقب حركاتى الى هذا الحد . فلما دخلت عليه استبقانى الى ما بعد خروج المهنئين وعنفنى تعنيفا لم يكن شديدا فى ذاته ، ولكنه وقع على رأسى وقوع الصاعقة .. »

قال ذلك وكاد يشرق بدموعه ، فلم يبال أوباس بهذه الدموع لاستصغاره مثل تلك الظواهر — ظواهر الضعف البشرى — بل ظل ساكتا فى انتظار بقية الحديث . أما الفونس فلما رأى عمه لا يزال مصغيا له استطرد الكلام فقال : « ومما زادنى قهرا ان ذلك القسيس الهرم كان يحاول ايقاعى فى الشرك حتى نبه رودريك الى علاقتى بفلورندا ... وكنت أقرأ سوء القصد خلال عينيه الغائرتين ، ومن وراء ألفاظه المختلطة ... »

قال : « أراك يا الفونس متهيج العواطف كثيرا ولا فائدة من ذلك .. ولاعبرة بلفظ تسمعه أو اشارة تراها ، فانها حركات طائرة فى الهواء ، وما هى من الحقيقة فى شيء ... فخفف عنك وارجع الى صوابك ، وابحث فى الامر بحثا معقولا »

فعجب الفونس لقول عمه ، وشعر بصغر نفسه وضعفه ، ولكنه لم يستطع امتلاك عواطفه فقال : « وكيف لا نعبأ بالاقوال ... وكيف أستطيع الصبر على الاهانة والاحتقار ؟ ! أترضى يا عماه أن نكون أرقاء لذلك المختلس ؟ ! » . قال ذلك والحدة بادية فى صوته ، فأجابه أوباس بصوت هادىء : « لا »

قال : « فكيف تقبل هذه المعاملة وتقول انها حركات طائرة فى الفضاء .؟ اننى لا أستطيع الصبر على ذلك .. ان الموت لخير من الحياة مع هذه الاهانة ! »

فقال أوباس : « لا أقول ان الاهانة حركات فى الهواء ، ولكننى أرى

الكلام الصادر عن الحدة والغضب بلا روية ، أشبه بحركات طائرة فى الهواء لا فائدة منها . . »

فخجل الفونس من ذلك التوبيخ اللطيف ولكنه ظل مندفعا فى تيار العواطف فقال : « أتلومنى يا عماه على غضبى وقد قتلوا أبى واختلسوا ملكى ، ثم ضيقوا على فى ذهابى ومجيئى كأنى بعض عبيدهم ! ؟ ماذا تريد أن أفعل بعد ذلك . . ؟ »

قال وصوته لم يرتفع : « أريد أن تنظر فى الامر بعين العقل وبالروية ، لان الحدة تذهب الرشد وتسوق الى الخطأ . وربما يخيل لك اذا رأيت هدوئى وصبرى انى أقل منك استنكافا من أحوال هؤلاء . ولكننى أفكر كثيرا وأقول قليلا . . وسترى متى سكن جأشك ودار الحديث بيننا انى قضيت العامين الماضيين وأنا أسعى فى الامر الذى لم يخطر ببالك الا اليوم . . وأنت انما ذكرته على أثر انفعالك وغضبك ، بعد أن لاقيت خطيبتك وعنفتك على ضعفك . وأما أنا فانى لا أندفع بالغضب ، ولا أغضب للكلام الفارغ ، ولكنى أنظر بعين الحقيقة . . فقد كنت أتوقع منك هذه الحمية فى أول يوم خرج فيه الملك من يدك ، بقطع النظر عما يلحق بك من الاهانة ، أو ما قد تسمعه من التعريض أو التوبيخ . . ! »

فلما سمع الفونس كلام عمه تهيب واتعظ لما آنسه فيه من الرزانة والجد وقوة العزيمة ، وشعر بصغر نفسه لما تحمله من الضغط فى السنتين الماضيتين دون أن يشكو فأراد أن يصلح ما بدر منه من دلائل الضعف فتحمس وقال :

« لقد أصبت يا عماه . . انى تهاونت فى هذا الامر ولم أكن أحسبك على هذا العزم ، أما الآن فأشر على . أشر على بالذى أفعله لاسترجاع ما اختلسه هذا الرجل منا »

وكان أوباس منذ شرع فى هذا الحديث قد أخذت علامات الانقباض تبدو فى محياه فازداد هيبة وجلالا ، واستغرق فى الافكار وقد ارسل بصره من النافذة الى الفضاء ، فكان الناظر فى وجهه يتبين استغراقه فى الهواجس من ثبات بصره على لا شىء ، كأنه ينظر الى صور تمثلت فى مخيلته منها المخيف المغضب ، والمفرح المنشط . . وكانت ظلال تلك العواطف تتجلى فى عينيه البراقتين ، ولو أحسن الفونس الفراسة لقرأ أفكار عمه فى عينيه وأسرته ، وكفى نفسه مؤونة الاستشارة والمداولة . ولكنه لم يكن على شىء من ذلك فلما فرغ من كلامه صبر لسماع ما يقوله عمه ، فاذا هو ما زال غارقا فى الهواجس وهو يلاعب

أطراف جدائل شعره بأنامله كأنه لم يسمع شيئا من ابن أخيه . فتهيب الفونس منظره ، ولم يجسر على أن يشوش عليه أفكاره فظل صامتا

مضت لحظات قليلة وكلاهما صامتان ثم فتح أوباس الحديث فقال : « هل أدركت يا الفونس المشروع العظيم الذى تعرض نفسك له وما هو الامر الذى تطمح أنظارك اليه ..؟ »

قال : « كيف لا ..؟ انى ألتمس أمرا هو حق لى لا ينازعنى فيه أحد »

قال : « فهمت ذلك ... ولكن هل دبرت الطريقة التى تستطيع التغلب بها للقبض على أزمة الاحكام ..؟ »

قال : « أعرض لديك رأيى وأنت صاحب الرأى »

قال : « قل »

قال : « لا يخفى على عمى العزيز أن القوة التى ساعدت رودريك على تسنم ذروة الملك انما هى قوة الرومان خصوصا الاساقفة . وأما رجال القوط أهلنا وعشيرتنا فانهم لا يريدونه ، وهؤلاء جماعة كبيرة اذا اتحدوا هم ورجالهم وأتباعهم تألف منهم جند كبير يغلب جند رودريك ، فلا يصعب علينا اذ ذاك اخراج الحكم من يده ، اما بالتنازل واما بالقتال »

فابتسم أوباس ابتسامة مغتصبة دلت على استخفافه برأى ذلك الشاب قليل الاختبار ثم قال : « صدقت يا ولدى ان القوط أكثرهم على دعوتنا ، ولكن هل تظنهم اذا دعوتهم الى الحرب ينهضون ؟ لا أظن شكواهم من هذا الملك تخرج عن حدود الكلام . ولا لوم عليهم ، فهم يخافون على أرواحهم وأموالهم ، على أن أكثرهم لا يرون بأسا من بقاء رودريك وغيره من صنائع الرومان لاشتراكهم معهم فى المذهب ، فانهم جميعا تابعون لكنيسة رومية ، وقد تغلب الاساقفة الرومان على آرائهم وعلى قلوبهم كما تغلبوا على حكومتهم ، حتى نسوا جنسيتهم »

وكان أوباس يتكلم بصوت هادىء وتأن ولم يبد الهياج فى عينيه الا لما وصل الى هذا القول ، على أن الرزانة ظلت غالبة على حركاته . ولكنه سكت هنيهة والفونس ينظر اليه ويتوقع اتمام الحديث ، فقال أوباس وهو يجدل شعر لحيته بين أنامله على سبيل التشاغل : « سامح الله ريكارد ، فانه هو الذى جر علينا هذا البلاء ! »

فلم يفهم الفونس معنى هذا الكلام ، أى أن ريكارد أحد ملوك القوط وكان من رجال الحرب والسياسة ، حكم أسبانيا زمنا طويلا فى أواخر القرن السادس للميلاد

فقال : « ما الذى ارتكبه ريكارد يا عماه حتى استوجب هذا الملام ، والذى أعلمه انه هو الذى حفظ لنا مملكة الاسبان ودفع الافرنج (الفرنك) عنها ؟ »

قال : « صدقت يا ولدى انه نجانا من الفرنك ، ولكنه ألقانا فيما هو أعظم خطرا منهم »

قال : « وما هو ذاك ؟ »

قال : « ألا تعرفه ؟ ألا تعرف ان ريكارد هوالذى أضاع جنسيتنا ، وحل جامعتنا ؟ ! »

ولم يفهم الفونس مراده فقال : « لا يا مولاى ، فكيف كان ذلك ؟ »

قال : «ألا تدرى يا ألفونس أن ريكارد هوالذى جعل مذهب كنيسة رومية (الكاثوليكية) مذهب حكومة أسبانيا ؟ »

قال : « نعم . ألا تظنه فعل حسنا ؟ »

قال : « نحن الآن على مذهب هذه الكنيسة أيضا ، وقد ربينا فى حبها ولا بأس منها . ولكننى أنظر فى الامر من وجهه السياسى . أنظر فيه من حيث جامعتنا القومية . فقد جاء أسلافنا القوط منذ بضعة قرون ، وكانت هذه البلاد فى حوزة الرومان فانتزعوها من أيديهم بالقوة وتسلطوا عليها . ولا يخفى عليك أن مذهب أسلافنا الذى جاءوا به الى البلاد ليس الكاثوليكية مذهب كنيسة رومية ، بل هو المذهب الآريوسى نسبة الى آريوس الشهير . وكان ذلك مذهب معظم قبائل القوط قبل خروجهم على المملكة الرومانية ، ففتحنا هذه البلاد وقضينا فيها نحو مائتى سنة ونحن على مذهب آريوس ، وأهل البلاد على مذهب كنيسة رومية

« ولا أخفى عليك ان ملوكنا الاقدمين لم يهتموا بنشر مذهبهم ولم يفقهوا علاقة الدين بالسياسة ، ولكن الرومان لم يغفلوا عن اغتنام الفرص لاسترجاع سلطانهم بطريق الدين ، فجعلوا يتدخلون فى مصالح الدولة رويدا رويدا ، ويبثون مذهبهم فى الرعايا بوسائل مختلفة حتى تولى ريكارد المذكور منذ قرن وبعض القرن ، فاستولوا على عقله حتى نبذ ديانة أجداده واعتنق المذهب الكاثوليكى وجعله مذهب الحكومة الأسبانية ، فاقتدى به رجال دولته وسائر أشراف المملكة ، فتم النفوذ لرومية حتى أصبح مجمع الاساقفة الذى يجتمع فى هذه المدينة يدير دفة الملك كما يشاء ، وربما أتوا بالاوامر من رومية نفسها . وما زالت الكاثوليكية ديانة هذه المملكة الى اليوم ، ولم يبق للآريوسية الا أثر قليل جدا . ولا ريب عندى أن الذين استبدلوا الكاثوليكية بمذهبهم

فى أول الامر انما صنعوا ذلك مسايرة لريكارد لا عن اقتناع بالبرهان ، لأن مذهب آريوس أقرب الى أحكام العقل من سائر مذاهب النصرانية»

فلما وصل أوباس الى هنا أحس بأنه أفرط فى الكلام بين يدى ذلك الغلام ، وقد تحقق تفريطه مما بدا فى وجه الفونس من دلائل الاستغراب لما غرس فى ذهنه منذ طفولته من تقبيح الآريوسية ، حتى انه كثيرا ما سمع تقبيحها من عمه نفسه . وأدرك أوباس ما جال فى خاطر ابن أخيه فاستدرك قائلا :

« لا يغرب عن ذهنك يا ولدى أنى لا أحبب اليك الآريوسية دون سواها ، فاننا لا نفضل مذهبا على مذهبنا الحالى ، ولكننى أخاطبك بلسان السياسة لا الدين ، لأبين لك نتائج الخطأ الذى ارتكبه ريكارد سامحه الله . لانه باعتناقه المذهب الكاثوليكى أضاع الجنسية القوطية — لان الدين يا عزيزى أثبت الجامعات وأشملها . اذ قد يجتمع القوطى والفندالى والرومانى واليونانى والسكسونى والعربى وغيرهم فى بلد وهم أخلاط ، فاذا تمذهبوا بمذهب واحد ضاعت جنسياتهم الاصلية بتوالى الازمان وصاروا أمة واحدة !

« وهناك جامعة أخرى ربما كانت مثل جامعة المذهب ، أعنى بها جامعة اللغة . فهذه أيضا شاملة ولكنها فى الغالب تابعة للدين . الا ترى أننا بعد أن اعتنقنا المذهب الكاثوليكى أصبحت اللغة اللاتينية هى المتغلبة فى كنائسنا ومجالسنا ، لانها لغة ذلك المذهب ، وأخذت لغتنا القوطية فى الانقراض أو الضياع .؟ فلو ظللنا على الآريوسية واستبقينا لغتنا وعممناها فى الشعب وحولنا أهل هـذه البلاد عن مذهبهم الكاثوليكى الى مذهبنا الآريوسى ، لـكانت لغتهم لغتنا ، ومذهبهم مذهبنا ، وصاروا من أنصارنا . ولكننا غفلنا عن ذلك فانعكس الامر ، وأصبح أولئك الرومان بعد أن أخرجونا من مذهبنا ولغتنا يحاولون اخراجنا من سلطتنا بما اكتسبه الاساقفة الرومانيون من النفوذ فى أمور الدولة ، حتى لا ترى فى أوربا كلها مجمعا دينيا له على حكومة البلاد من النفوذ مثل ما لمجمع طليطلة على حكومة أسبانيا !

« وأول من أحس بهذا الخطر من ملوك القوط والدك طيب الله ثراه . فانه سعى فى انقاذ حكومته من نفوذ رومية حتى لقد سمعته يصرح برغبته فى الخروج من مذهبها أو سلطانها الكنائسى ، وكان معظم أساقفة أسبانيا ممن تثقف فى رومية وأشرب حبها وحب أسقفهـا الاكبر ، فأكبروا غرض والدك وما لبثوا أن أنفذوا أغراضهم التى أتحـاشى التصريح بها لانها تؤلمنى كما تؤلمك ، ونصبوا رودريك هذا وهو رومانى

الغرض وان ادعى انه قوطى الاصل . وكان ذلك افسادا لما كان المرحوم والدك قد أسسه »

▭

وكان الفونس يسمع هذا الكلام باصغاء وقد التذ بسماعه لذة عظيمة لما آنسه فيه من الفلسفة والحكمة مما لم يكن يخطر له من قبل. فلما بلغ الى خروج الملك من أبيه لم يتمالك أن سأل قائلا : « كيف استطاع هؤلاء تولية رودريك وأبناء غيطشة أحياء .. ؟ »

قال : « حجتهم فى ذلك أن حق الملك عندنا انتخابى وليس وراثيا . اذ لو كان وراثيا لكنت أنت أولى الناس بهذا الامر . على ان كونه انتخابيا لا يقضى بحرمانك منه ، وكان يجب أن ينتخبوك لانك ابن الملك ، وقد فعلوا ذلك غير مرة . ثم لولا ما ظهر خلال انتخابهم رودريك هذا من الاغراض القومية التى مرجعها ضياع جنس القوط قاطبة لما شق ذلك علينا »

ثم استأنف أوباس الحديث كأنه أفاق من غفلة وقال : « أرانى خرجت من دائرة الموضوع الاصلى . وخلاصة ما قدمته لك ان الذين تعدهم قوطا وترجو أن ينصروك فى قيامك ضد هذا الرجل ، قد ضاعت جامعتهم الجنسية فى الجامعة الدينية واللغوية ، فربما كانوا أقرب الى نصرته منهم الى نصرتنا ، فمثل هؤلاء لايعتد بأقوالهم ، ولا يعتمد على أحزابهم »

فلما سمع الفونس نتيجة البحث خاب أمله ، لأنه انما كان يتوقع شد أزره بأهل عترته . فلما تحقق ضياع أمله أحس بضعف عزيمته ، وظل مطرقا لا يبدى حراكا ولسان حاله يقول : « عجزت عن الحيلة ! »

فلما رآه أوباس مطرقا أدرك ضعف عزيمته فأراد أن يسبر غوره فقال له : « كأنك يئست من النجاح ؟ »

قال : « كيف لا أيأس وقد فرغت يدى من الرجال فضلا عن فراغها من المال ، ولم يكتف هؤلاء باختلاس الملك ولكنهم أخرجونى منه صفر اليدين . فهل تعلم الى أين ذهبوا بأموال والدى ؟ ! »

قال : « ان أموال والدك قد أخذت بحق ، لأن الملك رسيسويت الذى تولى هذا العرش منذ نحو ستين سنة سن قانونا يقضى برجوع موال الملك وكل ما يقتنيه الى خزانة المملكة ، فلا ينبغى لنا أن نبالغ ى القاء التبعة على عدونا بالباطل . أما السبيل الى بلوغ منانا ، فاذا نت قد فرغت يدك من الحيل فأخبرنى لأبدى رأيى ، وأرجو أن يكون سديدا »

فاستغرب الفونس تنازل عمه بهذه العبارة ، وأشار بيديه وعينيه معبرا عما عجز عنه لسانه من تفويض كل الأمر الى عمه ، لأنه أكبر عقلاوأوسع اختبارا . فأصلح أوباس مجلسه استعدادا لحديث طويل، والتفت الى ماحوله كأنه يحاذر أن يسمعه أحد وان كان على ثقة من انفرادهما هناك . ثم وجه كلامه الى الفونس قائلا :

« اعلم يا بنى ان الانسان اذا عزم على أمر فلا بد له من النظر فى عواقبه قبل الاقدام عليه ، والا كانت العاقبة وخيمة . أنت تعلم ان الناس فى أسبانيا طبقات منها : طبقة الاشراف ، وهم أرباب الاموال والمناصب ، ومنهم حكام الولايات وحكام المدن وأصحاب العقارات وغيرهم ، ومنها رجال الاكليروس ، ومنهـا طبقة المستخدمين وهم رجال البلاط وخدمة الحكومة ، ومنها أهل الحرف وهم من أواسط الناس وسكان المدن . وهناك الخدم والعبيد وهم كل ما بقى من أهل المملكة . ولا يخفى عليك ان هؤلاء هم القسم الاكبر ومنهم حراث الحقول وخدمة المنازل ومعظم رجال الحرب . فاذا شئنا أن ننهض لانتزاع الحكم من هذا الرجل فلا بد لنا من الاستعانة ببعض هـذه الطبقات . فلنبحث فى أيها أقرب الينا

« ان الاشراف اما رومانيو الاصل ، أو قوطيون . فالرومان طبعا ضدنا . وقد بينت لك حال القوط فهم قد أضاعوا قوتهم فى مذهبهم الجديد . فالاشراف لا فائدة لنا منهم ، وكذلك أهل البـلاط . أما الاكليروس فأنت تعلم انهم علة هذا التغيير . وأهل الحرف بالنظر الى اقامتهم المستطيلة فى المدن قد أضاعوا الحماسة اللازمة فى مثل هذه النهضة ، زد على ذلك ان كلا منهم مشتغل بعمله وتجارته ويخاف ضياع أمواله القليلة ، اذ لا يخفى عليك ان بلاد أوربا كلها تقريبا مؤلفة من المدن والحقول . فأهل المدن لايكادون يهتمون بما هو خارج مدنهم ، وكل مدينة تهتم بنفسها ، ونحن لايكفينا القيام بأهل مدينة واحدة لأن رودريك صاحب جنود وأعوان ، وسيستنجد بحكامه فى الولايات ، فنذهب ضياعا

« بقى علينا النظر فى الطبقة الاخيرة من هذا الشعب وهى طبقة الخدم والعبيد ، فهؤلاء هم الجانب الاكبر ولا تستغنى عنهم سـائر الطبقات ، ومع ذلك فانهم مستبدون فيهم استبدادا عظيما . ولا يخفى عليك أن معظم هؤلاء العبيد انما دخلوا فى الرق على أثر الحروب ، وهم رجال أشـداء خصوصا بعد أن تعودوا العمل وعانوا الشقاء لاشتغالهم فى الحقول . فان عقارات الاشراف وبيوتهم وأموالهم كلها

فى قبضة هؤلاء العبيد ، ومع ذلك فانهم مظلومون يقاسون من أسيادهم عذاب الذل ـ وناهيك بعذاب الرق ـ وأنت تعلم ان هؤلاء الارقاء لاينقصون عن أسيادهم شيئا من المواهب الطبيعية ولكنهم تعودوا الخضوع لهم والخوف من أصواتهم ، حتى أصبحوا أطوع لهم من أيديهم . فكل ما للعبد فهو لسيده ، لايقدر أن يعمل عملا الا بأمره حتى الزواج ! . وكل ما اكتسبه العبد بالقصد أو بالاتفاق أو بالتجارة أو بالحرب ـ حتى أولادهم ـ فانها كلها لسيده الذى له أن يبيع العبد أو أمتعته أو أولاده بدون معارض !

« على ان أولئك الاسياد قد ينعمون على بعض عبيدهم بالحرية مكافأة على عمل عظيم صدر منهم . غير ان هذه الحرية قلما تمتاز من الاستعباد فان المعتق لايزال تحت أمر سيده ، فان عمل عملا فلسيده نصف ما يكسبه من ذلك العمل . وان أراد أن ينتقل من خدمته وجب عليه أن يرد له كل ما معه من الاسلحة أو الاثاث . ولا يعد ذلك المعتق من زمرة الاحرار الاصليين الا فى الجيل الرابع من أولاده .. ولست أطيل الكلام عليك لأنك تعلم كثيرا من أفعال هؤلاء الارقاء ، ولكنك قلما فكرت فيما يقاسونه من الخسف والظلم ، وربما لم يخطر لك انهم من جبلة مثل جبلتنا . ولا لوم عليك لأنك شببت وأنت تراهم على هذه الحال »

فلما بلغ أوباس الى هنا وقف وتنحنح ، وتفرس فى الفونس ليرى أثر أقواله فيه فرآه منصتا بكل جوارحه لسماع ما يقوله عمه ، فعاد أوباس الى حديثه فقال : « فالامر الذى أوجه التفاتك اليه ياولدى ان أقوى طبقات الشعب هم أولئك الارقاء المظلومون ، وهم أكثر عددا وأقوى أبدانا وأصبر على الشقاء ، فاذا اتخذناهم أعوانا لنا فى هذه النهضة قلبوا المملكة رأسا على عقب . وقد لا نحتاج الا الى تظاهرهم بالقيام ، واذا اتحدوا أرعبوا الملك وحكامه وأشراف مملكته فننال المراد بلا حرب ولا سفك دماء . ولكن ما الذى يجمعهم ، أو كيف يمكننا أن نجعلهم حزبا لنا ؟ »

وكان الفونس يتطاول بعنقه لسماع حديث عمه وقد رأى الصواب باديا فى كل كلمة من كلماته ، لكنه لم يكن يتوقع منه هذا الاستفهام ، ولذلك ارتبك فى الجواب ! . أما عمه فانه لم يطرح السؤال عليه لاستماع الجواب ، ولذلك عاد يقول : « اعلم يا بنى ان الوسيلة التى يجب أن نتخذها لجمع كلمة هؤلاء الآدميين المظلومين تحت لوائنا انما

هى من أفضل الوسائل وأشرفها ، بل هى فضيلة تبقى لنا ذكرا مدى الدهور ويحسدنا عليها كل من ملك هذه البلاد قبلنا ، وننال عليها الجزاء الحميد من الله سبحانه وتعالى . أتعلم ما هى ؟ »

فلم يهتم الفونس بالجواب هذه المرة ، لأن ملامح عمه كانت تشير الى ان الجواب آت . ثم قال أوباس : « ان الوسيلة يا بنى لجمع كلمة هؤلاء انما هى أن نهبهم الحرية ونجعل لكل من ينضم الينا منهم حقا فى نيل حريته بعد أجل معين ، واذا نال تلك الحرية كان كسائر الاحرار مرة واحدة لايقاسمه أحد فى أتعابه أو مكاسبه ، على أن يكون ذلك مرتهنا برجوع الملك اليك ، وانك متى توليت عرش أسبانيا هوت الاعتاق ، وسهلت الطريق اليه على كيفية ترغب أولئك المظلومين فى نصرتك »

فسحر الفونس بما سمعه من عمه ، وأحس بما بينهما من التفاوت فى المدارك والقوى ، وخيل له أن الامر قد تم له ما يروم حتى أصبح كأنه يرى زمام الملك ويهم بالقبض عليه ! . ولم يكن الفونس بليد العقل الا بين يدى عمه ، وذلك لما له من السلطان على عقله ورأيه ، فلم يتمالك أن تناثرت من عينيه دمعتان من دموع الفرح وانحنى على يد عمه ليقبلها ، فاجتذب أوباس يده وهو لاتهزه عاطفة فرح ولاغضب ، ولكنه أطلق ضحكة اصطنعها ، ثم ألقى يده على كتف الفونس وقبض عليها بقوة ، فأحس هذا بشدة تلك القبضة ، وتوقع أن يسمع شيئا بعدها ، فاذا بأوباس يقول : « رأيتك اقتنعت بما سمعته ولم تعمل فكرتك للبحث فيما يحول دون عملنا هذا من الحواجز ! »

فأجفل الفونس وخاف ضياع آماله بعد أن أوشك أن يعتقد نيل بغيته ، وفكر فيما عسى أن تكون تلك الحواجز التى قد تقف فى سبيل ذلك المشروع . ولكنه قبل أن يهتم بالجواب سمع عمه يقول : « لا أظنك تجهل ما يحتاج اليه مشروعنا هذا من الاموال للانفاق على الجند ، وابتياع الاحزاب ، وانشاء المعاقل واغراء الاعداء »

فلما سمع الفونس ذلك عاد الى اليأس لعلمه بخلو يديه ويدى عمه وسائر أهله من مال يكفى لهذا العمل ، واستغرب اغتراره برأى عمه الاول وتخيله وصوله الى الغرض المقصود مع ان مسألة المال لم تكن لتخفى عليه ، وقد كان قبل هنيهة يشكو الى عمه خروجه بعد موت أبيه صفر اليدين ! على انه انما اغتر بذلك لشدة اعتقاده — منذ طفولته — بسداد رأى أوباس ، لأنه ما برح منذ كان يدب ويحبو يرى عمه يأتى

لى أبيه بلباس الكهنة ، والكل يحترمون رأيه ويهابونه فشب على لاستسلام له ، فاذا قال أوباس قولا سلم هو به واعتقد صوابه بلا ـوية ولا تبصر .. وكذلك كان شأنه معه فيما دار بينهما فى ذلك ليوم ، فلما سمع الفونس ذكر المال تحقق أنهم يتداولون عبثا ولم يتمالك أن بدا أثر القنوط فى وجهه فظل ساكتا وفى سكوته ما يغنى عن الجواب !

أما أوباس فلما رأى ابن أخيه قد سقط فى يده وضاقت المذاهب عليه ، ابتسم ابتسامة أخرى وقال : « هل يئست يا الفونس ؟ . ما أسرع ما ترجو وما أسرع ما تقنط ! . لا تيأس يا بنى انى لا أدع ثقتك العمياء فى عمك تذهب هدرا . وانى لم أقض هذين العامين نائما . نعم انى أخاطبك على سبيل المداولة ولكننى فى الحقيقة أعرض عليك مشروعا رتبته وسبرت أغواره ودبرت كل شؤونه ، ولولا ذلك لم أرض بالخوض فيه معك ! » . قال ذلك ونهض ، فنهض الفونس معه وهو لايدرى معنى ذلك النهوض ، ولكنه أصبح لايطيق صبرا عن سماع تتمة الكلام ليرى ما دبره عمه من الوسائل للحصول على المال . على انه لم يجسر على سؤاله فظل صامتا فى انتظار الجواب . أما أوباس فانه تناول قلنسوته ووضعها على رأسه ، فظنه الفونس يهم بالخروج ، ولكنه ما لبث أن سمعه ينادى « يعقوب » . وما عتم أن رأى يعقوب داخلا يهرول ولحيته وأنفه يسبقانه حتى وقف بين يدى أوباس وفى وجهه ابتسامة تدل على ما فى نفسه من الاطمئنان . فلما دخل جلس أوباس وأشار الى الفونس أن يجلس ففعل ، ثم قال ليعقوب : « اجلس »

فأظهر يعقوب البغتة وقال : « حاش لى يا مولاى أن أجلس بين يديك أو يدى سيدى ، (وأشار الى الفونس) وانما يكفينى أن تأذن لى فى الوقوف »

فضحك أوباس ـ ويندر أن يضحك لغير يعقوب ـ ومد يده اليه حتى أمسك باحدى شعبتى لحيته وشده بلطف حتى أقعده على طنفسة فى أرض الغرفة ، ثم تظاهر بالاجفال وأرجع يده ومسح أطراف أنامله بمنديله وهو يقول : « متى تغسل هذه اللحية يا يعقوب ، أما آن لك أن تغتسل ؟ ! »

فلما سمع يعقوب ذلك السؤال تبدلت سحنته بغتة ، وذهبت عنها ملامح المجون وبدا الجد فى عينيه وقال : « سيادتكم أعلم منى . ولكننى أرجو أن يكون ذلك قريبا ! »

فلم يفهم الفونس معنى هذا الجواب ، خصوصا بعد أن رأى ذلك التغير فى وجه يعقوب ، ولـكنه صبر ليرى ما يبدو منه فسمع عمه يقول : « وأنا أرجو ذلك أيضا . ولكن غسل لحيتك يا صاح يكلف نفقات طائلة ، فهل تدفعها ؟ ! »

قال : « نعم انى لا أدخر مالا ولا ولدا ولا نفسا فى سبيل غسلها كما تعلم ! »

فلم يزد الامر لدى الفونس الا غموضا وابهاما ، ولم يفهم لاستدعاء ذلك الخادم معنى ، ولا لتلك الالغاز مغزى ، وشق عليه أن يتحول موضـــوع المداولة من الجد الى الهزل وهو لايعرف عمه يميل الى المزاح الا قليلا ، وأكثر ما يفعل ذلك مع يعقوب ، فحمل كلامهما محمل المزاح وظل ساكتا يتوقع العود الى الموضوع الاصلى

أما أوباس فقال : « انى أعلم ذلك يا يعقوب وقد آن لى أن أسعى فى غسل لحيتك ، فهل أنت واثق من المال مهما كبر مقداره ؟ »

قال : « نعم ياسيدى وأنت تعلم ذلك »

قال : « قد كنت أعلمه ، ولكن هل حدث تغيير أو تبديل ؟ »

قال : « كلا يامولاى . نحن على ما نحن عليه »

فأطرق أوباس مدة طويلة لايتكلم ، واستغرق فى الافكار كأنه يحل معضلة ، ويفكر فى أمر طرق ذهنه فى تلك الساعة ، ثم وقف فوقف يعقوب والفونس . فقال للأول : « أحب أن أراك الليلة فى منزلى »

فأشار بيديه وعينيه وشفتيه ان « سمعا وطاعة » . وخرج وأغلق الباب وراءه

▭

توقع الفونس بعد خروج يعقوب أن يسمع من عمه ما يزيل ذلك القلق عنه ، فلما رآه جلس ، جلس مثله ، وأصاخ بسمعه وهو ينظر اليه كأنه ينصت لما يقوله ، فسمعه يقول : « طب نفسا يا الفونس . ان المال تحت يدى عند الطلب ، ولابد من جلسة أخرى أشرح لك فيها التفاصيل وأرتب الخطة التى يجب أن نسير عليها فى هذا العمل الخطير »

فقال : « ولكننى لم أفهم علاقة ذلك بخادمنا هذا وبلحيته ! »

قال : « ستطلع على سر ذلك الليلة ان شاء الله .. هل تأتى معى منذ الآن الى منزلى فنتناول الطعام معا ؟ . ولكن لا .. فانى أفضل أن تبقى هنا لأخلو بنفسى وأرسم الخطة التى يجب اتباعها فى هذا المشروع » . قال ذلك ونهض وتحول نحو الباب وهو يمشى الهوينى

على عادته ، والفونس يقتفى اثره ليودعه عند خروجه . وقبل وصولهما الى باب الغرفة سمعا قرعا عليه ثم دخل يعقوب وفى يده كيس صغير من الحرير الارجوانى ، مسطح الشكل كأن فيه كتابا ، وقد عقد بشريط من الحرير الازرق ، ما كاد الفونس يراه حتى خفق قلبه لعلمه انه من فلورندا ، اذ كثيرا ما كانت ترسل اليه الكتب فيه فأسرع الى الكيس وتناوله وسأل يعقوب عمن حمله اليه فقال : « أحد خدم القصر الملكى »

وكان قد شرع فى فضه قبل سماع الجواب ، فلما فتحه استخرج منه قطعة من الخشب مربعة الشكل ، قد كسى سطحاها بالشمع وكتب عليها حفرا بقلم من حديد ـ وقد كانت هذه احدى وسائل المكاتبة فى تلك الايام قبل اختراع الورق بأجيال ـ فتناولها وتحول نحو النافذة وقد نسى وداع عمه وأخذ يتلوها بنفسه ، ولم يكد يصل الى آخرها حتى ارتعشت أنامله ، وتغيرت سحنته . وكان أوباس لما رأى الكتاب توسم فيه جديدا فتغافل عن الفونس ريثما يقرؤه ، لكنه ما لبث أن رآه يقلبه ويعيد تلاوته وهو يوجهه نحو النور الداخلى من النافذة ويتفرس فى الكتابة بعينيه كأنه يشك فى قراءتها ، وقد امتقع لونه وارتعدت أنامله وبان الغضب فى أسرته ، فظل أوباس ينظر اليه ثم أغلق الباب ليخلو به من جديد . وكان الفونس قد شعر بحركة اغلاق الباب فانتبه ، فاذا عمه يمشى نحوه فى هدوء وينظر اليه نظرة خففت ماقام فى نفسه على أثر تلاوة الكتاب ، فحاول التجلد تشبها بما كان عليه عمه من سعة الصدر ، ولكن التأثر كان غالبا على منظره ، فتقدم نحو عمه وبيده ذلك الكتاب فقدمه له وهو يقول : « ويلاه لا ننجو من شر الا ونقع فيما هو شر منه . وكل مصائبنا من ذلك المختلس السافل ! »

فمد أوباس يده وتناول الكتاب بكل رزانة ، وتفرس فيه فاذا هو مكتوب باللغة اللاتينية المشوشة بألفاظ قوطية حفرا فى الشمع على الخشب فقرأ فيه ما معناه :

« حبيبى الفونس

« ان الامر الذى خفته من انتقالى الى هذا القصر قد أوشك أن يقع ، فأنا فى خطر بين براثن الاسد ، الا اذا أسرعت الى انقاذى ! . أنت تزعم انك تحب فلورندا فأسرع الى انقاذها قبل أن تفوت الفرصة . والا فان ما بقى من حياتها لايتجاوز ساعات قلائل اذا انقضت قبل خروجها من هذا القصر . فاذا لم يكن لى نصيب من النجاة فانى

أستودعك الله ، وأطمئنك انى ذاهبة شهيدة العفاف والطهر . فاذكرنى بين يدى أهلى، وموعدنا الامجاد السماوية فى أحضان الآباء القديسين
« كتبته فلورندا المسكينة »

فلم يكن أوباس أقل تأثرا لما قراه من الفونس ، ولكنه كان أثبت منه جأشا وأصبر على الطوارىء . وقد أحس انه مسئول عما قد يصيب فلورندا من السوء وهو الذى وضع عربون الخطبة بينها وبين الفونس الذى لم يعد يستطيع صبرا فقال : « اعذرنى يا عماه فقد نفد صبرى ونسيت كرسى الملك ، وأنت الذى باركت عربون الخطبة بيننا فأنت مطالب باتمام العقد ، فضلا عما أنت مكلف به من ذلك بواجب القرابة . ومهما يكن من الامر دبرنى برأيك »

فالتفت اليه بهدوء ورزانة ويده على لحيته يسرحها بأصابعه وقال: « طب نفسا ياولدى .. اننى مخرج فلورندا من قصر الملك وهى فى خير ان شاء الله » . ثم أطرق وأعمل فكره وهو يصعد بحاجبيه ثم يقطبهما بما يدل على استغرابه وحيرته ثم قال : « انى لأعجب من أمر هـذا الرجل واشتغاله عن أمور رعيته بما لايرضى الله ولا عبيده . ولكن ذلك من الادلة القاطعة على قرب سقوطه وذهاب ملكه ، لأن الله لايؤيد ملكا يخالف وصاياه ! » . وكان الفونس غارقا فى بحار الهواجس، وقلبه يتقد غيرة على فلورندا . ولما تشاغل عمه عنه بمناجاة نفسه أعاد النظر فى كتابها فوقف بصره عند قولها : « انى ذاهبة شهيدة العفاف والطهر ! » . وفكر فيما ينطوى تحت هذه العبارة من المعانى المثيرة للغيرة ، ثم سمع عمه ينادى يعقوب ، ورأى هذا يدخل وقبعته فى يده قائلا : « لبيك يامولاى »

قال : « هل تعرف اثنين من خدم هذا المنزل يمكننا الوثوق من أمانتهما اذا كلفناهما القيام بمهمة ، ولوكانت ضدهذا الطاغية صاحب كرسى طليطلة اليوم ؟ ! »

قال : « أنا يا سيدى »

قال : « انا أدخرناك لمهمة أخرى ، ولكننا نحتاج الى شابين أوثلاثة تثق بأمانتهما ونشاطهما وبسـالتهما . لأن الامر يحتاج الى الاقدام والشجاعة والامانة »

فأطرق يعقوب وقد أمسك طرف لحيته بأنامله وجعل يفتله بين السبابة والابهام حتى أصبح مثل طرف الحبل لما كان يتخلل الشعر من الاوساخ ! . فعل ذلك وهو مستغرق فى الافكار ، ثم حرك أنامله بغتة فأعاد اللحية الى ما كانت عليه والتفت الى أوباس وفى وجهـه

امارات البشر وقال : « قلما أثق بأحد من هؤلاء ، وان يكن معظمهم نشأوا فى بيت مولاى وعاشوا على مائدته ، لأن الانسان أضعف من أن يضحى نفسه فى سبيل صدق ضميره . ولكننى أعرف اثنين فقط أظنهما أهلا لهذه الثقة »

قال : « ومن هما ؟ »

قال : « هما اجيلا ، وشنتيلا »

فقال أوباس : « وكيف اخترت هذين وليس منهما من ربى فى بيت الملك ؟ »

قال : « اخترتهما لاعتقادى باقتدارهما على هذه المهمة ، ولأنهما ما زالا طامعين فى الارتقاء ، اذ لايخفى على مولاى انهما كانا من طبقة العبيد وقد حررهما المرحوم أخوك وألحقهما بحاشيته لما آنسه فيهما من الكفاءة والشهامة . وقد ظهر لى بعد تخلصهما من العبودية انهما طامعان فى المزيد شأن من يذوق طعاما لايعرفه ، فاذا استطابه زاد فى اشتهائه فطلب منه المزيد . وهذان الشابان ولدا فى مهد العبودية ونفساهما من أنفس الاحرار ، فرأى الملك المرحوم عظم نفسيهما فى حديث يطول سرده فمنحهما الحرية وألحقهما بحاشيته . فاذا كان فى المهمة التى تنتدبهما لها ما يحقق أمنيتهما ، تفانيا فى سبيلها والا اعتذرا عنها دون أن يخونا »

قال : « أراك بارعا فى فلسفة الاخلاق ، اذا كان الغروب تعال الى منزلى وهما معك »

قال ذلك وحول وجهه الى الفونس، ففهم يعقوب انه يطلب خروجه فخرج . أما الفونس فكان قد عاد الى هواجسه فلما أقبل عمه اليه سأله : « بماذا نرد على هذا الكتاب ؟ »

قال : « أكتب اليها أن تكون على أهبة السفر فى الساعة الثانية بعد الغروب ، وانك ستلاقيها فى القارب بجانب القصر ! »

فتناول الفونس قطعة من نسيج غليظ كانوا يكتبون عليه أيضا وكتب اليها ويده ترتجف ما معناه :

« الى مليكة القلب فلورندا

« لبيك يا حبيبتى ، انى موافٍ القصر فى الساعة الثانية من الليل القادم . فتهيئى للخروج بما تستطيعين حمله ، واشرفى من النافذة المطلة على النهر ، فاذا رأيت نورا مثلثا فاعلمى اننى فى انتظارك . تشددى وقوى قلبك ولا تخافى

« كتبه محبك الذى يفديك بروحه »

وطوى الكتاب وخاطه ، وجعله فى الكيس الارجوانى وختمه ودفعه الى يعقوب على أن يرجعه الى الرسول الذى جاء به ، ويوصيا بالاحتفاظ به لئلا يطلع عليه أحد . فتناول يعقوب الكتاب وخرج

□

وكانت الشمس قد تجاوزت الاصيل ، فأخذ الفونس يتأهب للخروج مع عمه الى منزله للمفاوضة هناك فيما يفعلونه ، ولشدة ما أصاب الفونس من البغتة كان ما زال مستغربا ما سمعه عن يعقوب من الاسرار المكتومة . وكان الطقس قد تبدل فتلبدت الغيوم وتغلب البرد ، فلبس الفونس قباء من الفرو السميك ، والتف عمه بردائه الاكليريكى وكان البرد قلما يؤثر فيه . وفيما هما يتأهبان للخروج وكل منهما يفكر فى أمر على حدة ، فتح الباب بغتة ودخل يعقوب ، وفى يده اسطوانة من جلد بلون القرمز ، فعلم أوباس ان فيها كتابا من رودريك فقد كانت كتبه الى عماله وأمرائه تكتب على الجلد وتلف وتوضع فى اسطوانة من جلد العجول المدبوغ بلون القرمز. فلما وقع نظر الفونس على تلك الاسطوانة تقدم لتسلمها فاعترضه عمه وتناولها وقال ليعقوب : « من جاء بها ؟ »

قال : « جاء بها شرذمة من فرسان الملك وقد سألنى رئيسهم عن سيدى الفونس هل هو هنا فأردت استمهاله لأعود اليه بالجواب فابتدرنى قائلا : « أخبرنى حالا فانى مأمور بايصال هذا الكتاب اليه على جناح السرعة حيثما كان ، فقلت انه هنا ، فدفع الى الكتاب وقال انه ينتظر »

فنظر أوباس فى ختم الاسطوانة فاذا هو ختم الملك نفسه ففضه وأخرج الكتاب فاذا هو قطعة من الرق مما كانت الحكومة تستخدمه لكتابة الاوامر ، وكانت الرسالة مطوية فنشرها وقرأ مافيها ، والفونس واقف الى يساره يتطاول لقراءتها ، فاذا هى أمر رسمى من رودريك اليه يقول فيه ما معناه :

« من رودريك ملك القوط

« باسم الاب والابن والروح القدس

« الى الشجاع الباسل عزيزنا الفونس ، سلام ، وبعد فقد بلغنا أيها العزيز أن بعض العبيد والموالى فى كونتية (...) قد تمردوا وتواثقوا على مقاومة حكومتنا هناك . فاذا أتاك كتابى هذا فأسرع الى مقر جنودنا فى طليطلة ، فان فرقة من الجند فى انتظارك لتذهب تحت قيادتك الى تلك المدينة لاخماد الثورة . ولابد من العجلة ويدلك

على استعجالنا اننا كتبنا هذا الامر فى يوم العيد الذى لا يجوز العمل فيه ، فلا تتوان فى انفاذ أمرنا هذا والسلام

« كتب فى قصر طليطلة فى الخامس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ٧١٠ »

وما جاء الفونس على آخر الكتاب حتى اسودت الدنيا فى عينيه وصاح لشدة هياجه : « لا أذهب . لا أذهب .. ! »

فالتفت أوباس اليه لفتة الاستصغار وقال له : « كيف لا تذهب ؟ وهل تستطيع ذلك ؟ . ألا ترى انه كتب اليك هذا الكتاب وفيه ما فيه من الملاطفة ، فاذا عصيت أمره جررت على نفسك البلاء ؟ ! »

قال : « وأى بلاء أجره على نفسى ؟ »

قال : « اذا تخلفت عن المسير اتهمك بالعصيان وأمر بالقبض عليك . وليس عندك من الرجال ما تدفع به قوة الحكومة الآن ، فلا تكون النتيجة الا ايقاع الاذى بك وبنا كلنا اذ يرى المجمع المقدس مسوغا لذلك بعصيانك ؟ فالحكمة تقضى علينا بالملاينة والمسايرة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا »

ولم يكن الفونس يجهل ذلك ولكن غضبه لفلورندا ولخروجه من طليطلة وهى فى ذلك الضنك أغلق ذهنه ، فلما سمع كلام عمه قال له : « ولكن ما العمل ؟ وكيف أجتمع بفلورندا ؟ ! »

قال : « اترك أمرها الى ، فسأتولى انقاذها الليلة وأخفيها فى مكان ، ثم أكتب اليك حيثما تكون ونرى ما تأتى به الحوادث . ولا تجزع بل أبشر بما ترجوه من وراء سفرك هذا من تمهيد السبيل لمشروعنا . اتكل على الله ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم »

فالتفت الفونس الى يعقوب وقال له : « اخبر حامل الرسالة انى ذاهب بعد قليل »

قال : « قلت لك يا مولاى انهم كوكبة من الفرسان ، وقد علمت انهم مأمورون ألا يعودوا الا بك »

فقطع أوباس كلام يعقوب وقال لألفونس : « اذهب يا بنى . اذهب الآن وأنا أتولى كل شىء فى غيابك ، ولكنى أنصح لك أن تصطحب يعقوب وتعتمد عليه ، وسوف يطلعك على أمور تهمك ! »

فقال يعقوب : « سمعا وطاعة » . وأسرع الى أثوابه فلبس منها ما يصلح للسفر ، وكذلك فعل الفونس .. وخرجا والفونس يتجلد وقد ألقى كل حمله على عمه

- ٤ -

فلندع الفونس يتأهب للسفر ، ولنعد الى قصر رودريك حيث تركنا فلورندا فى غرفتها تفكر فى أمرها بعد الفراغ من الصلاة وتسليم أمرها الى الله .. فقد خرج رودريك من عندها وهو يضمر لها الشر العاجل ، وكان أول شىء فعله أنه لقى الأب مرتين فى غرفته يتلو بعض الصلوات . وكان مرتين قد شعر بذهاب الملك الى قصر فلورندا وتحقق أنه لا يعود من هناك الا وهو مقتنع بوجوب التخلص من الفونس أو ابعاده ، فلما لقيه عائدا آنس الغضب والانفعال فى عينيه وجبينه ، حتى لقد يعجب الذى يراه لصبره عن قتل تلك الفتاة وهو اذا غضب لا يبالى بقتل المئات ! . ولكن الحب .. الحب يخفف الغضب ويلجم القلب والعقل . الحب يذلل الاسود ويستأسر الجبابرة ، وهو الذى يبعث الى الشفقة والحنو ! فاذا رأيت رجلا فى خلقه جفاء وخشونة فاعلم أن الحب لم يستول على قلبه بعد . نعم ان حب رودريك لم يكن خالصا من شوائب المنكر ، ولكن ذلك لا يمنع تأثيره فى القلب ، لان سبب الحب واحد ، وان كان أثره يظهر فى الناس مختلفا باختلاف اخلاقهم وأحوالهم

ولا يبعد أن يكون رودريك قد هم بقتل فلورندا وهى تعنفه وتقاومه ، ولكنه أمسك نفسه طمعا فى استرضائها واستبقائها ، فتحمل من عواقب الكظم ما ظهرت آثاره فى وجهه ، حتى خيل لمرتين لما رآه انه فى أعلى درجات الغضب ، فاستقبله ضاحكا ، فتجلد رودريك وحياه وهو يحاول اخفاء انفعاله عبثا ، ولم ير خيرا من أن يشاغل الاب بالحديث فقال له وهو يظهر الاستخفاف : « يظهر أن لذلك الغلام مأربا عند بعض أهل القصر ! »

فأجاب الشيخ وهو يتلجلج على عادته : « كأنى بالملك لم يفهم اشارتى الى ذلك فى هذا الصباح ؟ »

قال : « بلى فهمت ، ولكننى .. » وسكت ، فأدرك القسيس انه يضمر شيئا فظل ساكتا وهو ينقر بسبابته على شفته الغائرة ، وعيناه تنظران الى الملك كأنه يتوقع تتمة حديثه . أما رودريك فلم ير بأسا من اطلاع مرتين وهو مستودع أسراره على قصده ، الا حبه فلورندا فانه نوى البقاء على كتمانه ، حياء من الناس وخوفا من امرأته ، وهو يعلم تسلط القسوس على النساء فخاف أن يقع حبه لدى القسيس موقع الاستهجان فيطلع الملكة عليه فتقف فى سبله . !

على انه أراد اطلاع مرتين على ما بقى من عزمه فقال : « أرى أن أسعى فى ابعاد هذا الشاب عن هذه المدينة بالحسنى فنشغله عن القصر وأهله »

فطأطأ الشيخ رأسه استصوابا كأنه رأى الجواب بتلك الاشارة أهون عليه من التكلم ، ثم قال : « واذا أبعدته فقد ننتفع بخدمته ونتخلص ، ولكن الحية لا تموت اذا ظل رأسها سالما ! »

فعلم رودريك انه يشير الى أوباس ويود ابعاده فقال : « ان ابقاء رأس الحية بين أيدينا أسلم عاقبة لنا ، خصوصا اذا كان الذنب بعيدا ! » ففهم مرتين اشارته وسكت . فنهض الملك للحال وكتب ذلك الكتاب وبعث به الى الفونس كما تقدم ، وصبر حتى أنبأوه بنفاذ أمره وان الفونس جاء المعسكر وتهيأ للسفر

وكانت الشمس قد توارت وراء الافق وأقبل الظلام ، وكأن اقباله زاد ذلك الملك تعاميا عن فظاعة مانواه ولم يعد يستطيع صبرا الى اليوم التالى ، فتناول طعام المساء مع امرأته ، وأكثر من تعاطى الخمر على المائدة تشاغلا عما ثار فى نفسه من النيران الشيطانية فهان عليه ارتكاب كل فظيعة ولذلك قالوا : « السكر رأس كل المعاصى ! »

نهض رودريك عن المائدة وقد امتلأ جوفه ودارت الخمر فى رأسه ، وتحول توا الى غرفته والقسيس لايزال على المائدة مع امرأته ، فلما دخل الغرفة أغلق بابها وراءه وفتح الباب الآخر وسار فى الممر نحو غرفة فلورندا !

أما فلورندا فكانت بعد أعمال الفكر قد كتبت ذلك الكتاب الى الفونس ، ودفعته الى العجوز فأرسلته مع خادم تعتقد اخلاصه ، ولبثت تنتظر الجواب ، فشغلها ذلك الانتظار عن كل فكر . وظلت على هذا الحال ساعة ظنتها شهرا أو سنة ، فكانت تارة تطل من الباب ، وأخرى من النافذة المشرفة على النهر ، وآونة تدعو خالتها وتستفتيها فى سبب التأخير ، وهذه تهون عليها حتى عاد الرسول بذلك الجواب فخفق قلبها سرورا ، وكان أول شىء فعلته انها قبلت الايقونة وشكرت الله على اجابة صلواتها ، وأخذت تجمع ماخف حمله من الحلى ونحوها ، والعجوز تساعدها حتى غابت الشمس ، فعند ذلك تركت كل شىء وتحولت الى النافذة فجلست اليها وأخذت ترسل بصرها الى مجرى النهر تنتظر ظهور النور المثلث ، مع علمها ان الاجل المضروب ما زال بعيدا ، ولكن القلق أوهمها قربه ! وكان الطقس قد برد ، وتلبدت الغيوم فأغبرت السماء وعصفت الرياح ،

وأومض البرق وقصف الرعد ، ولم يمض قليل حتى تساقطت الامطار . ولكن ذلك كله لم يشغلها عن التفرس فى النهر وركبتاها ترتعدان وجلا وفرحا . وكانت كلما لاح برق ظنته مشعال حبيبها . وقد تنفرج الغيوم فيقع بعض ظل الكواكب فى مجرى النهر فتحسبها نورا مثلثا ، وربما كانت عشرين كوكبا فتظن تعددها ناتجا عن تكسر سطح النهر بالامواج ، أو تتوهم السبب فى ذلك اعتراض بعض أغصان الحديقة بينها وبين النهر ، خصوصا الاغصان الضخمة القائمة تجاه النافذة !

▭

وفيما هى تعلل نفسها بقرب الفرج ، وقد وجهت كل حواسها وعواطفها الى ما هو خارج تلك النافذة نحو النهر ، انتبهت بغتة فسمعت وقع أقدام رودريك فى الممر ، فخارت قواها ، وتسارعت ضربات قلبها حتى كاد يغشى عليها ، وأحست بما يحدق بها وكانت فى غفلة عنه ، فجلست على البساط وجعلت تتضرع الى الله أن يساعدها وينقذها هذه المرة . ولم تجد أمامها الا خالتها فسألتها : « أليست هذه خطوات الملك ؟ » . ولم تتم كلامها حتى خرجت العجوز ثم عادت وهى تقول : « الملك يدعوك الى تلك الغرفة »

فصاحت فلورندا : « ويلاه ما هذا المصاب يا الهى ! ؟ » ولطمت وجهها وأخذت فى البكاء ، فتقدمت العجوز اليها وجعلت تخفف عنها وهى لا تدرى بماذا تعزيها هذه المرة . على انها لم تر خيرا من الرجوع الى المعزى الاكبر — وهو الدين — فقالت : « اتكلى على الله وهو الذى انقذك فى المرة الماضية وسينقذك الآن ، وما عليه أمر عسير »

وكانت فلورندا من أهل الايمان الوطيد كما رأيت ، فتضرعت الى الله أن يساعدها هذه المرة أيضا ، والتفتت الى خالتها وقالت لها : « أتوسل اليك ياخالة أن تصلى من أجلى وتطلبى الى الله أن ينقذنى من هذه التجربة »

فقالت : « انى باقية هنا جاثية أمام هذه الايقونة الى حين رجوعك ، لأنى لو صحبتك ما نفعتك ، ولا يساعدنا على هذا العدو غير الله وحده ! »

فاطمأن بال فلورندا لهذه العبارة ومشت كالشاة التى تساق الى الذبح ، وهى تقدم قدما وتؤخر أخرى حتى دخلت تلك الغرفة . وكان رودريك جالسا فى صدرها جلوس من لا يهمه النهوض ، ورأت فى وجهه من دلائل الغضب ما لم تره فى المرة الماضية ، وقد احمرت عيناه وأكمد لون وجهه من السكر ، وأسرع تنفسه واشتد . فظنت فلورندا لأول وهلة انها ترى هذه الملامح فى وجهه بسبب نور المصباح ،

على انها لم تكد تقع عيناها عليه حتى أسرع قلبها بالخفقان ، ولكنها استعانت بالله وتجلدت ، وتقدمت حتى وقفت على بضع أذرع منه وأطرقت . وكانت قد ضفرت شعرها ولملمته وغيرت ثوبها تأهبا للسفر . فرأى رودريك فيها ما زاد شغفه بها ، وتضاعف ذلك الشغف لتنبه عواطفه بالمسكر فخاطبها وهو لايزال جالسا وقد مد رجليه ، وبسط ذراعيه على الوسائد فى الجانبين فقال : « هل حدثتك نفسك بشيء جديد ؟ »

فظلت ساكتة ولكنها بالغت فى الاطراق ، فأعاد السؤال وقد توكأ على ركبتيه كأنه يتحفز للنهوض قائلا : « أجيبى يا فلورندا ، يظهر انك أدركت السعادة التى أدعوك اليها ، خصوصا اذا علمت أنى أنقذتك من يدى ذلك الغلام الذى كان يغريك بحبه ، وهو لا يحبك ولا يستحق قلبك ! »

ثم وقف بسرعة تمازجها عربدة ، وأخذ يسرح لحيته قائلا : « لماذا لاتجيبيننى ؟ كأنك تخجلين من الندم بين يدى الملك ! ألا فاعلمى انى سامحتك على ما مضى .. » قال ذلك وخطا نحوها ويمناه مرفوعة كأنه يهم أن يلقيها على كتفها تحببا !

أما فلورندا فلما رأته يدنو منها تقهقرت ورفعت ذراعيها تتحامى بهما ، ونفرت منه كأنه ذئب كاسر يهم بافتراسها ، فتراجع رودريك وأظهر الاستغراب وهو يقول : « ما بالك تنفرين كأنك تخافيننى ، ادنى منى ، اننى أريد رضاك ؟ ! »

وكانت فلورندا لا تزال فى ريب من أمره ، فأرادت أن تحقق ظنها . وكانت الامطار قد تعاظم تساقطها ، واختلطت أصواتها بأصوات المياه المنحدرة من الميازيب وهبوب العواصف وقصف الرعود ، وفلورندا فى غفلة عن كل ذلك لعظم ما قام فى نفسها من الخوف . على انها لما عولت على مخاطبته انتبهت لما يحول بين صوتها المنخفض وبين أذنه من هذه الاصوات المختلطة فقالت بصوت عال لكنه مرتعش : « قد قلت لمولاى الملك ان هذا الموقف ليس موقفى ، وان الله قد جعل نصيبى سواه »

فقال لها : « كأنك لم تفهمى كلامى ! قلت لك ان الغلام الذى تسمينه نصيبك قد مضى ولا سبيل اليه »

فلما سمعت قوله توهمت انه قتله فصاحت وقد وقف شعرها وارتعشت ، وأحست كأنه صب ماء غاليا على بدنها وقالت : « ماذا تقول ؟ . ماذا فعلت بالفونس . ماذا ؟ . ماذا ؟ . هل قتلته ؟ »

فلما رأى رودريك ما أصابها خاف أن يقضى عليها بغتة وهو يريد استبقاءها لنفسه ولو ساعة فقال : « لا . لم أقتله ولكنه بين يدى ، وحياته طوع ارادتى ، اذا شئت قتلته بكلمة ولا أتكلف لذلك خطوة واحدة ! يظهر أنك لا تزالين تجهلين من هو الذى يخاطبك ، ومن هو ذاك الذى تسمينه نصيبك ؟ نعم انى لم أقتله بل اكتفيت بابعاده ، ولكن اذا بقيت على اصرارك أقتله ، واذا ظللت على غيك بعد قتله أقتلك أنت . وأنا الآن لا أسترضيك ولا أستعطفك بعد ما رأيته من وقاحتك ، واعلمى ان هذه الساعة هى الحد الفاصل بين تمنعك وبين ما أريد ! » قال ذلك بصوت عال ومشى مسرعا الى باب الغرفة وأغلقه ورجع وهو يقول : « فاختارى الحائط الذى تريدينه واخرجى منه ! » ثم ألقى نفسه على المقعد وهو يلهث من الغضب كأنه ثور يخور ، وقد زادت عيناه احمرارا وأوداجه انتفاخا

وعندما سمعت فلورندا تصريحه بالمنكر ، وتحققت دنو الخطر ، التفتت الى ما حولها كأنها تفتش عن ضائع أو تستنجد رفيقا ـ فعلت ذلك وهى لا تعلم لماذا فعلته وهمت بالجواب . فقطع رودريك كلامها قائلا : « عمن تبحثين ؟ اننا فى غرفة ليس معنا ثالث . وليس على وجه البسيطة من يستطيع أن يحول دون مرادى . فأقبلى طائعة . انه أحفظ لحياتك وأدعى الى سعادتك ! »

وكانت فلورندا لما سمعت قوله « وليس معنا ثالث » قد تذكرت ما كانت تقرؤه وتسمعه من أقوال الكتاب المقدس ، من أن من يتكل على الله لايفشل ، وأن الله موجود فى كل مكان . فأحست باطمئنان كأنها محاطة بملائكة يحرسونها ، وتشجعت ونظرت الى رودريك وهى تتفرس فيه وقالت : « تزعم أننا منفردان ، وأن الجو خال لك ، وقد فاتك ان الله موجود فى كل مكان لايدع لأحد سلطانا يغلب سلطانه ! ثم انى سمعتك تهددنى بالقتل . فاقتل ثم اقتل ! اقتلنى فانى لا أبالى بحياتى . ولكن أتوسل اليك الا تمس الفونس بسوء .. آه يا الفونس .. ! » قالت ذلك وخنقتها العبرات وأطلقت لنفسها عنان البكاء

فلما سمعها رودريك تبكى لم يزدد الا حنقا خصوصا بعد ان سمع ذكر الفونس. على انه لما رأى توبيخها وثباتها مع شدة تعلقها بحبيبها ورغبتها فى بقائه ، تراءى له أن يعرض عليها استبقاءه فقال : « اذا كانت حياة الفونس تهمك بهذا المقدار ، فانى اكراما لعيونك ابقيه ،

رودريك : « هل حدثتك نفسك بشيء جديد ؟ »

وأرقيه ، وأجعله من أسعد أهل طليطلة . ولايكلفك ذلك الا أن تقلعى عن عنادك ! »

فابتسمت استخفافا بذلك الرأى وقالت : « ان الامر الذى يرضيك منى بذله انما هو أثمن ما لدى فى هذا العالم ! أثمن من حياتى ! بل أثمن حتى من الفونس نفسه . لأنى بدون ذلك الاكليل المجيد وتلك الجوهرة الثمينة لا أستحق نظرة من الفونس ولا من سواه . بل لا أساوى شيئا ! وهل تظننى لولا ذلك أستطيع مخاطبة الملك بهذه الجسارة ؟ »

فرأى رودريك انها تطيل الجدال ولا يجد ما يدفع به حجتها ، ولا هو يريد الاقتناع بقولها لأن ميوله البهيمية غلبت على عقله وارادته .. وقد يكون ـ وهو يجادلها ويراودها ـ مقتنعا بأنه يلتمس أمرا منكرا وانها مصيبة بتوبيخه ؛ ولكنه لايملك عنان شهواته

▭

وكان رودريك مع قوة بدنه ضعيف الارادة . فلما سمع تقريع فلورندا أدرك خطأه ، ولكنه تجاهل وتعامى وتصامم ، وعاد الى المغالطة ، فأظهر الغضب ووقف بغتة وقال لها : « أراك تحبين المدافعة بلا فائدة ، ولم يبق لى صبر على أقوالك . ألا تشعرين بما تعرضين نفسك له من الخطر ؟ . ومع ذلك فما لايمكن أن يكون برضاك لابد منه رغم أنفك ! » . قال ذلك ودنا منها وقبض على ذراعها ويده ترتعش ، فاقشعر بدن فلورندا وأحست كأنه ممسك ذراعها بقبضة من حديد فصاحت : « ويلك يا ظالم . تبا لك يا فاسق . ! ألا تخاف يوم الحساب ؟ ألا تخاف الله ؟ قبح الله ملكا يتولى انصاف المظلومين وهو أكبر الظالمين . ولعن الله رجلا يزعم انه أقيم لكبح جماح المتمردين وهو لايقوى على كبح شهواته ! » ثم أرسلت بصرها نحو السماء ورفعت يدها الاخرى وقالت : « اليك أتوسل أيها المخلص الحبيب ، وأعوذ بك من هذا الظالم الخائن ! »

وكان رودريك فى أثناء ذلك يحاول القبض على يدها الاخرى وهى تحاول التخلص منه ، فوقع نفسه فى وجهها فاشتمت رائحة الخمر فهمت أن تقول شيئا ولكن اعترض قولها رعود قاصفة توالت بضع ثوان ، أعقبها صوت صاعقة انقضت بالقرب من ذلك المكان ، فارتج القصر من أساسه ، ونفذ وميض البرق من شقوق النوافذ كأنه حراب من نار ! فكان لتلك الحركة تأثير شديد فى نفس رودريك شغله لحظة عن فلورندا ، وتولاه الرعب لأنه توهم لأول وهلة ان القضاء

يتهدده ـ كما يفعل بعض الذين يربون فى مهد الدين فيعتقدون ان الاقدار تراقب حركاتهم وسكناتهم ، وان الطبيعة لا تعمل عملا الا وهى تتعمد به خيرهم أو شرهم ، على ان ذلك الخاطر لم يمر فى ذهنه الا مرور البرق ثم عاد الى ما كان عليه !

وأما هى فانها اغتنمت تلك الفرصة وانتزعت يدها من يده ، وقد اعتبرت انقضاض تلك الصاعقة نصيرا لها عليه اجابة لصوت دعائها فالتفتت اليه وهى تقول : « ألا تعلم ان فى الكون من ينتصر للضعيف على القوى ؟ الا يستطيع ذلك الجبار أن ينزل عليك وعلى قصرك صاعقة تذهب بكما الى الموت العاجل ؟ »

فأفحم رودريك لما رأى الاقدار تزيد حجة فلورندا عليه ، ولكنه اعتبر نفسه فى موقف انتقام ولم يزدد الا تماديا فى غرضه ، فتقدم اليها وقبض باحدى يديه على كتفها ومد يده الاخرى ليقبض على يدها ثم يرفسها برجله . فتشددت هى وانتزعت نفسها من يديه فأفلتها بالرغم عنه لأنه لم يكن ممسكا بكل قوته ، فلما أفلتت منه تعاظم غضبه فهجم عليها هجوم الثور ، وهو لايبالى مايكون من أمرها !

فلما رأته فلورندا هاجما والشرر يكاد يتطاير من عينيه لفرط غضبه أيقنت بالخطر العاجل ، فعولت على الانتحار قبل وصوله الى مراده ، فجثت على ركبتيها ورفعت بصرها الى السماء كأنها تستغيث وهى لا تزال الى تلك اللحظة تعتقد ان العناية الالهية لا تتخلى عنها ! ولكنها لما رأت رودريك يكاد يصل اليها أسرعت هى فقبضت بكلتا يديها على عنقها وهمت أن تخنق نفسها وهى تقول : « الموت . الموت خير من العار . اليك أسلم روحى يا مخلصى الحبيب » . قالت ذلك وضغطت على حنجرتها فانحبس الدم فى وجهها وجحظت عيناها ولكنه أمسك يديها وشدهما فأبعدهما عن عنقها ، وكانت قد خارت قواها فسقطت وقد ارتخت مفاصلها واستلقت على ظهرها لاحراك بها !

▭

فلما شاهدها رودريك فى تلك الحالة تنبهت فيه الحاسة البشرية لحظة ، وعمد الى تلطيف ما بها فجثا بجانبها ، وأمسك يدها وأنهضها يريد اجلاسها لتصحو من غيبوبتها ، فاذا هى لا تزال مغمضة العينين مسترخية الاعضاء فخفق قلبه ، وتحرك ضميره ، وتوهم انها ماتت أو كادت تموت ، فتركها وأسرع الى الباب لعله يجد ماء فيرشها به ، ففتح الباب وطلب حجرة فلورندا فاستقبلته العجوز وهى خارجة منها وقد بغتت منذ سمعت فتح الباب لأنها كانت لا تزال الى تلك

اللحظة جاثية تصلى وتطلب نجاة فلورندا من هذا الخطر . وكانت وهى مستغرقة فى الصلاة لا تسمع شيئا مما حولها وقد أقفلت النافذة المطلة على النهر حجبا للعواصف ، فلم تتنبه لقصف الرعد وهبوب الرياح الا كما يشعر الراقد بصوت يسمعه بين اليقظة والمنام . ولكنها حالما سمعت فتح الباب تنبهت كأنها أستيقظت من ذلك الرقاد ، وهرعت نحو الباب فاستقبلها الملك والبغتة على وجهه وقال : « الى بكوبة من الماء . اسرعى حالا . ! » . قال ذلك وعاد الى الغرفة فتبعته العجوز بالكوبة وركبتاها ترتعدان من الخوف على فلورندا ، فدخل رودريك وهو يقول للعجوز : « رشيها بالماء ! » فلما رأت العجوز حال فلورندا صاحت : « فلورندا ما الذى أصابك ! . . » وأسرعت فرشتها فاستيقظت وجلست وهى تنظر الى ماحولها ، فلما رأت رودريك صاحت : « ويلاه انى لا أزال حية ، ولايزال هذا الشرير أمام عينى . كنت أحسب انى نجوت منه بالموت ! »

أما رودريك فأغضى عن ذلك ووجه خطابه الى العجوز وقال : « أرأيت ما الذى فعلته فلورندا بنفسها لطيشها وغرورها ؟ . أعرض عليها السعادة فترفضها ؟ » . فلم تجد العجوز جوابا غير البكاء لأنها توهمت أن نجاة فلورندا مستحيلة . على انها لم تجد سبيلا غير التزلف ، فجثت أمام رودريك وقالت ودموعها تتساقط : « أتقدم الى مولاى أن يرفق بهذه الفتاة المسكينة ويتركها وشأنها ، فان فى قصره وتحت أمره مئات مثلها » . فاستاء رودريك من قولها وكان يتوقع مساعدتها فرفسها برجله وهو يقول : « اليك عنى يا عجوز النحس . وأنت أيضا ؟ » فخرجت العجوز وقد تذكرت الموعد الذى جاءهما من الفونس فقالت فى نفسها لعل مع الفونس رجالا يصعدون الينا فينقذونها من بين يديه بالقوة ، فهرولت الى الحجرة وفتحت النافذة فتحا قليلا فعصفت الريح فى وجهها وبللها الماء ونظرت الى جهة النهر فلم تجد نورا مثلثا ولا غير مثلث ، فأقفلتها وعادت الى الصلاة !

أما رودريك فأقفل الباب وعاد الى فلورندا وهى ما زالت جالسة على البساط فى الغرفة ، وقد استراحت وعادت اليها قوتها وتصاعد الدم الى وجهها برد الفعل فعاد اليه الاشراق ، ولكن الكآبة ما زالت غالبة على منظرها . فدنا رودريك منها وهو يمد يده الى منطقته ثم أخرجها وهو قابض بها على خنجر أبرق فرنده وكأنه يقطر سما ، وبيده الاخرى شىء كالخاتم يلمع ثم مد يده اليها وهو يقول : « لقد

نفد صبرى يا فلورندا فها انى عارض عليك السعادة لآخر مرة فاما أن تقبليها ، وهذا خاتمى عربون على ذلك ، واما أن أغمد هذا الخنجر فى صدرك فى هذه اللحظة . أجيبى حالا . . ! »

فنهضت للحال وتصدت له وهي تقول : « أغمده . أغمد خنجرك فى صدرى وأرحنى من هذه الحياة . ويا حبذا الموت الذى ألقى به وجه ربى بريئة طاهرة . اقتلنى يارودريك . اقتل ! »

فقال لها : « امعنى الفكر ولا تظنى انى أقول ذلك للتهديد . انى فاعله حالا . وان عقلت وأجبت سؤلى أخذت هذا الخاتم عربون محبتى لك وكنت أسعد بنات طليطلة ! »

قالت : « انى لا أرهب الموت فداء العفاف والطهر . الموت خير لى ، الا اذا رجعت الى رشدك وندمت قبل فوات الفرصة ـ لأنك نادم فى أى حال . فاذا ندمت بعد ارتكاب هذا المنكر لاينفعك ندمك شيئا ، واذا قتلتنى فانك تندم على قتل فتاة بريئة طاهرة لا ذنب لها الا اصرارها على العمل بوصية الله » ثم حولت وجهها نحو السماء وقالت : « يا أيها المخلص المجيد . ربى والهى . ألا كشفت لهذا الرجل فظاعة ما هو مقدم عليه ؟ ! أقشع غشاوة الجهل عن عينيه »

فضحك رودريك وقطع كلامها وقال : « أظنك تتوقعين قصف الرعد ووميض البرق جوابا على كلامك كالمرة الماضية . كلا . فما نحن فى عصر المعجزات ! »

▭

وفيما هو يريد اتمام كلامه ، والخنجر مشهر بيمينه كأنه يهم بأن يطعنها به ، سمع وقع أقدام غريبة فى ممر القصر ، فأنصت ، فسمع تلك الخطوات تقترب من الغرفة وهى تسرع ، فخفق قلبه واقشعر بدنه ، وعاد اليه الاحساس الدينى الذى ربى فيه ، فخيل له ان الله استجاب دعاء فلورندا فأرسل بعض ملائكته لانقاذها

قضى رودريك وفلورندا ثوانى قليلة فى حيرة ، وهما واقفان وأبصارهما شاخصة نحو الباب ينتظران ما يكون ، وفلورندا ترتعش تخشعا وبغتة . وأما رودريك فانه أرجع الخنجر الى مكانه ومشى الى الباب وهو ما زال يسمع خطوات القادم تقترب . وقبل الوصول الى الباب سمع قارعا يقرعه قرعا عنيفا ارتجت له جوانب القصر ، وارتعدت فرائص رودريك ، ولم يتمالك أن أسرع الى فتحه . ولا تسل عن دهشته واضطرابه لما رأى أوباس داخلا وهو فيما يعرفه فيه من الهيبة والرزانة ورباطة الجأش ، والماء يقطر من أردانه !

أما فلورندا فتوهمت لما رأته أنه ملاك لابس ثوب أوباس ، وظلت واقفة وقد ملكت البغتة كل جوارحها حتى علق ريقها فى حلقها وأمسكت تنفسها !. وأما رودريك فلم يسعه عند رؤية أوباس الا اظهار استغرابه من جسارته الى هذا الحد فقال له : « ما الذى جاء بك الى هنا فى هذه الساعة ؟ . وكيف دخلت هـــذا القصر بغير أستئذان ؟ ! » . فأجابه أوباس وهو لايبالى كأنه يخاطب غلاما وقال : « أما الذى جاء بى فهو أمر يهم المملكة سأعرضه عليكم . وأما دخولى بلا استئذان فجلالة الملك يعلم أن أمثالنا لا يستأذنون فى الدخول على الملوك أو مخاطبتهم ، وهم يخاطبون الله بلا استئذان ! »

ففهم رودريك أنه يعرض بسلطة الاكليروس خصوصا الاساقفة ، فانهم هم الذين أجلسوه على الكرسى ، ولكن أوباس لم يكن منهم للاسباب التى قدمناها ، فساءه ذلك التعريض ولكنه كان شاعرا بارتكابه ذنبا عظيما ، والمذنب يغلب عليه الضعف والارتباك ولو كان ملكا ، خصوصا بين يدى رجل مهيب مثل أوباس ، فعمد الى تغطية ذنبه بالمغالطة ، وقد عول على أن يصرف أوباس ثم يعود الى فلورندا فقال له : « انتظرنى فى الدار العامة ريثما آتيك »

قال : « لوكان الامر الذى جئت به يحتمل الانتظار ماجئتك فى هذا الليل تحت سيول الامطار » . قال ذلك ومد يده نحو فلورندا وهو يظهر أنه يخاطب الملك وقال : « واذا فتحت النافذة المطلة على النهر تحققت الأمر الذى قلته لك ، ورأيت الامطار بل الثلوج تتساقط ، فلو لم يكن مجيئى لأمر ذى بال ما عكرت على الملك راحتـــه . انى لا أخرج من هذا المكان الا معك ! »

وكانت فلورندا كلها مسامع ولواحظ لما يقول أوباس أو يشير اليه ، فلما سمعت ما ذكره عن النافذة أدركت أنه يشير الى الموعد المضروب لانقاذها ففرحت . أما رودريك فالتفت الى فلورندا وأشار اليها أن « اذهبى الى غرفتك ريثما أعود » وخرج مهرولا ، وأوباس لا يغير مشيته ولا يكترث بانهماك الملك واستعجاله . فلما وصل رودريك الى آخر الممر التفت خلفه فرأى الباب مفتوحا فتذكر انه نسيه بدون اقفال فعاد وأغلقه كأنه يحاذر أن يختطفوا فلورندا من بين يديه ، ومشى وأوباس لا يكترث بتلك الحركات حتى وصلا الى الدار العامة حيث ينعقد المجلس عادة ، فجلس ودعا أوباس الى الجلوس فقال هذا : « ان الامر الذى جئت من أجله لا يصح ذكره فى هذه القاعة »

فاستغرب رودريك جوابه وقال : « وأين اذا ؟ » . قال : « فى

غرفة منفردة على حدة » . فنهض رودريك وقد ساءه هذا التعنت ومشى معه الى غرفة منفردة فيها مصباح نوره ضئيل، فجلس أوباس بين يديه ، ولم يستطع هو صبرا فقال : «قل ياحضرة الميتروبوليت»

فقال : « جئتك بأمر دعانى الله الى تبليغك اياه » . فأنصت رودريك وتطاول بعنقه لسماع ما يقوله . فقال أوباس بصوت هادىء على عادته : « ان الله خولك سلطانا على الناس تحكم فيهم ، وتنصف مظلومهم ، وتضرب على أيدى الظالمين ، فلا تتخذ ذلك السلطان وسيلة الى ما يغضبه »

فبغت رودريك لما فى خطاب أوباس من التوبيخ ، وقطب حاجبيه اشارة الى استهجانه تلك الجسارة وقال : « هل عندك كلام فى غير هذه الشؤون ؟ » . فأدرك أوباس انفعاله ، وانه انما يريد تحقيره ورد التوبيخ اليه ، فلم يقبل منه ذلك فقال : « لعلك تظن ما أقوله وهما أو ليس بالامر المهم ! »

فقال رودريك وقد ظهر الغضب فى وجهه : « لا أرى ما يسوغ لك الاعتراض على أعمالى فى داخل قصرى ، فاذا كنت تعلم أمرا يتعلق بالاحكام بين الناس أو بالامن العام أو بسياسة البلاد فتكلم ! »

فابتسم أوباس باستخفاف وقال : « ألا تعلم أيها الملك انك مطالب بكل حركة تجريها فى منزلك وفى الخارج ؟ وان الصعاليك أقرب الى الحرية فى تصرفاتهم من الملوك ؟ انك مؤتمن على أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم ، وانما أعطاك الله هذا السلطان لصيانتها والدفاع عنها ، أفتتخذه وسيلة لسلبها بنفسك ، فاذا جاءك ناصح انتهرته واحتقرته ؟ ما هذه أخلاق الملوك المؤمنين ! »

فأعظم رودريك تلك الجسارة وازداد حنقا لرزانة أوباس ورباطة جأشه وقال : « هل كان أخوك أقرب الى تلك الاخلاق منى ؟ »

▭

ففهم أوباس انه يعرض بخروج الملك من أيديهم تحقيرا له فلم يصبر على ذلك ، فقال وقد ارتفع صوته ولكنه ما زال هادئا : « دعنا من ذكر الاموات فلهم من يحاسبهم ، وانما نحن نحاسب الاحياء . على انى ما أظن غيطشة لو كان حيا يفعل مثل فعلتك . بل أنا أجله عن الاقدام على مثل هذا المنكر ! »

فوقف رودريك من شدة الغضب وقال : « دع عنك ذلك كله فما هو من متعلقاتك ، لأنى أعلم بواجباتى منك » . قال ذلك وتحول عنه اشارة الى رغبته فى اقفال الحديث ، ولكن أوباس ظل جالسا وقال :

« لوكنت تعرف واجباتك ما أردت السوء بفتاة طاهرة وأنت ذوامرأة . وبدلا من أن تستغفر عن هذه الفظيعة تدافع عنها ! »

ثم وقف وأتم كلامه قائلا : « واعلم يارودريك ان اشتغالك بهذه الامور واهمالك كلمة الله ووصاياه ، من أول الادلة على قرب انقضاء هذه الدولة »

فلما سمع رودريك تهديده بقرب انقضاء دولته التفت اليه وهو يقول : « أراك تهددنى بخروج الملك من يدى ! انكم لن تستطيعوا ذلك ولو ملأتم الدنيا مؤامرة واستعنتم بقوات الارض والسماء ! »

قال : « اذا كان لنا نصيب فى هذا الملك ، فان قوات السماء تقدر على اخراجه من يدك »

ولم يتم أوباس كلامه حتى رأى باب الحجرة قد فتح ، ودخل الاب مرتين بغتة وهو يهرول ويتمتم كأنه يريد التكلم ويمنعه التلجلج من شدة التأثر . ثم نطق فخرج كلامه مقطعا موصلا مختلطا يشبه قوله : « ت .. ت .. ت .. تهدد جلالة الملك ب .. ب .. ب .. باخراج الملك من يده ! يا للوقاحة و ق .. ق .. قلة الادب ؟ ! » ولم يتم الاب هذه الجملة حتى امتلأت لحيته باللعاب المتطاير من فمه ، فلما فرغ من الكلام تشاغل بمسح لحيته وجعل يخطر فى أرض الغرفة بسرعة وهو مطرق ولا يزال يتمتم ، فأدرك أوباس انه يتهمه زورا ليوقع الشبهة عليه ، فسكت استخفافا

وأما رودريك فانه سر لهذه التهمة ، وتظاهر بالغضب والانتصار وقال : « لابأس يكفى الآن ما سمعناه من خير وشر ! » . قال ذلك وتحول من الغرفة فتبعه الاب مرتين ، فنهض أوباس وهو لا يبالى بما رآه وانما همه فوزه بانقاذه فلورندا من بين يديه !

وكان السبب فى مجىء أوباس الى القصر انه لما دنت الساعة المعينة جاء اجيلا وشنتيلا الى منزل أوباس فأمرهما باعداد قارب للنزول به فى النهر ، فنزلوا به فتساقطت الامطار وعصفت الرياح واضطرب الجو فهاج النهر ولكنهم لم يبالوا بذلك بل عدوه فى بادىء الرأى مساعدا لهم على اخفاء خطواتهم ، فوصلوا تحت القصر وفلورندا فى الغرفة مع رودريك ، وخادمتها فى الحجرة تصلى وقد أغلقت النافذة فصعد الشابان ومعهما أوباس لايبالون بالامطار والزوابع حتى وقفوا تحت حجرة فلورندا عند تلك الشجرة الجرداء دون أن ينتبه لهم أحد من الحراس ولا الحاشية . فأشار أوباس الى شنتيلا أن يتسلق الشجرة ويقرع النافذة فتسلقها حتى وقف على الغصن المقابل

للنافذة فقرعها بطرف حسامه قرعا خفيفا ، ثم قوى القرع فلم يجبه أحد لأن العجوز كانت قد خرجت بكأس الماء لترش فلورندا ، فنزل شنتيلا وأخبر أوباس بأنه لم يسمع جوابا ، فوقف هذا برهة يتأمل وقال فى نفسه لو كانت فلورندا مطلقة السراح لم يكن ليشغلها عن هذه النافذة شاغل ، فلا بد من أن تكون فى ضيق ، ولا بأس عليها الا من رودريك ! وتخيل أنها فى أشد الخطر ، وانه ان تأخر عنها قد يقضى عليها ، فأمر الرجلين أن يربطا القارب بجانب القصر ويمكثا عنده ، وحالما يسمعان فتح النافذة يصعدان على الشجرة ويحملان فلورندا وما معها

قال لهما ذلك وتحول الى باب القصر العام ، وسأل الحراس عن الملك فقالوا انه فى القصر ، فدخل ولم يعارضه أحد لأن الاساقفة كثيرا ما يدخلون على الملوك خصوصا ان الاكليروس كانوا أكثر تدخلا فى شؤون أسبانيا مما فى سائر ممالك أوربا تقريبا ، وعلى الاخص فى عهد رودريك لأنه انما تنصب بمساعدتهم

نعم ان أوباس لم يكن من الذين انتخبوه ، ولكن الحرس الواقفين بالباب لايهمهم التمييز بين أسقف وآخر ، وانما يكفيهم النظر الى الثوب الاكليريكى ، فضلا عن أن هيبة أوباس تكفى وحدها لاحترامه واطاعة أوامره ، وخصوصا فى تلك الساعة وقد زاده الاهتمام جلالا ووقارا

دخل أوباس من أبواب القصر الواحد بعد الآخر لايعترضه أحد ، حتى أتى غرفة الملك وكان يعرفها جيدا لأنها كانت لغيطشة من عهد غير بعيد . فسأل الحراس عنه فقالوا انه دخل غرفته ولا يدخل عليه أحد فيها ، فلم يبال بأقوالهم وكان رودريك قد نسيها غير موصدة فدخلها فلم ير فيها أحدا ، ورأى باب الممر المؤدى الى قصر فلورندا مفتوحا فدخل وما فى الدار أحد من الخدم ، فمشى مشية من لايهاب ملكا ، وجعل يبحث بنظره فرأى تلك الغرفة مضيئة وسمع لغطا فلم يتمالك أن ضرب الباب ثم دخل ، فأدرك من مجرد النظرة الاولى الى وجه فلورندا انها مصونة سالمة ، ورأى أن يبعد رودريك عنها ريثما تستطيع الذهاب الى حجرتها وتنجو من هناك ، فطلب الخلوة بالملك على ما تقدم

— ٥ —

خرج رودريك من تلك الغرفة وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما والاب مرتين يتبعه وهو يتمتم ويهز رأسه على مرأى من الملك استغرابا من وقاحة أوباس ! وكان يظن الملك لا يفارقه الليلة حتى يتآمرا على الايقاع بأوباس ، ولكنه ما لبث أن رآه قد تحول عنه راجعا الى غرفته ، فجلس على مقعد فى احدى طرقات القصر ثم نهض ورجع الى قصر فلورندا وفؤاده يتقد حنقا وكيدا . ولا تسل عن حاله لما لم يجد أحدا فى كل ذلك القصر ، ورأى حجرة فلورندا مشوشة خالية من الادوات الخفيفة الحمل الغالية الثمن !

عاد رودريك الى غرفته وهو يكاد يتميز غيظا ، وبعث الى قيم قصره فى تلك الساعة فجاءه ، فابتدره بالسؤال عمن خرج من القصر فى تلك الليلة . فاهتم القيم بالامر وسأل الخدم فقالوا انهم يقيمون فى الطبقة السفلى ولا يؤذن لهم بالصعود مطلقا ، وهم على ثقة أن باب القصر لم يفتح فى تلك الليلة ، وانهم لم يروا أحدا خارجا من مكان آخر لأن الظلام كان مخيما ، وقد منعهم سقوط المطر وهبوب العواصف من الانتباه لما يحدث خارجا . فسألوا الحراس فكان عذرهم انشغالهم بالنوء والعواصف عن كل شاغل . وأخيرا بحثوا فى الطريقة التى يمكن الفرار بها فاذا هى النافذة المطلة على النهر ، ورأوا على نواتىء الاغصان اليابسة نتفا من الفرو تناثر من رداء فلورندا

تحقق رودريك عندئذ ان أوباس شاركها فى ذلك الفرار فعزم على الايقاع به وعاد وقد أنهكه التعب وأثر الفشل فى عزائمه ، وأحس كأنه أفاق من سكرة فأحب الخلوة ، وذهب الى فراشه فتقلب على مثل الجمر وهو لا يستطيع رقادا ، وقلبه يتقد حنقا من أوباس فلم ير ما يفرج كربه الا استدعاء مرتين مستودع أسراره ، فنهض من الفراش حتى لقى أحد الحراس الواقفين ببابه فأمره أن يستقدم الاب على عجل ، ولو كان فى فراشه !

فذهب الحارس وقرع باب مرتين ، وكان قد خلع ثيابه وتدثر بقميص النوم وجلس فى الفراش وبدأ بصلاة النوم ، فوقف الرجل خارجا حتى فرغ الاب من الصلاة ، ثم دخل عليه وأبلغه أمر الملك باستقدامه ، ففرح لعلمه أنه لم يدعه الا للايقاع بأوباس ، فنهض للحال وهو ما زال بذلك اللباس وتزمل فوقه برداء واسع من الفرو ، ولم يضع القلنسوة على رأسه وكان شعره منفوشا أبيض كأنه كتلة

من القطن فوق رأسه ، ومشى حتى دخل على الملك الذى كان هو أيضا فى نحو ذلك من القيافة الغريبة بعد تقلبه فى الفراش ، وقد اختلطت ضفائر رأسه بشعر لحيته وشاربيه ، وأثر الغضب والفشل فى سحنته ! فلما دخل مرتين عليه شعر بارتياح لرؤيته ، فنهض لاستقباله وقبل يده ودعاه للجلوس بجانبه فجلس وهو يقول : « أرجو أن يكون مولاى الملك قد دعانى لأمر يسره »

قال : « لا أظنك تجهل السبب الذى دعوتك من أجله . وقد كنت فى هذا المساء ناظرا سامعا لما كان من أوباس ! »

فرأى مرتين من باب التملق أن يقطع كلام الملك ويقول : « انها وقاحة غريبة ليس أغرب منها الا صبر مولاى الملك عليها . . ! »

فقال رودريك : « حقا انها لوقاحة لم أكن أتوقعها من قوم قد أذقناهم الذل وأخذنا الحكم من أيديهم . ألا يخاف أوباس غضبى ؟ »

فقال مرتين : « أظن مولاى الملك لم ينتبه لفحوى أقواله . وأوباس مشهور بقلة الكلام وكثرة الفكر ، واذا قال كلمة يجب التمعن فى فحواها لانه لا يتكلم عن هوى ولا يلقى الكلام جزافا ! ألم تسمع قوله لجلالتكم : « اذا كان لنا مطمع فى الملك فان قوات السماء تقدر على اخراجه من يدك ؟ ! انها جسارة غريبة تدل على ما يعده من الشراك والمكايد . ولا أظنه الا يعقد المجالس السرية ويعاقد الاعداء على خلع الملك ، ولكنه خائب لا محالة ! »

وأحس رودريك عند سماع هذا التعليل بارتياح لانه كشف بابا لاتهام أوباس والقبض عليه وعلى من فى منزله ، لعله يجد فلورندا بينهم ، وقد غلب على خاطره أنها فرت الى هناك اذ ليس لها من الاقارب أحد ، خصوصا بعد ما ظهر له من القرائن الكثيرة فقال : « ما الرأى يا حضرة الأب فى هذا الخائن ؟ »

قال : « الرأى أن تقبض عليه حالا فى هذه الساعة قبل أن يتأهب أو يدس الدسائس ، لانه خرج من قصرك وهو يهددك . فلا تكن هينا ، لان الحلم فى هذا المقام ضعف ! »

ولم يكن رودريك فى حاجة الى هذا التحريض وهو أكثر رغبة فى ذلك ، فزاد على رأى مرتين أن يقبض على أهل بيت أوباس أيضا ويسوقهم الى السجن . ثم قال : « الى بقائد الحرس الملكى ! »

فخرج مرتين وأمر بعض الحرس باستقدام القائد ، وعاد الى غرفة الملك

أما أوباس فانه نهض بعد أن تركه الملك ، وسار على عجل الى

منزله لموافاة فلورندا والخادمين وتدبير وسيلة لاخراجها من طليطلة ، فلما وصل وعرف من الخدم أن أحدا لم يصل قبله اشتغل خاطره وخشى أن يكون أصابهم سوء ، فأعمل فكرته وعلل نفسه بقرب وصولهم حتى مل الانتظار ، فعول على الخروج بنفسه للبحث عنهم فى الطريق الذى كان يتوقع أن يجيئوا فيه ، لكنه ما لبث أن سمع ضوضاء ووقع حوافر خيول أمام القصر وأطل من شرفة القصر والظلام لا يزال حالكا فرأى جماعة على أفراس دنوا من القصر وأحدقوا به عن بعد دون أن يخاطبوا أحدا من أهله ، ولم يستطع لشدة الظلام أن يتبين الوجوه ولكنه أدرك بفراسته أنهم من رجال رودريك وقد جاءوا لأمر يوجب قلقا ! على أنه لم يخف على نفسه لرباطة جأشه ولاعتقاده ببراءة ساحته واعتماده على عزيمته وقوة حجته ، ولكنه خاف على فلورندا ورفاقها لانهم اذا جاءوا فى تلك الساعة وقعوا فى الشرك لا محالة

وأعمل فكرته هنيهة فرأى المبادرة الى أن يتحول الى غرفته فتزمل بالقباء وخرج الى الباب ونادى أقرب فارس اليه فجاءه وترجل وحياه باحترام . فقال أوباس : « ما الذى تفعلونه هنا ؟ »

قال : « اننا مأمورون بالوقوف هنا الى الصباح »

قال : « ومن أمركم بذلك ؟ »

فسكت الرجل وحول وجهه الى جهة أخرى ونادى ضابط تلك الكوكبة ، فجاء الآخر وترجل وحيى أوباس وهم بتقبيل يده ، فاجتذب أوباس يده بعنف وقال : «من أمركم بالوقوف هنا وما الغرض منه ؟»

قال : « أمرنا به من ينوب عن الملك . ولماذا أقلقت راحتك وخرجت فى هذا الليل من فراشك ؟ . نم مستريحا »

قال بنغمته الهادئة الاعتيادية : « أفصح يا هذا عن الغرض من وقوفكم هنا أو ارجعوا من حيث أتيتم »

فقال وهو يخفض صوته تهيبا من أوباس : «اننا مأمورون بالقبض على قداستكم حالما تهمون بالخروج من هذا المنزل »

فاستشاط أوباس غضبا ولكنه ظل هادئا وقال : «مأمورون بالقبض على ؟ ! ومن أمركم بذلك ؟ ! » . قال : « يعذرنى مولاى فانى مأمور لا يسعنى الا الطاعة . اننا مأمورون من قائدنا الاكبر بناء على أمر مولاى الملك ، فهل نستطيع مخالفة الامر »

قال : « كلا . بل أنا أحرضكم على الطاعة دائما » . قال ذلك وأعمل فكرته للمسارعة فى الامر خوفا من وصول فلورندا فى تلك

الساعة فقال : « انى خارج الآن معكم ، ولا حاجة بكم الى انتظار الصباح »

قال الرجل : « ما فى الامر يا مولاى ما يدعو الى هذا القلق . فلو مكثت فى منزلك شهرا ما مسسناك » قال : « بل أنا خارج الساعة . هلم بنا »

فأشار الضابط الى فرسانه اشارة يفهمونها ، فتجمهروا وأتوا بجواد ركبه أوباس وساروا به وهو فى وسطهم والكل سكوت لا يجسرون على التكلم فى حضرته . أما هو فكان فى أثناء الطريق يفكر فى الامر الذى ساقوه لاجله وقد عزم على الثبات والتعقل . غير أن ذهنه ما زال مشتغلا بفلورندا وخاف أن يلتقوا بها فى ذلك الطريق . فلما وصلوا بأوباس الى قصر الملك هم بالترجل فأشار اليه الضابط انهم مأمورون بسوقه الى مخفر بقرب القصر الى الصباح . وقال الضابط : « ولهذا السبب قلت لقداستكم أن تبقوا فى منزلكم الى الصباح لأننا أردنا بذلك المحافظة على راحتكم »

فاقتنع أوباس باخلاء الطريق لفلورندا ولوألحق بنفسه بعض العنف ريثما يلقى الملك ويرى ما يريد منه . فدخل غرفة فى بيت بجانب القصر ، والحرس بالباب ، فقضى بقية الليل يخطر فى تلك الغرفة ذهابا وايابا وهو يفكر فيما عسى أن يكون غرض الملك من القبض عليه ، وخطرت له خواطر كثيرة وتهم شتى ربما يتهمه رودريك بها ، وما كان يهتم بشىء أو يهاب الموقف لو أنه اطمأن الى نجاة فلورندا

وكان ينتظر طلوع الفجر وتبدد جيوش الظلام رغبة منه فى الاطلاع على سر هذه الدعوة . ولكن مضى بعض النهار دون أن يطلبه أحد فازداد قلقه فاستدعى رئيس الحرس وسأله : « وماذا عسى أن يكون آخر هذا الأسر ؟ »

فقال : « لا أدرى يا سيدى ، فعسى أن يكون خيرا . ولو عرفت سر ذلك ما أخفيته على سيادتكم »

قال : « انى فى حاجة الى منزلى ، فاذا لم يكن هناك ما يدعو الى سرعة المقابلة فليطلقوا سبيلى ، ثم اذا أراد الملك منى أمرا جئته »

فنظر الضابط الى أوباس وفى عينيه خبر يتردد بين كتمانه واظهاره ، فأدرك أوباس ذلك فيه فقال : « ما الذى تضمره ؟. قل »

فقال : « انك اذا ذهبت الى منزلك لا تجد فيه أحدا »

فبغت أوباس وقال : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « لانهم قبضوا على كل من فيه من الخدم والعبيد ، وهم فى السجن الآن وأبواب المنزل مقفلة ! »

فلما سمع أوباس قوله تحقق عزم الملك على الفتك به جهارا ، ولولا رزانته لبدت البغتة على وجهه . ومما زاد قلقه خوفه على فلورندا ، اذ تبادر الى ذهنه أنهم لم يقبضوا على أهل منزله الا لانهم رأوها فيه ، على أنه لم يبال بالامر بل نظر الى الضابط وقال بسكينة وتعقل : « لن ينفعهم ذلك شيئا » . ثم تحول الى الداخل فخرج الضابط الى مكانه

وكان ذلك الضابط ممن يعرفون فضل أوباس وعائلته ، ولكنه كان وأكثر رجال الدولة مسوقين مع التيار الاكبر ، يرون الحق ويقولونه ولكنهم لا يعملون به ـ شأن الدول فى انحلالها وتقهقرها ، فانها لا تخلو فى أثناء ذلك الانحلال من رجال عقلاء يشعرون بما أصاب دولتهم من الخلل ، وينتقدون أعمال حكومتها فيما بينهم وهم خارج المناصب ، ويزعمون أنهم لو أتيح لهم الوصول الى تلك المناصب لأدخلوا فى الحكومة اصلاحا كبيرا ، فاذا تولى أحدهم رأى نفسه مضطرا الى مجاراة التيار كما فعل أسلافه ، واذا حاول مقاومة عرض نفسه للخطر ، ويندر أن يطول بقاؤه على عزمه القديم وهو فى منصبه لعجزه ، وهو فرد ، عن مقاومة مجارى الاحوال ـ وهى انما بلغت تلك الدرجة من الانحطاط بتوالى الاجيال ، والبدن اذا بلى بالضعف من الهرم لا يرجى عوده الى الشباب ، الا أن يكون المصلح فى أكبر المناصب . فقد يأتى باصلاح ذى بال ولكنه يذهب بذهابه

وقد كان فى طليطلة كثيرون ممن يرون الخلل المنتشر فى الدولة ، ولكنهم لم يكن لهم سبيل الى مناصبها الكبرى . وأما صغار المستخدمين فليس لهم الا التذمر والكظم كما كان شأن ذلك الضابط

▭

جلس أوباس على أحد مقاعد تلك الغرفة ، واستغرق فى الهواجس حتى مضى بعض النهار . فلما رأى الخادم آتيا اليه بالطعام تحقق أن مكثه سيطول ، فزاد قلقه وأبى الطعام ورد المائدة ، واستقدم الضابط وقال له : « انى لا أستطيع طعاما قبل أن أعرف سبب هذه المعاملة ؟ »

فقال : « أرى يا مولاى أن تكتب كتابا أحمله الى مجلس الملك ، لعلى آتيك بالجواب الشافى »

فاستخرج أوباس من جيبه لوحا مشمعا كتب عليه بالمسمار

ما معناه « حملنى جندك الى هذا المكان بلا ذنب اقترفته . والملك يعلم أن رجال الكهنوت لا تجوز معاملتهم على هذه الصورة ، وانما هم تحت سيطرة الكنيسة . فلا أدرى سبب هذا السجن ، الا أن يكون ذلك من جملة ما تطرق الى حياة هذه الدولة ! »

فحمل الضابط الكتاب وسار به الى القصر ، ولم تمض برهة حتى عاد وهو يقول : « ان الاب مرتين داخل لمقابلة قداستكم »

فلم يسر أوباس لمقدمه الا على رجاء أن يستطلع منه سبب ذلك الاسر ، وقد علم انه آت بأمر الملك . فظل جالسا حتى دخل مرتين مهرولا وهو يتمتم كأنه يتلو بعض الادعية ، ووقف بين يدى أوباس فحياه ، وتظاهر بأنه يهم بتقبيل يده مراعاة لرتبته الكهنوتية ، فلم يبال أوباس بذلك بل ظل ساكتا . فجلس مرتين على كرسى تجاه المقعد وهو يبتسم

وبعد أن تنحنح الاب ومسح وجهه ولحيته غير مرة استعدادا للكلام ، قال : وهو يقطع الكلام قطعا : « قد بعثنى مولاى الملك لأبلغ قداستكم انه يعلم امتيازات الكهنة ، وانه لايجوز سجنهم أومحاكمتهم الا فى مجالس كهنوتية ، ولكنه انما أمر بالقبض عليك مؤقتا ريثما يلتئم مجلس الاساقفة وينظر فى أمرك »

فلما سمع أوباس قوله زاد استغرابا ولم يفهم المراد تماما ، لأن مجمع الاساقفة انما يجتمع مرة فى السنة أو مرتين ، ولا يجتمع فيما عداهما الا للنظر فى أمور غاية فى الاهمية ، كانتخاب الملك ، أوالبحث فى خطر يتهدد المملكة ، أو غير ذلك ، كما ان اجتماعه يقتضى مكاتبة أساقفة الاقاليم والمطارنة مما يستغرق أياما عديدة . فأطرق أوباس وأعمل فكرته فى هذا الامر ولم يجب

وكان الاب مرتين لما فرغ من قوله قد ثبت بصره فى أوباس ليستطلع ما يبدو منه ، وكان يتوقع استياءه وغضبه ليشفى ما فى نفسه . فلما رأى انه لم تظهر عليه علامات الاضطراب توهم ان ذلك ناتج من عدم ادراكه خطر ما يترتب على ذلك الاجتماع فقال : « ولا يخفى على قداستكم ان جمع الاساقفة يقتضى فى العادة زمنا طويلا ، ولكن نظرا الى مجىء أكثرهم الى طليطلة لتهنئة مولاى الملك بعيد الميلاد فلن يطول الانتظار فى جمع المجمع »

ثم أراد أن يلمح له بالتهمة الموجهة اليه فقال : « ويسوءنى ياصاحب القداسة أن تفرط منكم أقوال تدعو الى اساءة ظن الملك كما فعلتم فى مساء الامس . وهل كان يليق بمثلكم أن يهدد مولاى بالخلع مما لم

أكن لأصدقه لولا وجودى وسماعى اياه بأذنى ، وقد لمحتم بمثل ذلك أيضا فى كتابكم اليه الآن ! ؟ »

▭

فأدرك أوباس انهم يريدون محاكمته بتهمة سياسية ضد الملك ، فاستعظم التهمة ولكن باله استراح لوقوفه على حقيقة الخبر ، فلم ير فائدة من الكلام مع مرتين فى هذا الشأن ، علاوة على انه يشفى غله بذلك الكلام ، فوقف بهدوء ورزانة وقال : « صبرا الى يوم الاجتماع . وكأن رودريك لايريد أن يبقى عندى شك بقرب سقوط دولته فزادنى بعمله يقينا بدنو أجلها ! » . قال ذلك ومشى دون أن يترك للأب مرتين فرصة للجواب ، فنهض هذا وقال وهو يظهر الشفقة عليه : « ألا تزال تقول ذلك ؟ يا للعجب ! . كيف يطيعكم ضميركم على المؤامرة ضد الملك وسلطانه وحياته ، وأنتم تعلمون أن الكنيسة هى التى نصبته باجماع أساقفتها ؟ ! »

فأدرك أوباس انه يريد التطويل لمضاعفة التهمة عليه وشفاء غله ، فتركه يتكلم وتحول عنه الى نافذة تطل على الحديقة ، فلما رأى مرتين ذلك منه ضحك وهرول مسرعا نحو الباب ونادى الضابط وقال له : « يأمرك الملك أن تحتفظ بهذا السجين لأن أمره ذو شأن ، واحذر أن يفلت منك ! » . وخرج الاب مرتين ظافرا منتصرا لولا ما ساءه من رباطة جأش أوباس وتأنيه وصبره . أما أوباس فانه عاد الى اعمال الفكرة وباله ما زال مشغولا على فلورندا . فتذكر الفونس وخروجه بالامس لقيادة الجند ، فأراد الاستفهام عن مقره فعاد الى الباب واستدعى الضابط وسأله : « هل علمت بخروج الامير الفونس من طليطلة ؟ »

قال : « علمت ان فرقة خرجت من طليطلة بالامس ، ولا أدرى اذا كان الامير معها أم لا »

فترجح لأوباس ان الفونس سافر مع تلك الفرقة . ولكنه ظل مشتغل الخاطر بفلورندا لايدرى ما آل اليه أمرها ، وخاف أن تكون قد وقعت فى الاسر فى جملة أهل منزله ، وهم انما قبضوا عليهم من أجلها ـ وود لو استطاع استطلاع أمرها من أحد ، وحدثته نفسه أن يستفهم الضابط ولكنه خاف عاقبة ذلك ، ولم يغره ما بدا من انس الضابط وحسن معاملته لعلمه ان الذين يطابق ظاهرهم باطنهم قليلون ، وأقل منهم الذين يثبتون على عزمهم فيما تدعوهم اليه ضمائرهم ، فخاف ان هو كاشفه بحديث فلورندا أو تظاهر لديه

بالاهتمام بها أن يبوح بذلك لدى أحد فيتخذ حجة عليه ، مع ثقته فى اخلاصه وولائه

وهكذا قضى أوباس فى مخبسه بضعة أيام وهو ينتظر التئام المجمع . ولم يوفق الى سبيل للاستفهام عن فلورندا ولا اتفق له سماع شيء عنها

أصبح أهل طليطلة ذات يوم وقد دقت فيها النواقيس وزينت الشوارع ـ خصوصا الشارع الكبير المؤدى من قصر الملك الى الكنيسة الكبرى ـ واشتغل العبيد بكنسها وتنظيفها ، ووقف الحرس صفين بين القصر والكنيسة وفى أيديهم الحراب وعليهم الملابس الرسمية التى يلبسونها فى الاحتفالات الكبرى ، فتساءل الناس عن سبب ذلك وتقاطروا الى الشارع الكبير ، وتطاولوا من النوافذ وأشرفوا من السطوح يتوقعون مشهدا جميلا . !

وكان يوما صاحيا تجلت به الشمس على أبنية طليطلة ونهرها وبساتينها ، فلما كان الضحى عج الشارع بالضوضاء ، فالتفت الناس فاذا هناك فرقة من فرسان الحرس الملوكى بالملابس المزركشة قد خرجوا من قصر رودريك يأمرون المارة باخلاء السبيل لموكب الملك . وعلى بضعة عشر مترا وراءهم زمرة من الشمامسة بالالبسة الزاهية يتخللها الوشى المذهب ، بعضهم يحملون صلبانا قائمة على عمد ، والبعض يحملون الشموع ولكن قلما يظهر نورها لطلوع الشمس ، فضلا عن ان أكثرها طفىء بهبوب الرياح لأن طقس الشتاء فى طليطلة وان كان صافيا فانه لايخلو من الريح الهابة لوقوعها على جبل ، وبعضهم كان يحمل أغصانا من الزيتون ، وآخرون فى أيديهم المباخر يتصاعد منها البخور وهم يترنمون بأناشيد لاتينية . وبعد حملة الشموع فرس عليه رودريك بتاجه وحوله الاساقفة بملابسهم الرسمية ووراءهم المطارنة والشمامسة وغيرهم من رجال الاكليروس ، ووراء ذلك كوكبة من الفرسان . فلما رأى أهل طليطلة ذلك الموكب علموا ان الاساقفة قادمون للاجتماع ، ولكنهم استغربوا أن يقع ذلك فى غير موعده المعتاد

وكانت المجامع الدينية فى أسبانيا ثلاث درجات : المجامع الكبرى ، والمجامع الاقليمية ، والمجامع الابرشية . فالاولى تجتمع بأمر الملك فى طليطلة للنظر فى الامور المهمة المتعلقة بالمملكة كانتخاب الملك أو المصادقة على قانون أو نحو ذلك ، مثل اجتماعه فى ذلك اليوم للنظر

فى التهمة الموجهة الى أوباس . والمجامع الاقليمية تجتمع فى الاقاليم بأمر الاساقفة مرة أو مرتين فى السنة . والمجامع الابرشية يحضرها رؤساء الاديار والقسوس والشمامسة ونحوهم . فلما رأى أهل طليطلة موكب المجمع الاكبر فى غير أوانه خافوا أن يكون هناك ما يتعلق بحرب أو عزل أو تولية

أما الموكب فظل سائرا حتى وصل الى الكنيسة فتنحى الفرسان الى كل من الجانبين ، وانقسم الشمامسة بشموعهم وصلبانهم ومباخرهم الى قسمين ، دخل كل قسم من باب جانبى ، وترجل الملك والاساقفة والمطارنة ودخلوا من الباب الاوسط . وكان خدمة الكنيسة قد بكروا بتنظيفها ووضعوا المقاعد والكراسى فى الترتيب اللازم فى هذا الاجتماع ، وأناروا الشموع وفتحوا الابواب ، ووقفوا ينتظرون الموكب ويمنعون كل من أرادوا الدخول اذا لم يكونوا ممن يخول لهم حضور المجامع ، من أساقفة طليطلة والاقاليم المشتركة معها ، والمطارنة ورؤساء الاديار والشمامسة والخوارنة وكبار رجال البلاط الملوكى . فلما دخل الموكب الى الكنيسة اتخذ كل منهم مجلسه . وكانت المقاعد قد رتبت صفوفا متعاقبة جلس الاساقفة على الاولى منها بترتيب الاعمار ، ووراءهم الاساقفة الصغار بحسب الاعمار أيضا ثم القسوس وأمامهم الشمامسة واقفين ، وفى وسط القاعة أمام تلك المقاعد كرسى خاص بكاتب سر المجمع . وهناك عرش مزخرف أعدوه للملك ، وبين يدى العرش مقاعد لمن يشهد الاجتماع من خاصة الملك . أما الاب مرتين فكان المفروض لكونه قسيسا أن يجلس بين القسوس وربما كان فى مقدمتهم جميعا لكبر سنه ، ولكنه فضل الجلوس بجانب الملك لسبب لا يخفى

▭

ولما استقر كل واحد فى مجلسه أقفلت أبواب الكنيسة واستولى السكوت على تلك القاعة الكبرى برهة لاينطق أحد بكلمة . ثم تكلم رئيس شمامسة الكنيسة وهو جالس بجانب الهيكل فقال باللاتينية : (Oremus) أى « فلنصل » . فكان لقوله هذا صدى قوى ، اذ لم يكد ينطق بتلك اللفظة حتى خر الجمع سجدا على ركبهم ، وأخذ كل منهم يصلى لنفسه بصوت منخفض . ثم قطع صلواتهم أكبر الاساقفة سنا بصلاة قالها بأعلى صوته فأصغوا له . ولما فرغ منها صاح الجميع « آمين » . ثم قال رئيس الشمامسة باللاتينية : (Surgite fratres) أى « انهضوا أيها الاخوة » . فنهضوا وعاد كل الى

مجلسه . وعند ذلك افتتح الجلسة كاتب السر بتلاوة قانون الايمان (نؤمن باله واحد الخ) على نحو ما تقرر فى مجامع القسطنطينية ، ثم وقف شماس عليه ثوب أبيض ناصع ، وبين يديه كتاب ضخم على حمالة بجانب مجلس كاتب السر وقد فتح الكتاب فى مكان اختاره وكان الاساقفة وسائر الحضور ينتظرون ما سيتلوه ذلك الشماس ليعرفوا منه موضوع الاجتماع لأن ذلك الكتاب قانون المملكة ـ وكانت عادتهم اذا التأم المجمع أن يقرأ الشماس فقرات من ذلك القانون تتعلق بالغرض الذى اجتمعوا من أجله ـ فاذا هو يتلوا مواد متعلقة بانتخاب الملك وبمن يسعى فى افساد نيات الشعب عليه أو يتعمد خلعه ونحو ذلك ، فأدرك الجمع الغرض من ذلك الاجتماع على وجه التقريب

فلما فرغ الشماس من تلاوة تلك المواد وقف كاتب الجلسة ووجه خطابه الى الحضور قائلا : « ربما تستغربون ما تلوناه على مسامعكم والاحوال على ما يتراءى لكم هادئة : ولكننى أبلغ قداستكم اننا اجتمعنا للنظر فى تهمة موجهة الى أخ من اخواننا ـ وللأسف انه اسقف من الاساقفة ، ربما استغربتم عدم حضوره هذه الجلسة مع انه مقيم فى طليطلة ، ولا شك انكم عرفتموه » فلما قال الكاتب ذلك ضج الاساقفة وتهامسوا فى شأن أوباس ، وأكثرهم لم يستغرب اتهامه بخلع رودريك لما يعلمونه من علاقته بالملك السابق وطمعه فى الملك لأبنائه . ثم قال الكاتب : « وسنستقدمه ويقف بين أيديكم وقفة المتهم ، فاما أن يبرىء نفسه أو يجرى عليه القصاص »

فلما فرغ الكاتب من كلامه تكلم أحد الاساقفة الجالسين فى المقعد الاول وقال : « لابد لكل تهمة ممن يوجهها وممن توجه اليه ، وقد علمنا ان المتهم هو أخونا أوباس ، ولكننا لم نعلم من يتهمه بذلك ؟ »

فأجاب الكاتب : « انكم ستعلمون ذلك متى حضر »

فسكت الجميع وتربصوا ينتظرون قدوم أوباس وسماع محاكمته ، فانفرد أحد الشمامسة ومشى الى غرفة تستطرق الى باب سرى فتوجهت أنظار الاساقفة الى تلك الجهة ، ثم ما لبثوا أن رأوا أوباس داخلا بمشيته المعهودة وقامته المعتدلة وجلال محياه وهيبته ، وليس على وجهه شىء من دلائل الاضطراب أو الوجل . فلما وصل الى الساحة الوسطى أمام مجلس الاساقفة أجال نظره فيهم ثم التفت الى مجلس الملك ولم يعر الاب مرتين انتباهه كأنه لم يكن موجودا هناك ، ووقف وقفة قاض لا وقفة متهم !

وقف وهو ينظر الى من حوله نظره الى أناس ضعفاء ، فلم يهمه

عددهم ولاما فى أيديهم من السلطة النافذة ، خصوصا الملك لأن أوباس كان يعده غلاما غرا ، وزاد احتقارا له بعد ما عاينه من أمره مع فلورندا . والرجل الحر يقدر الناس بفضائلهم ، لابمناصبهم ، وان كان الناس قد تعودوا احترام أهل المناصب والغنى والنفوذ ، ولكنهم لايزالون فى باطن سرهم يفضلون رجال الفضيلة ، ولايعدون احترامهم لغيرهم الا تظاهرا ، خوفا من الظلم أو التماسا للنفع . على ان منهم من يبالغ فى اطراء أهل النفوذ حتى ينخدعوا بأنفسهم ويزداد ضررهم . فاذا كثر أولئك المتملقون فى بلاط ملك ضعيف اغتر بنفسه ، وانقاد لأهوائه وعمل بمشوراتهم وهم لايصلحون للشورى ، فتنحل الامور ، ويسود أهل الفساد ، وتؤول الاحوال الى الدمار والعياذ بالله !

وكان أوباس ممن لايذعنون الا للحقيقة ولايخيفه الا الخروج عن جادة الحرية . ولم يكن يشعر انه حى لنفسه رغبة فى الحياة الدنيا أو طمعا فى مناصبها أو ملاذها . ولكنه كان يرى نفسه منذ اعتزل العالم وانتظم فى سلك الكهنة انه انما يعيش عبدا لمبدأ يراه مجسما فى مخيلته ، ويستغرب تغافل الناس عنه — كان يرى نفسه أسيرا للحق ، عبدا للحقيقة وحرية الفكر ، لايعرف المداهنة ولا المراوغة — فلا تعجب اذا رأيته واقفا فى ذلك المجلس غير هياب ، وهو يرى الحق أعظم منهم وأشد هيبة .. فلما وقف الكاتب ووجه خطابه نحوه قائلا : « أبلغ سيادتكم اننا استقدمناكم الى هذا المجمع لتهمة موجهة اليكم ، يتمنى كل واحد منا أن تكون باطلة فتبرأ ساحتكم . انكم متهمون بالمؤامرة على خلع الملك . ولا يخفى على سيادتكم ان مثل هذه التهمة لا تمس الملك فقط ، بل هى تتناول هذا المجلس كله ، لأنه هو الذى انتخبه وأقره »

وكان الاب مرتين فى أثناء كلام الكاتب شاخصا بعينيه ، متطاولا بعنقه ، فلما سمعه يقول ذلك أشار باطباق جفنيه وهز رأسه ان « أحسنت ! » لأنه حسب ذلك يزيد نقمة الاساقفة وسائر أعضاء المجمع على أوباس الذى لم يعبأ بما يبدو من أحد ، فلما فرغ الكاتب من كلامه استولى السكوت على الجلسة وتطاولت الاعناق لسماع ما يقوله أوباس فاذا هو يقول بصوت هادىء : « سمعت كلامك وما تقوله من أمر اتهامى ، ولكنى لا أجيب عنه قبل أن أعرف الرجل الذى يتهمنى »

فالتفت الكاتب نحو الملك وحنى رأسه كأنه يقول : « جلالة الملك نفسه ! »

فقال أوباس : « وما هى أدلته على هذه التهمة ؟ » فلم يسع الكاتب الا الالتفات الى رودريك كأنه ينتظر جوابه على قول أوباس . فأشار الملك الى الاب مرتين أن يجيبه ، فوقف مرتين وقد نسى التأنى ورباطة الجأش وعاد الى فطرته العجولة . فلما رآه الاساقفة يهم بالكلام أصاخوا بأسماعهم لما يقوله لئلا تفوتهم ألفاظه بالتمتمة فلا يفهمون مراده ـ وعلى جوابه سيبنون حكمهم ـ فقال : « أتطلب الادلة على ثبوت التهمة عليك وكل القرائن تؤيدها ؟ » يكفى أنكم منذ كان الملك السابق حيا لا تزالون تسعون فى خلع طاعة الكنيسة الكاثوليكية والرجوع الى الاريوسية ، وقد كان تنصيب جلالة الملك ضربة كبيرة عليكم جميعا ، فأخذتم تبذلون كل مرتخص وغال فى مقاومته ولكنه مؤيد من الله والكنيسة ! . ومن عجيب أمرك انك تطلب الشهادة على صدق قول جلالته » . ولم يبلغ الى هنا حتى تعبت آذان الحاضرين من كلامه المتقطع ، فالتفت أوباس الى الحضور وهو يبتسم ، وقال : « بل من العجائب استغراب طلب الدليل على تهمة موجهة نحو أسقف يحمل جسد الله بين يديه ، تهمة أقل ما يقال فيها انها مختلقة ! . نعم مختلقة ولو قالها الملك ، لأن الحق فوق الملوك والاساقفة . ثم لا أدرى ما الذى يسوغ هذه التهمة ؟ ! وكيف يقال انى تآمرت على خلع هذا الملك ؟ ! فمع من تآمرت ؟ وأين ؟ وكيف ؟ وهل تكون المؤامرة أو التواطؤ الا بين جماعة ؟ فمن هم رفقائى فى التهمة ؟ انه قول غير معقول . ولست أقول ذلك فرارا من العقاب لأن العقاب لايهمنى ! »

فلم يصبر الملك عن جوابه بنفسه ، فقال وقد حملق عينيه وقطب حاجبيه : « يا للعجب من هذه الوقاحة ! . كيف تنكر ، وقد سمعتك بأذنى هذه تهددنى بقرب انقضاء هذه الدولة ، وانه يهون عليكم اخراج الملك من يدى ؟ هل تنكر ذلك وقد سمعه الاب مرتين أيضا ؟ فهل من دليل أوضح من هذا ؟ ! »

وكان الاساقفة ميالين الى التصديق لأسباب منها ان أكثرهم يكرهون أوباس لحرية ضميره وشدته فى الحق ، ولأنه قوطى . ناهيك بالقرائن التى تساعد على ثبوت التهمة ، لأن أهل طليطلة كلهم يعرفون كره بيت غيطشة أجمعين لرودريك وكل من يقول بقوله ـ خصوصا الاساقفة ـ لبواعث تقدم بيانها . فلما سمعوا شهادة الملك نفسه وشهادة قسيسه مالوا الى الحكم على أوباس . وزد على ذلك انهم كان يمكنهم الحكم عليه بدون محاكمة ، ولكنهم اجتمعوا ذلك

الاجتماع ليقضوا به شبه واجب عليهم . فلما فرغ الملك من كلامه وجهوا أبصارهم نحو أوباس ليسمعوا قوله ، فرأوه لايزال على ثباته ورباطة جأشه . وقبل أن يشرع فى الجواب اعترضه أحد الاساقفة قائلا : « انى لأعجب من نقمة بعض رجال القوط على تنصيب جلالة الملك ، وتنصيبه انما كان بالانتخاب على مقتضى قوانين الدولة والكنيسة . والذين يدعون الحق لأبناء غيطشة أو غيره من أعضاء عائلته فى الملك انما هم مخطئون . لأن الملك فى أسبانيا الآن انتخابى كما لايخفى على سيادتكم ، ولا يجلس على هذا العرش الا الذى ينتخبه هذا المجمع المقدس . فهل تنكرون أن جلالة الملك منتخب على هذه الصورة ؟ »

فلما سمع أوباس ذلك أدرك انهم يحاولون ايقاعه فلم يبال بل قال وقد وجه خطابه الى الاسقف : « ان هذا السؤال يا حضرة الاسقف خارج عن موضوع التهمة ، ومع ذلك فانى أجيبك عنه . نعم ان هذه المملكة أكثر ممالك أوربا خضوعا للكنيسة ، وأساقفتها هم الذين ينصبون الملك كما ذكرت ، ولا أنكر أن جلوس هذا الملك كان بانتخاب هذا المجمع فانتخابه كان قانونيا ، وان كنت لا أعتقد أن المجمع توخى كل الطرق القانونية بنقل الصولجان من الملك المرحوم اليه مما لا أخوض فيه الآن . ولكنى لا أخفى عليكم أيها السادة اننى أرى الكنيسة قد تمادت بسلطتها فى هذه المملكة دون سائر الممالك حتى تجاوزت حدها ـ أقول ذلك وأنا من أعضاء الكنيسة ، ولا أظن أحدا منكم يقول هذا القول ولو كان يعتقده ، لأنه يغاير مصلحته ! »

وكان الاب مرتين لما سمع تعريض أوباس بالمجمع فى الانتخاب أشار الى الكاتب أن يدون ذلك القول أمامه ليطالبه به ، ففعل . أما الاسقف الذى كان الكلام موجها اليه فأجاب قائلا : « يظهر انك تنكر فضل الكنيسة على المملكة ، وهل يخفى عليك ان الكنيسة الكاثوليكية هى التى حفظت النظام والتمدن فى هذه القارة . وقد جاء أجدادكم الجرمان على اختلاف قبائلهم ـ وأكثرهم وثنيون ـ فتغلبوا على المملكة الرومانية وتفشوا فى مدنها قبائل رحلا لاعلم عندهم ولا تمدن ، فجمعتهم الكنيسة فى أحضانها وهذبت أخلاقهم وجعلتهم أمما وممالك ، وهى التى حفظت لهم العلم والحكمة ، وهى التى دربتهم فى كل شؤونهم السياسية والادارية ، ولولاها لكانت أوربا فوضى لا علم فيها ولا نظام »

فهم أوباس بالجواب ، ولكن الكاتب دق جرسا أمامه اشارة الى

التماس السكوت ، فسكتوا والتفتوا فرأوا الملك يهم بالكلام فأصغوا . وقال الملك وهو جالس على عرشه وصدره يتقدمه وشعره مرسل الى كتفيه من تحت تاجه : « لاحاجة بنا الى الخوض فى مسائل لا علاقة لها بالموضوع . يكفى ما قد سمعتموه من كلامه الآن من استهجان أعمال المجمع فى انتخاب الملك ، وانكم لم تنتخبوه بطرق قانونية . فمن يصرح بمثل ذلك فى مجلس القضاء هل يستغرب اتهامه بالمؤامرة »

فالتفت أوباس الى رودريك قائلا : « لا علاقة أيها الملك بين استحسانى الانتخاب أو استقباحه ، وبين مؤامرة تزعمون انى عقدتها لخلعكم ـ نعم انى أشك فى الطرق القانونية التى اتخذت فى الانتخاب ، ولكننى لم أبن عليها مؤامرة كما هو اعتقادكم »

فاعترضه الاب مرتين قائلا : « وكيف لا يعتقد جلالته ذلك وقد سمعه من فيك كما سمعته أنا . . ؟ يا للعجب ! » . قال ذلك والتفت الى الملك وقال : « يظهر ان أمر المجادلة طال ، بينما التهمة صريحة واضحة »

فالتفت الملك الى الاساقفة وقال : « قد سمعتم ما قاله أوباس ، فاما أن يكون الملك رودريك تنصب على طليطلة بغير حق ، واما أن أوباس هذا قد لبس ثوب الكهنوت بدون استحقاق » . قال ذلك وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما حتى لقد نزل من فوق عرشه ومشى وهو لايفقه ، ثم عاد الى كرسيه وجلس بعنف ففهم أوباس انه يعرض بتجريده من رتبته الكهنوتية قصاصا له فقال : « لا تظن هذا التهديد يضعف عزمى فى قول الحق ، لأنى لست أستقفا بهذه الثوب ، ولا أنت ملك بهذا التاج ، وانما الاعمال بالنيات . ومهما أردتم بى من القصاص فذلك لايقلل شيئا من اعتقادى ، ولكنه يزيد ذنبك يا رودريك أمام الديان العظيم لأنه سبحانه وتعالى يعلم السبب الذى من أجله نقمت على وسقتنى الى هذا المجمع . وأنت تعلم وهذا الاب المحترم أيضا يعلم السبب الذى نقمتما من أجله حتى سقتمانى الى هذا الموقف ، وما أنا هائب موقفا أرانى فيه محقا ولو لم ينصفنى الناس ، فان الله نصيرى وهو يعلم ما فى القلوب »

فلما سمع الملك تعريضه بحديث فلورندا خاف أن يحرجوه فيصرح به ويذكر اسمها وحكايتها ، فتظاهر بالغضب ووثب من مجلسه وصاح فيه : « ويلك . ؟ أبمثل هذا الكلام تخاطب ملك الاسبان ؟ ! » . ثم التفت الى المجمع وقال لهم : « اذا كنتم صابرين

على أقواله فها انى أخلع نفسى أو هو مخلوع من ساعته .. ! »

فقال أوباس وهو لايزال رابط الجأش : « لابأس أيها الملك اذا أنا خلعت هذا الثوب ، غير أن ذلك لايغسلك من الرجس الذى تعمدت الانغماس فيه ، ومن أجله سمعت توبيخى ، فساءك الحق وثقل عليك ، فأردت الانتقام منى . ولكن الله ولى النقمة ! »

فقاطعه رئيس الاساقفة قائلا : « أدعوك يا حضرة الاسقف باسم الكنيسة أن تسكت » فلم يسع أوباس غير الاذعان ، واستولى على الجلسة السكوت برهة والكل مطرقون ، وربما تهامس البعض بكلام لايسمع له طنين . وكان الاب مرتين فى أثناء ذلك يجيل عينيه فى الاساقفة يتصفح ما يبدو فى وجوههم ، فاذا وقعت عينه على عين أحدهم أشار بحاجبيه وشفتيه اشارة الاستهجان وهو يومىء الى أوباس

أما هذا فكان واقفا وقوف رجل برىء الساحة ، واسع الصدر ، يرسل بصره الى الاساقفة بلا اشارة ولا ملاحظة ، ولكن يظهر من سكون جأشه وما يتجلى فى وجهه من الهيبة انه غير مبال بما قد يكون من عاقبة تلك المحاكمة ، لاعتقاده انه سيق اليها زورا وبهتانا ـ على انه تذكر ما دار بينه وبين الفونس قبل سفره ، وما تواطأ عليه من أمر الملك ونحوه ، فرأى التهمة تصدق عليه من هذا الوجه ، ولكنه راجع ما صدر من أقواله فى تلك الجلسة فلم ير فيها ما يمنع انكاره حق الملك على رودريك ـ وفيما هو يفكر فى ذلك وقعت عينه على صورة كبيرة معلقة فى بعض جدران الكنيسة تمثل السيد المسيح واقفا بين يدى بيلاطس للمحاكمة ، فتذكر قبوله الصلب دفاعا عن الحق ، فزاد استمساكا بموقفه !

أما رودريك فكان قد عاد الى كرسيه ، ولما رأى المجلس ساكتا خاف أن يعودوا الى البحث فيما وجهه اليه أوباس من تهم فالتفت الى رئيس الاساقفة وقال وهو يظهر الهدوء كمن له سلطان أن يدير آراء المجمع كما يشاء : « لقد كفانا ما سمعناه ، واذا رأيتم المسألة تحتاج الى نظر بعد كل ما بدا لكم من الادلة الصريحة ، فانى أحل هذه الجلسة ونؤجل البحث الى جلسة أخرى »

فوقف الاب مرتين وقال بلهجته المعلومة موجها خطابه الى رودريك : « لا يتبادر الى ذهن جلالة الملك من سكوت أعضاء المجمع انهم يشكون فى نطق جلالته ، أو يخامرهم أدنى ريب من ثبوت التهمة على أوباس بعد الشهادة الصريحة التى أدليتم بها جلالتكم ولم

ينكرها هو . بل أيدها بما فرط منه من العبارات الصريحة التى تدل على غضبه من هيئة الحكومة الحاضرة وممن كان السبب فيها ، كأنه قال بصريح العبارة : « ان هذا المجمع قد خان البلاد بانتخابه جلالة الملك . . ! »

فلما سمع أوباس قوله وما فيه من اثارة الخواطر عليه وجه خطابه الى رئيس الاساقفة قائلا : « قد سمعتم ما قاله الاب مرتين ، ولا أضمن انكم فهمتموه ، وكأنى بكم تتوقعون انكارى ذلك خوفا من العقاب . كلا . انى أشك فى قانونية انتخاب هذا الملك كما قلت لكم ، ولو خيرت ربما اخترت سواه . وأما الدعوى التى سقتمونى من أجلها الى هنا فما هى فى شىء من ذلك . ان رودريك هذا الذى تسمونه ملكا انما جمعكم لمحاكمتى واتهمنى هذه التهمة لأنى نصحت له أن يرجع عن فظيعة هم بارتكابها . ولولا خوفى من تدنيس هذا المكان المقدس بذكرها لكشفت القناع عنها ، ولو فعلت ذلك وأنصفتمونى لباشرتم رجم هذا الجانى بأيديكم ! »

فضج المجمع ، وهاج غضب الملك ، وخاف زيادة التصريح فتظاهر بالانفعال الشديد والاستغراب ولم يدر ماذا يقول ، فأنقذه الاب مرتين من تلك الورطة بقوله يخاطب كاتب الجلسة : « يرى مولاى الملك ان أخانا الاسقف قد تهور فى أقواله وخرج عن طوره الى الخلط والهذر ، كأنه جن لفرط ما خافه من سوء العاقبة فلم يفقه ما يقول ، ولذلك فمولاى الملك يأمر باقفال الجلسة حالا وتأجيل المحاكمة الى جلسة أخرى . ولا يجوز بعد صدور هذا الامر أن يفوه أحد فى هذه الجلسة بغير الصلاة الختامية »

فنزل كلام الاب مرتين بردا وسلاما على رودريك ولم يسع الكاتب الا العمل بالاشارة لأن للملك الحق فى فتح الجلسة ورفعها دون سواه . ولم يكترث أوباس بذلك بعد أن قال ما قاله ولو بالتلميح ، ثم وقف رئيس الاساقفة فتلا الصلاة الختامية ، وانفضت الجلسة فخرجوا الى منازلهم الا أوباس ، فانهم ساقوه تحت الحفظ الى مخفر آخر وأوصوا الحراس أن يحتفظوا به

— ٦ —

فلنترك أوباس وشأنه ولنعد الى الفونس وما كان من أمره بعد ذهابه بأمر الملك . فقد خرج من منزله ومعه يعقوب وسارا الى مقر

المعسكر فى بناء كبير بضواحى طليطلة وحولهما الفرسان الذين جاءوا بأمر الملك فأوصلوهما الى المعسكر وعادوا . فلما دخل الفونس استقبله الجند بالاحترام فترجل ومشى ، ويعقوب يسير بين يديه وليس معه من الخدم سواه وقد استغربوا منظره بما ذكرناه من اهماله لحيته وأثوابه ، حتى وصلوا الى غرفة خاصة بالقائد الكبير فاذا هو بخادم واقف هناك وبيده كتاب عرف الفونس من منظره الخارجى انه من الملك ، فخفق قلبه لفرط ما غاظه الكتاب الماضى ، فدخل ولم يطلبه حتى جلس فى صدر الحجرة فاستأذن الرسول من يعقوب بالدخول على الفونس فاستأذن له ، فقال لاحاجة الى دخوله هات الكتاب منه ، فأخذه منه وجاء به الى الفونس وهو يقول : « لا تغضب يا سيدى ، لعل فيه أمرا بالرجوع الى منزلك »

فتناول الفونس الكتاب وفضه دون أن يتكلم فاذا هو من الملك يقول فيه :

« من رودريك ملك القوط الى القائد الباسل الفونس

« باسم الاب والابن والروح القدس

« أما بعد : فقد سبق أن كتبنا اليك بالذهاب الى كونتية .. ولم نعين لك المدينة التى تنزل فيها فانزل مدينة استجة Astgia من كونتينة بتيكة وأقم برجالك فى احدى القلاع ريثما أكتب اليك بالجهة التى تذهب اليها ـ وقد أرسلت اليك مع هذا كتابا تدفعه الى كونت بتيكة ليتلقاك بالترحاب ويمدك بالمال عند الحاجة والسلام . كتب فى قصر طليطلة »

فلما فرغ الفونس من قراءة الكتاب أمر يعقوب أن يأتيه من الرسول بالكتاب الآخر فجاءه به ودخل عليه وأغلق الباب وراءه وقدم له الكتاب وهو يتفرس فى وجهه . فلما رأى ما فيه من الانقباض واليأس أراد التخفيف عنه فعطس عطسة ارتج لها ذلك البناء فانتبه الفونس ونظر الى يعقوب فاذا هو ينظر اليه ويضحك ويهز رأسه ويحك ذقنه بأنامله ، فاستغرب الفونس ذلك منه وكاد ينتهره لو لم يسبق الى ذهنه ما آنسه من احترام عمه أوباس له واعتماده على أقواله ، وتذكر السر الذى توسمه فى سيرته فابتسم له وقال : « ما الذى يضحكك يا يعقوب ؟ هنيئا لقلبك ! » قال ذلك وتنهد ، فتنهد يعقوب وقال له : « بل هنيئا لك أنت كيف تخدمك السعود على أهون سبيل! »

فهز الفونس رأسه وقال : « تبا لهذه السعود ، دعنى وشأنى ! » قال ذلك ونهض وهو يقول : « لا يليق بنا الاستتار هنا ونحن مأمورون

بالذهاب الليلة ، ولابد لى قبل كل شيء من استدعاء القواد وابلاغهم الامر بالاستعداد ، فامض الى قائدى الخمسمائة واستقدمهما الى »

وكان الجند الاسبانى فى عهد القوط مؤلفا من فرق ، كل فرقة ألف جندى يسمى قائدها رئيس المعسكر ، تحته قائدان كل منهما يرأس خمسمائة تقسم الى مئات اسم قائد كل منها قائد المائة . فالقائد العام يبلغ أوامره الى قائدى الخمسمائة وهما يتوليان تدبير الجند .. فخرج يعقوب ثم عاد وأخبر الفونس ان القائدين قادمان ، ثم جاءا وقد لبسا لباس السفر ، وشعرهما مثل شعور سائر القوط مسترسل على أكتافهما ودلائل الصحة بادية على وجهيهما وملامح النعم فى قيافتهما . فلما دخلا سلما على الفونس باحترام وهما يعرفانه منذ كان أبوه حيا ويحترمانه من أجل ذلك ، وقد سرهما توليه قيادة تلك الفرقة لما يعلمانه من حميد أخلاقه وطيب عنصره . وكانا من أهل الغيرة على عصبية القوط ، لم يرضيا برودريك الا مع الجماعة ، فاذا خلوا تحدثا بما كان من تحول النفوذ الى العنصر الرومانى بعد تولى رودريك ولكنهما لم يكونا يجسران على التصريح بذلك بين يدى أحد ، حتى ولا الفونس نفسه لأنه أصبح مثلهم فى ذلك . فلما رآهما الفونس تذكر انه شاهدهما من قبل ، ولكنه استغرب تأهبهما للسفر قبل أن يصدر لهما الامر بذلك فقال : « أراكما بلباس السفر ؟ »

فتكلم أحدهما واسمه « ومبا » ـ وكان طويل القامة شديد سواد العينين والشعر ـ وقال : « لقد وردت الينا الاوامر بذلك من جلالة الملك تعجيلا للرحيل ، فالجند الآن كله على أهبة السفر ، انما يحتاج الى أمر من مولاى الفونس »

فلما سمعه يذكر اسمه استأنس به ، وشعر براحة اليه وقال : « نقلع من هذا المعسكر الآن فأرجو أن تتوليا تدبير الجند فى قيامه وقعوده الى أن نبلغ مقصدنا »

فأشارا باحناء الرأس أن « سنفعل » ثم تكلم ومبا وكانت له جسارة وتقدم على رفيقه وقال : « ألا ينبئنا مولاى عن الجهة التى نحن ذاهبون اليها ؟ »

قال : « اننا ذاهبون الى استجة على نهر السنجيل فى كونتية بتيكة . فهل تعرف الطريق اليها ؟ »

قال : « أعرفها جيدا فان الطريق اليها نحو الشمال بغرب الى مريدة على نهر اناس ، فنقطعه ونسير شمالا بشرق الى قرطبة ، ثم

ننحدر الى استجة على نهر السنجيل . وقد عرفت هـذه المدينة وصليت فى كنيستها ، وأقمت فى قلعتها وعبرت جسرها وعرفت أديارها وأسواقها »

قال الفونس : « بورك فيك ، لقد ألقيت الامر اليكما فى تدبير هذه الحملة فى أثناء المسير ، ولكننى أوصيكما بأمر يهمنى كثيرا ، وذلك اننى لا أريد أن يعتدى الجند فى أثناء الطريق على أحد من الفلاحين ولا أن يأخذوا لأحد مالا أو زرعا أو يسيئوا معاملة أحد . فاذا فعل أحد ذلك كان جزاؤه عندى الجلد أو القتل ، واذا كان من أرباب الرتب جردته من رتبه وأملاكه وأهنته ، فانى أريد أن يسير هذا الجند بكل هدوء وسكينة »

فلما سمع ومبـا ذلك ظهر الاعجاب فى عينيه البراقتين وقال : « بورك فيك وفى أصل أنت فرعه ، لقد عودنا المرحوم أبوك مثل هذا العدل والرأفة »

فلما سمع قوله عض على شفته وأطرق كأنه يقول له : « ليس هذا وقت التصريح » ثم أتم كلامه قائلا : « وآمر الـكهنة المرافقين لهذه الحملة أن يوصوا الجند بهذه الوصايا . ولا يخفى عليكم ان جندنا أكثر ما يحسنون الحرب مشاة فلا تتعبوا المشاة بالمسير ولا تحملوهم أحمالا ثقيلة . ويكفيهم مايحملونه من الدروع والاسلحة »

فلما فرغ الفونس من كلامه لم يزد ومبا على اشارة الطاعة ثم قال : « ألا يأمر مولاى بحاشية من الاعوان والموالى تسير فى خدمته الخاصة »

فأراد الفونس أن يصرح له بالتخفيف عن الموالى ، ولـكن وقعت عينه على يعقوب فرآه يشير اليه اشارة خفية ألا يفعل ، فانتبه وقال : « لا أحتاج الآن الى أحد فان معى خادمى هذا ، وهو يدبر لى ما أحتاج اليه واذا احتجت الى سواه طلبت »

فخرج القائدان فرحين بمرافقة الفونس . أما هو فلما خلا بيعقوب قال له هذا : « خفت أن يسبق لسانك الى قول تؤاخذ عليه ونحن بين يدى الاعداء ، واعلم يا مولاى انك موفق باذن الله لأن الامر الذى كنت لا تستغنى فى الوصول اليه عن بذل الاموال واستخدام الرجال قد وصلت اليه عفوا »

قال : « وماذا تعنى ! ؟ »

قال : « أعنى ان المشروع الذى أسسته مع مولاى الميتروبوليت لقهر ذلك العدو الحاكم قد أتيحت لك فرصة الشروع فيه منذ الآن . هذه فرقة من الجند الآن تحت أمرك فقربها منك وحببها اليك ببذل

المال .. المال .. ! » قال ذلك وتلمظ كأنه يتلذذ بطعام شهى ! فقطع الفونس كلامه وقال : « ومن أين لنا المـال يا يعقوب ؟ » . فوضع يعقوب كفه على صدره وحنى رأسه وأطبق جفنيه ولسان حاله يقول : « المال عندى وعلى احضاره »

فتذكر الفونس مثل ذلك الوعد بين يدى أوباس فى ذلك الصباح فتاقت نفسه الى استطلاع سر هذا الرجل فقال : « لقد أذكرتنى وعدك السابق ، ولا يخفى عليك انى شديد الميل الى معرفة حقيقة أمرك ! »

فتحول وجه يعقوب الى الجد مع بعض الانقباض وقال : « يأذن لى مولاى بتأجيل ذلك الى وقت آخر . وأما المال فانى سأبين له سبيل الحصول عليه بعد وصـولنا الى استجة ، والامور مرهونة بأوقاتها . طب نفسا وقر عينا ، وكن على يقين انى على قبح خلقتى وقذارة ظواهرى لا أخلو من حسنات نافعة ! والآن لابد لنا من الركوب لأنى أسمع قرع الطبول ايذانا بالمسير »

قال : « الى بالفرس فاركبه وتول أمر الخدم وتدبير ما قد نحتاج اليه من الاطعمة ونحوها فانك نائب عنى فى كل ذلك ، ولا تدع أحدا يأتى الى من الخدم »

فخرج يعقوب وأحضر فرسـا من أحسن أفراس الحملة وعليه سرج ثمين ، وكان الفونس بلباس القواد وقد زينه شبابه وجماله . وقبيل الغروب أذن بالرحيل فأقلعت الحملة مارة قبل خروجها من ضواحى طليطلة بمرتفع يطل على المدينة ، وهى واقعة على مرتفع آخر ، فالتفت اليها الفونس وقد بدت فيها الكنيسة الكبرى ، ولما وقعت عينه على قصر فلورندا خفق قلبـه خفوقا سريعا وهاج به الوجد ، وتذكر ما كان من لقائه اياها فى ذلك الصباح وما آلت اليه حاله فى المساء ، ونظر الى السماء والغيوم تتكاثف وتتلبد أشبه بما يتكاثف على قلبه من سحب الهيام والشوق ، وخيل له ان الطبيعة تشاركه فى ذلك الشعور ـ والمرء مفطور على تطبيق حوادث الطبيعة على ما يوافق شعوره ، وتفسيرها بما يلائم اعتقاداته وأوهامه ـ فلا غرو اذا توهم الفونس ان السماء تجهمت شعورا بفراق حبيبته

ولم تغب الشمس حتى أظلمت الدنيا وتساقطت الامطار وهبت الرياح ولم يعد المسير ممكنا لهم ، فأمر الفونس بالنزول هناك فنصبوا الخيام وفى جملتها خيمة له نصبوها حالا وجاء يعقوب فاستدعاه اليها ودخل هو معه . وكانت ليلة شاتية قاسى فيها الفونس من هول

الوحشة والشوق مثل ما قاسته فلورندا فيها من العذاب ، وهوغافل عن حاله لاعتقاده انها على موعد منه ليأتى لانقاذها فى ذلك المساء وقد وكل بذلك عمه أوباس

فلما دنا الوقت المعين لانقاذ فلورندا تصورها الفونس خارجة من قصر رودريك مع اجيلا وشنتيلا فى القارب الى منزل أوباس ، وتوهم انها أصبحت فى مأمن هنـاك ريثما يبعث بها اليه حيثما يكون . ثم تذكر بغتة ان أوباس لا يعلم المكان الذى هم ذاهبون اليه ، فانتبه للسبب الذى من أجله غير الملك خطة مسيره ، والتفت الى يعقوب وكان جالسا فى بعض جوانب الخيمة وقد تزمل بقباء كثيف وتلملم وتجمع من شدة البرد ، والرياح تهب والرعود تقصف ، وقال له ولم يحاذر أن يعلو صوته لعلمه بانشغال الآذان بقصف الرعد عن سماع حديثهما :

« هل علمت السبب الذى من أجله غير الملك خطة مسيرنا ؟ ! »

فرفع يعقوب رأسه وقال ولحيته ترتعش من البرد : « أظننى عرفت وعرفت أشياء أخرى ، لولا البرد الشديد لكنت أقصها عليك »

قال : « وماذا عرفت . قل لى واذا كنت تشكو البرد فاليك بقدح من الخمر يدفئك » . قال ذلك وأشار الى « خرج » كان فى الخيمة ويعقوب يعرفه ثم قال : « واعطنى قدحا فأشربه أنا ، فان مثل هذا الليل لايذهب وحشته وبرده الا الخمر ! »

فتشدد يعقوب ووقف وأسنانه تصطك حتى ليكاد يسمع الفونس صوتها . ومشى حتى استخرج الوعاء وصب منه الخمر فى قدح من الفضة كان هناك ، ودفعه الى الفونس فشربه ، وتناول قدحا آخر صب فيه لنفسه وشرب ، ثم صب قدحا آخر لألفونس وآخر لنفسه ، حتى اذا دبت الخمر فى عروقه فأذهبت ارتعاشه ملأ القدح وتناوله ووقف بين يدى الفونس ورفع يده والقدح فيهـا وهو ينظر الى ما حوله كأنه يحاذر أن يراه أحد وقال : « قد توهم رودريك انه خدم غرضه بارسالنا الى استجة ، وفاته انه يخدم غرضنا اذ لابد لنا من الذهاب الى هذه المدينة للمشروع الذى نحن عازمون عليه »

فاستغرب الفونس قوله وضجر من الاحجية والالغاز وقال له : « لقد أضجرتنى يا يعقوب من اشاراتك وألغازك ! لماذا لا تصرح لى بما فى نفسك ؟ »

فانقلب وجه يعقوب الى الانقباض وقال : « قلت لمولاى ان موعدنا فى ذلك قريب ان شاء الله ، وأرجو أن لايلح على فى الامر فان الالحاح مضر . اصبر يا مولاى وسأطلعك على كل شىء قريبـا . واعلم ان

رودريك هو الذى عجل كشف هذا السر بارسالنا الى هذه المدينة . وما أظن ثورتها الا من أمثال ما يحدث كل عام بين الرعايا المظلومين . ولا أخفى على مولاى ان أهل هذه البلاد فى غاية الضنك من استبداد حكامهم ، وكانوا يشكون ضغط الرومان عليهم ، فلما جاءهم القوط توهموا فيهم النجاة من نير الرومان فاذا هم تحت النيرين معا ، وقد أصبحوا أرقاء لاحرية لهم ولا منزلة ، ولا عقار ولا مال . فلما عاينوا ضعف هذه الدولة كثر تمردهم وهياجهم ، وقد سهل هـذا الامر عليهم خطأ ارتكبه ملوك القوط المتأخرون مع جماعة اليهود فأكرهوهم على نبذ ديانتهم واعتناق النصرانية فأصبح اليهود عونا عليهم »

فقطع الفونس كلامه قائلا : « ولكن اليهود قد انقرضوا من أسبانيا الآن ولم يبق فيها يهودى كما لا يخفى عليك ! »

قال : « أعلم ذلك يا مولاى ، وأعلم أيضا ان ملوك القوط قبـل المرحوم والدك شـددوا فى اضطهاد اليهود وخيروهم بين القتل أو النصرانية أو المهاجرة ، فهاجر بعضهم وتنصر البـاقون ، فاختفت اليهودية ولكنها لم تندثر ! » . ثم التف بعباءته وهو يقول : « أرانا خرجنا من الموضوع قبل الاوان ، وخلاصة الامر أن المهمة التى نحن ذاهبون فيها مهما يكن من أمرها فانى ضامن اخمادها بدون أن نجرد سيفا أو نرمى نبلا » . ثم تحول الى مجلسه الاول وهو يقول : « وقد آن وقت الرقاد ، ألا يرغب مولاى فى ذلك ؟ »

فابتدره الفونس قائلا : « وقبل الذهاب الى النوم اسقنا كأسـا أخرى واشرب مثلها »

وناما تلك الليلة نوما عميقا برغم تساقط الصواعق وهبوب الرياح . وصحا يعقوب مبكرا وخرج لاعداد ما يحتـاج اليه الفونس ، ولم تشرق الشمس حتى كانوا على أهبة الرحيل ، فقوضوا الخيام وركبوا على نظامهم ، والفونس ويعقوب سائران على انفراد وهما صامتان . وبعد هنيهة عبروا الجسر فوق نهر التاج ، وبعبرهم اياه توارت طليطلة وراء التلال

سـارت الحملة بأثقالها وأحمالها جنوبا يغرب وقد صـحا الجو وأشرقت الشمس وأرسلت أشعتها على البساتين والغياض والاودية والتلال ، والفونس يعجب لما يقع بصره عليه من البقاع الخصبة وفيها أصناف الاشجار والمغارس ، ولكنه استغرب خلو المزارع من الناس ، ولو انه لم يكن يتوقع أن يرى فيها غير العبيد أو من جرى مجراهم من الفلاحين والحراثين ، وكان الاشراف وأصحاب الضياع يعاملونهم

معاملة الارقاء اذ كانوا يعملون فى المغارس والضياع ، وهم والارض وما يسرح فيها من الدواب والماشية ملك للأشراف الذين كانوا غالبا ما يقيمون فى المدن حيث يقيم الحكام

وكان الفونس قلما يخرج من المدن ، ولم يكن يهمه الالتفات الى حال أولئك الفلاحين ، ولكنه بعد ما دار بينه وبين أوباس بشأن الملك ، وما عزموا عليه من تحرير أولئك الارقاء والاعتماد عليهم فى تحرير المملكة ، أصبح همه الالتفات الى البلاد وأهلها . فاذا هم يمرون فى أرض لا يظهر لأهلها عناية فى غرسها واستثمارها ، وقلما شاهدوا فيها أحدا من الناس ، فلما تكرر ذلك المنظر لديه التفت الى يعقوب وكان راكبا جوادا وراء جواده ، وسأله فى ذلك ، فأجابه قائلا: « ان الناس كثيرون ، ولكنهم تعودوا اذا رأوا جندا مارا بهم أن يختفوا من وجوههم فرارا مما يكلفونهم من الاعمال الشاقة وما قد يتطلبونه من المؤونة ونحوها ، ولم يخطر لهم أن يسيروا بهم مثل سيرهم هذا ، لايتعرضون لأحد منهم فى شىء . فان الجند لم يسر بهذا الهدوء الا بناء على أمر مولاى ! »

فتأثر الفونس من ذلك القول وتمثل له الخطأ الذى ترتكبه الحكومات الظالمة فى تكليف رعيتها فوق طاقتهم فتعود الخسارة عليها وعليهم

وقد قضى الفونس وحملته فى الطريق بضعة أيام قطعوا فى أثنائها سهولا خصبة ، وجبالا فيها كثير من مناجم الفضة والذهب ، وأودية يسيل فيها الماء فيسقى الغياض والبساتين فتجود بأطيب الثمرات لأن أرض الاندلس من أحسن البلاد خصبا وعمرانا وانما تحتاج الى من يتعهدها بالغرس ويظللها بالعدل ، الى ما كان فيها من مدن عامرة كان أول ما مروا به منها « مريدة » فقطعوا نهر « اناس » وساروا بضعة أيام أخرى الى قرطبة ، فعبروا نهرها وساروا الى « استجة » . وكانت مدينة آهلة على الضفة اليسرى لنهر سنجيل ، حولها سور متين عليه الابراج من صنع الرومان . ولا بد للقادم اليها من قرطبة أن يعبر على جسر فوق ذلك النهر ، فلما دنوا من المدينة فى الضحى بعث الفونس رسولا بكتاب رودريك الى حاكمها فعاد الرسول ومعه نفر من جند المدينة ، وبيدكبيرهم أمر بتسليمهم القلعة الكبرى المشرفة على النهر من يمينه ، والتى كان النهر يفصل بينها وبين المدينة وقد بنيت لاقامة الجند فاحتلوها ، وسار الفونس الى غرفة فيها هى أحسن غرفها وأوسعها ، ولها نافذة مطلة على النهر

والمدينة وعلى ما وراءهما وبين يديهما من البساتين والمزارع

صعد الفونس الى غرفته وكان يعقوب قد سبقه اليها وأعد له ما قد يحتاج اليه من الراحة ، وأمر بعض الخدم فأعدوا طعاما حمله هو اليه فوضعه على مائدة فى تلك الغرفة ودعاه اليها لأنه كان منذ صعوده الى الغرفة قد جلس الى النافذة وخلا بنفسه فتذكر حبيبته وعمه ومجيئه الى تلك المدينة رغم ارادته ، وليس هناك ما يدعو الى قدومه الا سعى رودريك فى ابعاده عن حبيبته ، ثم تصور القصد من ابعاده عنها وما قد يكون فى عزم رودريك بشأن فلورندا ، فاقشعر بدنه وأحس كأن ماء غاليا ينسكب عليه ، لكنه تذكر الاحتياطات التى اتخذها لانقاذ فلورندا من ذلك القصر فسكن روعه

وفيما هو فى هذه الهواجس سمع وطء أقدام فى الغرفة فالتفت فرأى يعقوب واقفا ويداه متقاطعتان على صدره كأنه يسمع الصلاة . فلما وقع نظره عليه هرول يعقوب نحوه وهو يبتسم ويقول : « ألا يأمر مولاى بتناول الغداء ؟ »

فلم يسع الفونس الا الابتسام وقد انشرح صدره فوقف وأسرع الى المائدة ولم يتكلم ويعقوب سائر فى أثره ، فجلس الفونس وظل يعقوب واقفا وقوف الخدم فأشار الفونس أن يجلس فأبى واعتذر . فقال الفونس : « لم يعد يليق بى أن أعدك خادما بعد ما علمته من علو همتك وتفانيك فى نصرة الحق »

فقال يعقوب : « العفو يا مولاى انك لم تعلم عنى شيئا بعد ، وما هى الا أقوال سمعتها ، فاذا رأيت منى عملا كبيرا ورأيت بعد ذلك انى أستحق مجالستك أو مؤاكلتك فعلت »

فتذكر الفونس وعده بكشف السر بعد وصوله استجة فلم يشأ أن يذكره بذلك لئلا يكون الجواب تسويفا ، فتجلد حتى يكاشفه هو من تلقاء نفسه ولكنه قال له : « لك الخيار يا يعقوب فيما تفعل . ثم انى فهمت من بعض أقوالك انك عالم بفلورندا وحديثها ! »

فأشار يعقوب باحناء رأسه ان « نعم ! » . فقال الفونس : « ما رأيك ، هل هى وعمى لايعلمان مقرنا ، وهلا ترى أن نبعث اليهما لكى يقدما الينا ونحن هنا بعيدون عن ذلك الطاغية ؟ »

قال : « لا تقل اننا بعيدون ! أتظن رودريك أبعدك عن قصره وأغفل أمرك .. ؟ ألا تعلم ان معظم رجال هذا الجند عيون عليك يراقبون حركاتك ، لعلهم يتقربون بأذيتك الى البلاط الملكى ؟ ! وانه اذا هرمت الدولة واختلت شؤونها كثر فيها الجواسيس وتعددت أسباب

الوشاية ، وفسدت النيات وأصبح الاخ عينا على أخيه والابن على أبيه ، يساعدهم على ذلك انغماس الملك فى الترف واشتغاله به عن سياسة رعيته ، مع ما يحول من أهل التملق بينه وبين المتظلمين . فلا تثق بأحد ، ولا تأمن أحدا الا اذا كانت مصلحتـه ومصـلحتك سواء ، حتى يعقوب هذا ! » . قال ذلك وأشار بسبابته الى صدره . فعجب الفونس لما سمعه ولم يكن قد اختبر شيئا من شؤون الناس ، ولا اطلع على فساد الطبيعة الانسانية ، فسكت وعاد الى الاكل حتى فرغ من الغداء ويعقوب ما يزال واقفا بين يديه

فلما نهض الفونس عن المـائدة قال يعقوب : « استرح يا مولاى الآن وائذن لى فى النزول الى المدينة ثم أعود اليك قبل الغروب ، وفى الغد ننزل اليها معا لنرى أسواقها وساحتها »

قال : « انصرف ، وقبل انصرافك ابعث الى بالقائد ومبا لأخاطبه فى أمر الجند » . قال : « سمعا وطاعة » وخرج

وعاد الفونس الى مجلسه بجانب النافذة وهومايزال بلباس السفر ، وعاد الى التفكير فى فلورندا وأوباس ورودريك . ثم سمع وقع أقدام بالباب فتحول للاقاة ومبا فدخل هذا وألقى التحية ، ووجهه منبسط اشارة الى مايبطنه من الاحترام لألفونس والغيرة عليه ، فرد الفونس التحية وسأله عن حال الجند فقال : « انهم فى نظام وسلام ، يدعون للقائد الباسل بالرغد والظفر »

قال : « هل سمعتم شيئا عن أحوال الاهالى هنا ؟ »

قال : « سمعنا انهم مستكنون لايبدون حراكا ، ولعلهم ركنوا الى السكينة على أثر سماعهم بقدومنا »

قال : « أرجو مع ذلك أن تسهروا على الاحوال ، وتواصـلوا استطلاع الاخبار ، ولى فى درايتكم ما يضمن الراحة »

ففهم ومبا من غنة كلام الفونس واشارته انه فرغ مما يريده ، فحياه وتحول من الغرفة . ولما خلا الفونس بنفسه نهض فبدل ثيابه وعزم على قضاء بقية ذلك اليوم فى الغرفة للاستراحة من متاعب السفر

ولما مالت الشمس الى الغروب ولم يرجع يعقوب استبطأه الفونس وانشغل خاطره عليه وجلس الى النافذة المطلة على الجسر ـ ولا بد لمن يخرج من المدينة الى القلعة من المرور على هـذا الجسر ـ فلم تمض برهة حتى رآه قادما وقد تأبط صرة فظنه قد جاءه بشىء من فاكهة المدينة فصبر حتى وصل الى القلعة ولبث ينتظر دخوله عليه ،

لكنه أبطأ ثم دخل بعد قليل ويداه فارغتان

فقال الفونس : « ما الذى حملته الينا من المدينة ؟ » . قال : « لم أحمل منها شيئا لأننا ذاهبون اليها غدا » . قال : « رأيتك متأبطا شيئا فما هو ؟ » . فضحك يعقوب وقال : « ذلك ليس شيئا . . »

فاشتدت رغبة الفونس فى استطلاع حقيقة ذلك الشىء فقال : « هل ثمة ما يمنع اطلاعى عليه ؟ » . قال : « الى الصباح يا مولاى ، ولا بد من اطلاعك عليه »

وفى الصباح التالى نهض الفونس وبه شوق شديد الى معرفة ما فى الصرة ، ولم يكد ينهض من الفراش حتى جاءه يعقوب بالثياب ففسل وجهه وسرح شعره ولبس ثوبه استعدادا للنزول الى المدينة وهو يتظاهر بالصبر على استطلاع ما فى الصرة . فلما فرغ من كل شىء ولم يبق الا الخروج ، دخل يعقوب والصرة فى يده وأقفل باب الغرفة وراءه . فوقف الفونس وتطاول لمشاهدة ما فيها ففتحها يعقوب واستخرج منها شيئا من نسيج اسود على نحو أقبية الكهنة ، واذا هما ثوبان أسودان كل منهما جلباب طويل يغطى الرجل الى أسفل القدم . فتناول يعقوب أحدهما وبسطه وقدمه الى الفونس وهو يقول : « البس هذا الجلباب يا مولاى » . فوضعه الفونس على كتفيه والتف به فغطى كل أثوابه ، ولبس يعقوب الجلباب الآخر والتف به ، ثم مد يده الى طوق ذلك الجلباب من قفاه فاستخرج منه شيئا كالكيس معلقا به من بعض جوانبه وأرسل ما بقى منه على رأسه حتى اشتمل على الرأس والوجه جميعا . وفى غطاء الوجه ثلاثة ثقوب ثقبان للعينين وثقب للفم فأصبح يعقوب شبحا اسود . وتقدم الى الفونس فاستخرج الكيس من قفا ثوبه وألبسه اياه حتى صار مثله ، وكان يعقوب يفعل ذلك والفونس صابر ليرى نهاية هذا العمل ، فلما فرغ يعقوب من اللبس قال : « هذا الذى أتيتك به من استجة ، فانزعه الآن الى حين الحاجة »

فاستغرب الفونس عمله هذا وقال : « ومتى نحتاج اليه ؟ »

قال : « قريبا ان شاء الله . لا تكن لجوجا » . قال ذلك ونزع جلبابه والجلباب الآخر عن الفونس وطوى كلا منهما على حدة وجعل أحدهما تحت دراعته من جهة الصدر ، وأرخى الدراعة عليه حتى اختفى تحتها ، وأتى بالجلباب الآخر وطواه وطلب الى الفونس أن يخفيه تحت دراعته ففعل وهو لا يفهم الغرض من ذلك . ثم قال يعقوب : « هلم بنا الى الكنيسة ! »

خرج يعقوب والفونس من القلعة وبينما هما على الباب التقيا بومبا فوقف هذا للتحية فقال الفونس : « انى ذاهب الى الكنيسة فاحتفظ بما عندك » . فأشار ومبا برأسه ويده بالسمع والطاعة

مشى الفونس ويعقوب يتبعه ، وليس معه من الخدم والاعوان سواه حتى مرا على الجسر ودخلا باب المدينة وهما لايتكلمان ، لأن يعقوب لم يكن يقدم على الكلام الا جوابا على خطاب جريا على عادتهم فى معاملة الملوك . وكان الفونس غارقا فى الهواجس لاينتبه لوجدانه ، لما اجتذب خاطره من أمر فلورندا ورودريك ، وحديث يعقوب وذلك الثوب الاسود . ولم يفق من ذلك السبات حتى دخل الاسواق والناس يتسابقون فيها نحو الكنيسة . وبعد هنيهة أفضى بهما المسير الى ساحة كبيرة فى وسط المدينة . ولم يكن الفونس يعرف الطريق الى الكنيسة وانما كان يقتفى خطوات يعقوب أو اشاراته . وبعد أن قطعا تلك الساحة أطلا على باب فخم تزاحمت عنده الاقدام بين داخل وخارج فوقف يعقوب هناك وقال : « هذا باب الشارع الاعظم ، وهذه هى الكنيسة » ، وأشار بيده الى باب كبير آخر فتحولا نحوه ودخلا مثل سائر الداخلين ، والناس لايعلمون من هو الفونس ولكنهم تبينوا من استرسال شعره ونوع لباسه انه من الاشراف وأصحاب المناصب

قضيا فروض الصلاة فى تلك الكنيسة وهما لا يزالان صامتين . فلما انفضت الصلاة وخرج الناس خرجا معهم والفونس لايدرى الى أين يذهب ، فتأخر حتى مشى يعقوب فتبعه وما زالا حتى خرجا من باب المدينة من الجهة الاخرى . فاستغرب الفونس ذلك ولم يتمالك عن الاستفهام فالتفت الى يعقوب وقال له : « الى أين نحن ذاهبان فى هذه البرية ؟ »

قال : « اننا ذاهبان الى هذه الاكمة » وأشار الى تل قريب لا شىء من العمارة فيه . وما لبثا أن وصلا اليه فصعدا الى قمته والفونس لايفهم الغرض من كل ذلك فقال يعقوب : « انظر يا مولاى الى استجة بين أيدينا ، وانظر الى سورها فانك ترى على بعض هذا السور برجا عاليا »

وكان الفونس يرى ذلك البرج جيدا لأنهما على مقربة من المدينة فقال : « نعم ! »

قال يعقوب : « اذا جئت هذا المكان فى الليل فلا تخطىء هذا البرج لبروزه فوق السور ، وليس على السور برج سواه . احفظ ذلك

جيدا ثم اتبعنى » . قال ذلك وانحدر عن التل الى الجهة الاخرى ، فاذا هو بكهف مهجور وقف ببـابه والفونس الى جانبـه فقال له : « أرأيت هذا الكهف ؟ »

قال الفونس : « نعم رأيته » . قال : « فلنرجع الى المدينة نقضى بقية النهار ثم نعود الى هنا »

وكان الفونس يتوقع الاطلاع على شيء من السر فلم يزدد الاحيرة واستغرابا . . واستطال الانتظار الى المساء فقال : « وأين نقضى هذا النهار فانه طويل عندى ؟ ! »

قال : « سأجعله قصيرا جدا » . ومشى فمشى الفونس فى أثره حتى دخلا المدينة والفونس يتأمل البرج . وما زالا سائرين فى الاسواق حتى انتهيا الى درب ضيق اتصلا منه الى باب صغير فقال يعقوب : « انتظرنى يا مولاى هنا ريثما أعود » ، ودخل ثم عاد وأشار اليه فدخل وعلم مما رآه من الادوات المنزلية أن البيت مأهول لكنه لم يشاهد فيه أحدا . فدخل يعقوب غرفة من غرف البيت والفونس معه وقد مل الانتظار وكاد الحنق يخرجه عن جادة الصبر . أما يعقوب فانه أقفل باب الحجرة ثم أجلس الفونس على بساط وجثا الى جانبه وقال : « سأتلو عليك يا مولاى ألفاظا غريبة لا بد لك من حفظها فان ما ستتعلمه الآن من الالفاظ والاشارات انما هو مفتاح السر وطريق العمل »

فأصغى الفونس اليه وقال : « هات ما تريده »

قال : « شالوم عليخم » . فقالها الفونس ولسانه يتعثر بالعين والخاء على الخصوص ، فكررها يعقوب عليه حتى حفظها ، ثم قال له : « قل (أوهيل موعيد) . » . فقالها وكررها حتى تعلمها . ثم نهض يعقوب وأمسك الفونس بيده وقال له : «قف يا مولاى» فوقف فخطا يعقوب أمامه بضع خطوات على نسق غير مألوف بين الناس وقال له : « اخط يا سيدى مثل هذه الخطوات » ففعل وكررها حتى أتقنها . ثم علمه اشارات يجريهـا بيـديه أو أصابعه وغير ذلك ، والفونس كالببغاء ، يتعلم الالفاظ ويخطو الخطوات ويجرى الاشارات وهو لا يفهم لها معنى !

قضيا بقية اليوم فى نحو ذلك ، فلما غربت الشمس خرجا والفونس لا يزداد الا استغرابا ، وقد نسى لفرط دهشته كل مشاغله بفلورندا وأوباس ، وما زالا حتى خرجا من باب المدينة ، وكانت ليلة صاحية لكنها شديدة البرد ، فصبرا على بردها حتى بلغا الاكمة وصعدا اليها ،

فنزل يعقوب نحو الكهف والفونس يتبعه حتى وقفا ببابه ولم يريا داخله غير الظلمة المدلهمة ، فدخل يعقوب ويده بيد الفونس ، فمشى به بضع خطوات والفونس يتحسس الارض بقدميه كأنه يمشي على الشوك وهما صامتان . ثم وقف يعقوب وقال لالفونس : « أخرج جلبابك » . فأخرجه وساعده يعقوب على لبسه كما لبس هو جلبابه فأصبحا سوادا فى سواد ، ومشيا خطوات أخرى ويعقوب يقود الفونس ، ثم وقف بغتة فشعر الفونس بصدمة وقوفه فخاف أن يكون ثمة خطر عليهما ، وأحس ان يعقوب انحنى نحو الارض ، ثم سمع خربشة كأن يعقوب يبحث بأنامله فى الارض ، وكان قد ترك يد الفونس فظل هذا واقفا وقوف الصنم لا يدرى كيف يتجه لاشتداد الظلام !

وكان يعقوب قد خلى يد الفونس لتتفرغ يداه لرفع حجر ثقيل . فمضت بضع دقائق والفونس واقف لا يتحرك ، ثم سمع صوت اقتلاع الحجر وأحس بنسيم بارد قد خرج من مقتلعه ، واذا بيعقوب يقول له بصوت منخفض : « اتبعنى يا مولاى فى هذه الفوهة على مهل » . ونزل وتبعه الفونس وهبطا سبع درجات فانتهيا الى سرداب يسع الانسان واقفا فمشيا فيه ، ويعقوب يقود الفونس فى الظلام . وشعر الفونس كأنهما يسيران فى دائرة ثم سارا فى خط مستقيم مع انحدار خفيف والظلام يتكاثف . وبعد هنيهة وقف يعقوب وقال لالفونس : « امكث هنا يا مولاى ولا تغير مكانك ريثما أعود اليك » . وتركه ومشى لا يسمع لخطواته وقع فأحس الفونس بوحشة غريبة ، ومضى على غياب يعقوب دقائق حسبها الفونس ساعات حتى مل الانتظار وحدثته نفسه أن يخطو فى أثره ولكنه تذكر وصيته اياه بالبقاء هناك فوقف ، ولكن الانسان رغاب فى استطلاع المخبآت ولو عرض نفسه للخطر . على أنه نسى الجهة التى كانا سائرين فيها ومد يده الى ما حوله فلم تلمس شيئا فتوهم أنه فى خلاء واسع . وفيما هو فى هذا الارتباك آنس نورا خفيفا عن بعد ، ورأى ذلك النور يقترب حتى تبين حامله ، فاذا هو رجل بجلباب اسود مثل جلبابه فظنه يعقوب فناداه باسمه فلم يسمع ردا فحسب سكوته تسترا ، ثم رأى وراء ذلك الشبح شبحا آخر فى مثل لباسه وقد كشف عن وجهه فاذا هو يعقوب ، فعلم الفونس أنه اقترب من المكان المقصود

ولم يكد يفكر فى الامر حتى أسرع يعقوب اليه وأمسك بيده ،

فنظر الفونس فى وجهه على نور المصباح فرأى لحيته قد ازدادت تلبدا وقذارة ، فخاف أن يكون عليهما بأس من ذلك المكان . ولكنه سلم قياده الى يعقوب فأمسكه وسار به والرجل الثالث يسير بين يديهما بالمصباح ويعقوب يحذر الفونس مما بين يديه ، فنظر الى الارض فرأى فيها حفرا جمة يخشى الماشى السقوط فيها حتى على النور ، فكيف به فى الظلام . وأدرك السبب الذى حمل يعقوب على استجلاب ذلك النور فمشى مشية الحذر والتأنى بضع دقائق ، ثم انطفأ المصباح وعاد الظلام كما كان . فضغط يعقوب على يد الفونس وهمس فى أذنه قائلا : « وصلنا »

وكان الفونس قد ضاقت أنفاسه من القناع المنسدل على وجهه فرفعه وتنفس الصعداء ثم أرخاه ، واذا بيعقوب قد وقف وهمس فى أذنه أن يفعل مثل فعله بعد انفتاح الباب وألا يخشى شيئا مهما يكن ما يراه . ثم قرع بابا قرعا متواليا سبع مرات بأسلوب خاص ، ولبث برهة ثم طرقه ثانية ثلاث مرات بنسق آخر ، فانفتح الباب عن ممر قصير فيه نور ضعيف ، والى كل من جانبى الباب رجل بمثل جلبابيهما وبيده سيف مسلول والسيفان متعانقان كالقوس فوق عتبة الباب ، فأجفل الفونس وتقهقر ، فسمع يعقوب يقول : « شلوم عليخم » فقالها هو أيضا ودخلا والسيافان لا يتحركان كأنهما صنمان ، فمشى يعقوب فى الممر تلك المشية الخاصة التى علمها لألفونس فى ذلك النهار ، ومشى الفونس مثلها وهو يتعثر لاضطرابه وارتباكه ، حتى وصل الى باب مقفل فقرعه بنسق خاص خمس قرعات ، فانفتح الباب وانطفأ النور معا ، فأجفل الفونس ولكنه تذكر وصية يعقوب فثبت جنانه ، وسمع صوتا يخاطبه بلسان لم يفهمه وسمع يعقوب يقول له : « أوهيل موعيد » فقالها هو أيضا ومشيا فى تلك الظلمة والفونس يحسب نفسه صاعدا على سلم ، ثم انفتح لهما باب آخر وحال انفتاحه أحس الفونس بهواء دافىء خارج منه تخالطه رائحة الانفاس ، فشعر بالدفء ونسى ما كان يشعر به من البرد فى السرداب ، ودخلا من الباب فأشرفا على قاعة كبيرة فى وسطها شبه مائدة عليها سراج مضىء وبجانبه درج كبير ، وحول الجدران مقاعد عليها أشباح سود بمثل جلبابه ، ووجوههم منقبة بمثل نقابه ، وأمام كل منهم سيف مسلول يلمع فرنده فى نور السراج الضعيف ، فارتعب لذلك المنظر الهائل على أنه التفت الى جانبه فاذا بيعقوب قد مشى بخطوات كان قد علمه اياها فمشى مثله حول

المائدة والسراج مرتين ، وقبل الدرج الموضوع هناك ، وهو لفافة من جلد ، ثم مشيا الى كرسيين فى صدر القاعة خاليين فجلسا عليهما وأمامهما سيفان مسلولان ، فالتفت الفونس الى ما حوله فلم ير الا أشباحا سوداء بشكل واحد وقيافة واحدة ، وندم لمجيئه على تلك الصورة مخافة أن يكون عليه خطر . ولكنه تذكر ثقته بيعقوب فاطمأن باله ولبث الجميع برهة ساكتين ، ثم نهض أحدهم عن كرسيه وتقدم الى المائدة وتناول الدرج وفتحه بين يدى المصباح فرأى الفونس عليه كتابة لا يفهمها . ثم أخذ الرجل فى القراءة فوقف الجميع والفونس فى جملتهم ، حتى اذا أتم قراءته قبل الدرج ورجع الى مكانه وجلس ، فجلس الباقون لا ينطق أحد بكلمة ، الى أن تكلم الرجل بذلك اللسان كلاما طويلا أجابه عليه بعض الحاضرين ، ثم تكلم يعقوب باللسان القوطى قائلا : « يسمح حضرة الرئيس بعقد جلسة خاصة يحضرها هو ومن شاء للمداولة فى أمر مهم »

فوقف الرجل الاول وبيده سيف صغير وأشار به اشارة خاصة فوقف الجميع ، ثم انفرد منهم ثلاثة وقفوا بازائه ، وتقدم يعقوب والفونس حتى وقفا معهم ، ثم تحول الرئيس الى باب وراءه ففتحه ودخل وتبعه الباقون الى ممر مظلم انتهوا منه الى باب فتحه بيده ودخل الى حجرة مظلمة ووقف ببابها وتكلم ، فجاءه من بين الجماعة رجل بشمعة مضيئة مرتكزة فى طبق من البرونز فتناولها منه ، فرجع الرجل وأقفل الباب وراءه ، فدخل الرئيس بالشمعة حتى وضعها على حجر مرتفع فى بعض جوانب المكان

ونظر الفونس فى ذلك المكان فاذا هو حجرة صغيرة جدرانها سوداء وسقفها أسود ، وفى أرضها صندوق كالتابوت الكبير فوقه درج صغير ، وحول التابوت بساط جلسوا عليه والتابوت فى وسطهم ، فتأثر الفونس من ذلك المنظر المرهب ، وخفق قلبه لهول ما شاهده من الغرائب ، وقد نفد صبره لمشاهدة أشباح سوداء لقوم لا يرى لهم وجوها ولا يدرى من هم ؟ فلما جلسوا تكلم يعقوب بالقوطية وقال : « هل يظن الرئيس ان الطعام قد نضج ! ؟ »

قال : « أنت أدرى منا بنضجه لانك موقد ناره »

فقال يعقوب : « أرجو أن يكون قد نضج ، ولكنه يحتاج الى أدام كثير لأن الطعام بلا أدام لا يؤكل »

قال : « الادام كثير ومنه فى هذا الصندوق ، ما يطبخ به طعام العالم بأسره . فضلا عن أمثاله مما يحمل الى المطبخ عند الحاجة ! »

فلم يفهم الفونس مغزى تلك الرموز ، ولكن يعقوب التفت اليه وقال : « ان المادة التى تنقصك لاتمام مشروعك مختزنة فى عشرات من أمثال هـذا الصندوق وقد جمعت فيها منذ أعوام ، ولـكنها لا تبذل الا عند الحاجة » ، قال ذلك وأومأ الى الرئيس فاستخرج من جيبه مفتاحا فتح التابوت به ، وحالما رفع الغطاء أبرق ما تحته أصفر زاهيا . فنظر اليه الفونس فاذا هو نقود ذهبية خالصة ، ثم أقفله الرئيس وأعاد المفتاح الى جيبه . فاندهش الفونس لمنظر ذلك الذهب ، وأدرك أنه بين جماعة ذوى اقتدار ، والتفت اليـه الرئيس وقال : « لا تطمع فى استطلاع شىء غير الذى تراه ، واعلم أنك عرفت شيئا لم يعرفه أحد من الذين رأيتهم فى الحجرة الاخرى وهم يجتمعون معنا منذ أعوام ، وفيهم من يبذل ماله وروحه فى سبيل ذلك الغرض! »

فتكلم عند ذلك يعقوب وقال : « يكفى مولاى ما قد شاهده ، ولا نشك أن فى أسبانيا ألوفا من أمثال هؤلاء المظلومين ، وعندهم الاموال المختزنة فى الصناديق ، وهم يبذلون أنفسهم فى خدمته فضلا عن أموالهم »

فلما سمع الفونس قوله « المظلومين » انتبـه الى أنه بين يدى جمعية سرية تتواطأ على قلب الحكومة ، وتذكر ما كان يسمعه من كلامهم المعجم فخطر له أن يكونوا يهودا ، ولكنه كان يعلم أن اليهود قد انقرضوا من المملكة اما بالنفى أو بالقتل أو اعتناق النصرانيـة فقال ليعقوب : « قد فهمت السر فالأولى أن تفصح وأنت أعلم الناس بعزيمتى وقصدى وفصـ .ى من قبلى »

فعند ذلك التفت يعقوب .ى الرئيس وقال : « ينبغى لى أن أكاشف كلا منكما بسر الآخر . اعلم يا حضرة الرئيس أن الرجل الذى جئتكم به الليلة هو نصيرنا الوحيد فى هذه الديار ، واذا قلت لكم من هو هان عليكم مكاشفته بأمرنا ، انه الفونس ابن المرحوم غيطشة ملك اسبانيا ، وهذا يكفى ! »

وقال الرئيس : « لعله على عزم والده تماما ؟ » . فقال يعقوب : « نعم هو نصير المظلومين ، وقد عول على السعى فى انقاذنا من هذا الطاغية اللعين الذى يسمى نفسه ملكا . وانما يعوزه المال وهو عندنا ، فاسمح لى بعد هذا التصريح أن أنبئه بحقيقة الامر . » . قال ذلك وحول خطابه الى الفونس قائلا : « اعلم أيها الملك ـ وأنا أخاطبك بالملك لأننـا لا نعرف ملكا على أسبانيـا سواك ـ انك فى جمعيـة اسرائيلية ، وكل الذين رأيتهم فى هذه الجلسة يهود ما زالوا على دين

آبائهم وأجدادهم ، وينوبون عن ألوف من أهل هذا الدين منتشرين في أنحاء المملكة الأسبانية يتظاهرون بالنصرانية فيحضرون القداس في الكنائس ، ويتناولون القربان ، ويقومون بسائر الفروض المسيحية ، وكان منهم في الكنيسة في صباح هذا اليوم مئات ، وقد رأيناهم يسجدون أمام الأيقونات ويتلون الصلوات ، وربما سمعناهم يدعون بنصر رودريك وهم يودون قتله . وقد صبروا على هذا الظلم وكظموا الغيظ أعواما وهم يجمعون المال ويختزنونه ، لاغتنام الفرصة للنهوض من تحت هذا النير ، حتى اذ كادوا يبلغون بغيتهم على يد والدك المرحوم استبدل به أهل المطامع هذا الطاغية وهو لا يستحق هذا المنصب ، بل أنت هو صاحبه الشرعي فنرجو أن تكون النجاة على يدك »

فلما سمع الفونس قوله انجلى له كثير من الاسرار التي ما برح يود الاطلاع عليها منذ خاطب عمه أوباس في هذا الشأن ، فاكتفى بما رآه وسمعه ، وأجل استطلاع ما بقي من الغوامض الى فرصة أخرى ، ولبث صامتا يراجع ما مر به من المعميات فرأى أنه ينقصه أن يعرف وجوه أولئك الناس خصوصا بعد أن عرفوه باسمه . وكان يعقوب قد أدرك غرضه فقال له : « ولا يطمع مولاي الآن أن يطلع على ما وراء ذلك . ان نظام الجماعة يقضي بالتسترخوفا من أن يبوح أحد بأمرهم . فأنت الآن بعد أن اطلعت على هذه الاسرار المهمة تمسي اذا خرجت من هذا المكان كأنك لم تدخله ، لانك لم تر وجوه الاشخاص فلا يمكنك أن تتهم أحدا من الناس . وربما كان بعض هؤلاء من رجال الجند أو الكهنة أو العمال أو الزراع ، وكلهم من عداد المسيحيين ويكفيك أن تعرف واحد منهم وهو أنا »

فأعجب الفونس بهذا الضرب من الاحتياط ، وعلم أن يعقوب يهودي ، وتذكر ما كان يطلبه من التساهل في أداء الفروض الدينية من الصلوات ونحوها ، وأن عمه أوباس كان يساعده على ذلك ، وخطرت له خواطر كثيرة بشأن علاقة يعقوب بوالده وعول على استطلاع سر هذا الامر فيما بعد . ثم اعترض مجاري أفكاره دبيب توالت أصواته فوق رؤوسهم فاندهل الفونس والتفت نحو السقف فابتدره يعقوب قائلا : « لا تستغرب يا مولاي ما تسمعه لان فوقنا شارعا من شوارع المدينة ، والناس يمرون عليه ليل نهار ، وليس في أهل استجة من يعلم بوجود هذا البناء تحت الشارع الا أعضاء هذه الجمعية » . فازداد الفونس استغرابا لما عاينه في تلك الليلة من

« وحالما رفع الرئيس غطاء التابوت ، أبرق ما تحته
أصفر زاهياً ، فنظر الفونس ، فاذا هى تقود ذهبية »

طرق التحفظ وأبواب الدهاء وقال فى نفسه : « ان قوما هذا مبلغ دهائهم وتعلقهم وصبرهم لجديرون أن ينالوا بغيتهم ! »

وفيما كان الفونس يفكر فى ذلك سمع قرعا بعيدا يشبه أن يكون على الباب الذى ينتهى اليه السرداب ، ولكنه رأى عدد الطرقات وكيفية ضربها يختلفان عما فعله يعقوب لما جاء به. ثم ما لبث أن رأى الرئيس ويعقوب وسائر الجالسين معه قد أنصتوا لما عساه أن يعقب ذلك الطرق فخاف أن يكون وراء انصاتهم ما يدعو الى القلق ، ولو كانت وجوههم مكشوفة لاستطلع ذلك فى عيونهم وجباههم. ثم سمع قرعا ثانيا على الباب الآخر بكيفية أخرى ولم يفرغ الطارق من الطرق حتى تحول انصات رفاقه الى الحركة ، وسمع الرئيس يقول : «لقد جاءنا رسول بخبر جديد ، عساه أن يكون قادما من اخواننا فى الشام أو مصر أو من أفريقيا »

فاستغرب الفونس تنبؤ الرئيس عن الرجل من سماع قرع الباب، وأدرك أن لهذه الجمعية علاقات واسعة فى الشام ومصر وغيرهما فلم يتمالك أن قال : « كيف عرفت الرجل من سماع القرع عن بعد ، وهل لهذه الجمعية من أعضاء فى تلك البلاد ؟ »

قال : « عرفته من قواعد موضوعة لهذا الغرض يعرفها أعضاء هذه الجمعية . وأما سؤالك عن سعة الجمعية فان لها أعضاء فى أنحاء بعيدة أرسلتهم للبحث عن طريقة نتخلص بها من هذا الرق ! ». وسكت هنيهة ثم قال : « ومن هؤلاء الأعضاء أناس قد تصدروا فى مجالس الدول وتقلدوا مناصبها ، ومنهم من يعمل عمل الخدم ويقاسى مرارة الذل والشقاء ويؤدى أدنى الاعمال ، وهو ليس من مصاف الخدم ، بل قد يكون من أهم أعضاء الجمعية ومن أكثرهم بذلا فى سبيلها ، وانما يتزيى بزى الحدم تنفيذا لغرض يعود على الطائفة بالخير ! »

وكان الفونس وهو يسمع كلام الرئيس يشعر بنور يضىء بصيرته، فأدرك للحال أن خادمه يعقوب من كبار هذه الطائفة وأهم أعضاء هذه الجمعية ولكنه ما زال ميالا الى استطلاع علاقته بأبيه وعمه لانهما كانا عارفين بسره على ما ظهر من كلام أوباس — فأجل ذلك الى فرصة أخرى ولبث ينتظر دخول الرسول القادم . ولم تمض برهة وهم سكوت يسمعون صدى الحركات فى القاعة الكبرى حتى سمعوا قارعا يقرع باب تلك الحجرة السوداء قرعا خاصا ، فنهض يعقوب وفتح الباب فدخل منه رجل طويل القامة عليه ذلك الجلباب الاسود،

وحال دخوله وجه وجهه نحو الرئيس وكلمه بالعبرانية كلاما لم يفهمه الفونس ، فأجابه الرئيس ، وتخاطبا برهة بتلك اللغة والفونس لا يفهم ، ولكنه استغرب توجيه القادم كلامه للرئيس حال وصوله وهو لا يرى فرقا بين مظهر الرئيس وبين سائر الجالسين لانهم بلباس واحد ولون واحد ، فتوسم فى ذلك سرا لم يتمالك عن الاستفهام عنه من يعقوب فى أثناء مخاطبة الرئيس والرسول بالعبرانية . فقال يعقوب : لو أمعنت النظر فى ثوب الرئيس لرأيت على كتفه علامة تميزه عن سائر الاعضاء ، ولا تظهر الا عند التأمل . وفى هذه الجمعية علامة لكل من أصحاب المناصب فيها كالكاتب والخازن وغيرهما . غير أن هذه العلامة لا يراها غير المتأمل »

فتأمل الفونس فى كتف الرئيس فرأى عليها عقدة سوداء بجانب العنق ونظر الى أكتاف الرفاق فرأى على كتف يعقوب عقدة تشبه عقدة الرئيس ولكنها بشكل آخر فأراد أن يستفهم منه عن دلالة علامته فسمع الرئيس يخاطب القادم بالقوطية قائلا : « لقد سرنى قدومك الليلة لنسمع حديث رحلتك ، وعندنا من يهمه سماعها ويهمنا اطلاعه عليها . ونحن فى حجرة الخلوة وما فينا الا عمدة الجمعية فمن أين أنت قادم الآن ؟ »

وكان الرجل قد جلس فى جملة الجالسين حول التابوت فقال : « انى قادم من سبتة ، وخبرى طويل لا يتسع الوقت لتفصيله ، ولكنى أعجل لكم منه ما يهمكم ويهمنا . ولو كشفت لكم عن وجهى لرأيتم البشر ظاهرا فيه اذ يظهر لى أن زمان أسرنا قد انقضى أو قارب الانقضاء ! »

فلما قال ذلك ظهر الاهتمام فى حركات الجالسين وأصغوا وقد تطاولوا بأعناقهم الى المتكلم وقال الرئيس : « بشرك الله بالخير . عسى أن يكون قد انقضى أسرنا كانقضاء أسر أجدادنا فى بابل منذ بضعة عشر قرنا »

فقال الرسول وقد وجه خطابه الى الرئيس : « لايخفى على حضرة الرئيس أنى مقيم منذ أعوام فى « سبتة » على شاطىء أفريقية (مراكش) وهى وما يليها تابعة لهذا الطاغية صاحب طليطلة الآن وكان يجب أن تكون تابعة لمملكة الروم الشرقية لانها جزء من أفريقية ولكن الروم تقلص ظل سلطانهم عن أفريقية بما أتاه العرب من الفتوح ، لانهم فتحوا كل سواحلها تقريبا الا سبتة وما يليها فالتجأ صاحبها الى أسبانيا وصارت سبتة ولاية من ولاياتها كما تعلمون

فقطع الرئيس كلامه قائلا : « يظهر أن أبناء اسماعيل قد أفلحوا فى دينهم الجديد ! »

فأجاب الرجل : « نعم يا مولاى » . ولم يفهم الفونس معنى هذا السؤال ولا من هم بنو اسماعيل ، ولكنه لم يستحسن قطع الحديث لأجل الاستفهام فسكت . وأما الرجل فانه أتم كلامه قائلا : « ان أبناء عمنا هؤلاء قد قلبوا العالم بأسره ومدوا سلطانهم على العراق والشام وأفريقية وفارس وخراسان الى أقصى المعمور ! » . فازداد الفونس استغرابا لقوله (أبناء عمنا) ولم يتمالك أن التفت نحو يعقوب ، فأدرك يعقوب مراده قبل أن يتكلم فقال له : « ان العرب الذين قاموا بالدين الجديد هم أبناء اسماعيل بن ابراهيم ، واليهود أبناء أخيه اسحق ، فهم بهذا الاعتبار أبناء عمنا »

فتحول الفونس نحو المتكلم لاستتمام الخبر فاذا هو يقول للرئيس : « وقد سافرت فى أسفارى للتجارة وخدمة الجمعية الى الشام ومصر ، واختلطت بالناس ورأيت كثيرين من اخواننا اليهود الذين استطاعوا التخلص من هذا الذل بالخروج من هذه البلاد وهم الآن فى أفريقية ومصر والشام فى راحة وسكينة لا يتعرض لهم أحد فى دينهم ، يصلون كيف شاءوا ومتى شاءوا ويتعاطون أعمالهم وتجاراتهم بأمان وسهولة . وليس ذلك شأن اليهود الغرباء فقط بل هو شأن كل السكان من كل الطوائف لان اليهود كانوا مضطهدين أيضا فى تلك البلاد تحت نير الروم يذوقون العذاب ألوانا كما كنا نذوقه نحن منذ بضعة قرون قبل أن أجبرونا على النصرانية أو المهاجرة أو القتل ، واضطررنا الى الفرار أو التظاهر بالنصرانية كما تعلمون . وأما اخواننا فى مملكة الروم فكانوا أرحم حالا منا ، ومع ذلك فانهم لم يصبروا على ذلك الضيم وكثيرا ما كانوا يفتكون بالنصارى ويقاومون الحكومة ، فلما جاء أبناء اسماعيل لفتح بلادهم كانوا من أعوانهم على ذلك . وقد أحسنوا صنعا لانهم تحرروا من رق الروم واستبدادهم وأمنوا على أرواحهم وأموالهم وخفت عنهم الضرائب وهم فى نعيم »

فقال الرئيس : « وكيف ذلك ؟ ألم يخرجوا من سلطان الى سلطان ، ومن ضريبة الى ضريبة ؟ ألم يحكم العرب فيهم سيوفهم أو نفوذهم ؟ ألم يضربوا عليهم الضرائب ؟ »

قال : « نعم يا مولاى . ان العرب فتحوا تلك البلاد بالسيف أو بالصلح وصارت تحت سلطانهم ، ولكنهم فى الحقيقة قلما يتعاطون

شيئا من أمورها حتى انهم لا يقيمون فى المدن ولا يختلطون بالرعايا الا نادرا ، وفى أوقات معينة ولأغراض وقتية »

فقطع الفونس كلامه وقال : « وكيف يكون ذلك ، وأين يقيمون ؟ وكيف يحكمون البلاد وهم لا يقيمون فيها ! ؟ »

قال : « لا ألومك على استغرابك ذلك لانه غير مألوف فيما تعرفون فى هذه البلاد حيث يتداخل الحكام فى كل حركة من حركات الناس ، بل هم يعدون الرعايا عبيدهم . وأما هؤلاء العرب فانهم بعد أن فتحوا تلك البلاد ووضعوا عليها الجزية والخراج نزلوا فى ضواحيها وابتنوا لأنفسهم مدنا لا يقيم فيها سواهم كالقيروان فى أفريقية ، والفسطاط فى مصر ، والبصرة والكوفة فى العراق ، وتركوا أهل البلاد الاصليين على ما كانوا عليه فى أيام الروم أو الفرس ، كل منهم على دينه واعتقاده ، يتعاطى عمله وليس عليه الا أداء الخراج أو الجزية كل عام ، وهى ضرائب زهيدة لا تقاس بما كان الروم يسومون رعاياهم من أمثالها . وكان الناس عند أول الفتح أهنأ عيشا منهم الآن بالنظر لظلم بعض عمال بنى أمية ، ومنهم عامل فى العراق اسمه الحجاج شديد الوطأة على أهل البلاد يطالبهم بالخراج الكثير لحاجته اليه فى الحروب ، ولكن الملك الاكبر الذى يسمونه الخليفة يقيم فى دمشق الشام ، وكثيرا ما يبعث الى عماله أن يعودوا الى الرفق . ومع كل ذلك فان الرعايا من اليهود أو النصارى أحسن حالا تحت سلطان العرب منهم تحت سواه ، خصوصا اذا عاد العرب الى ما كان عليه خلفاؤهم الاولون من العدل والرفق والمساواة ، ولولاها لم يسهل عليهم الفتح حتى امتد سلطانهم على معظم العالم المعمور فى الشرق »

فقال الرئيس : « يا حبذا لو أنهم يأتون الينا فيستولون على هذه البلاد ، لانهم اذا كانوا أخف وطأة من بطارقة الروم فبالأولى أن يكونوا أفضل لنا من حكومة القوط »

فاعترضه الرجل الرحالة قائلا : « لا يحق لنا أن نشكو من حكم القوط على الاجمال ، فان بعضهم كان كثير الرفق بنا خصوصا الملك غيطشة السابق فانه كان عازما على تحرير رقابنا واطلاق حرية الدين لنا ، ولكن المنية عاجلته ، أو هم عجلوها له ، فخلفه الطاغية رودريك وهو من أظلمهم جميعا قبحه الله »

▭

فانتبه الرئيس لوجود ابن غيطشة بينهم ، وأعجبه ما قاله الرحالة من اطراء أبيه فقال : « لقد نطقت بالصواب . وعلى كل حال فاننا

وددنا لو أن هؤلاء العرب يأتون أسبانيا ، ولا نظنهم يلقون صعوبة كبرى فى فتحها ، اذ ما من طائفة من أهلها لا تشكو من هيئة الحكومة »

فقال الرحالة : « ان ما تتمنونه وأنتم جلوس هنا قد سعى فيه اخوانكم هناك ، وأنا فى جملتهم ، وكثيرا ما حرضنا عليه هؤلاء العرب وحببنا اليهم هذ البلاد ، وبينا لهم سهولة فتحها عليهم وهم هائبون. ولكن يظهر أنهم أوشكوا أن يحملوا عليها »

فابتدره الرئيس بلهفة قائلا : « هل تعنى ماتقول ؟ » . قال : « نعم يا مولاى ، وهو الخبر الذى جئت من أجله وكنت عازما على مباغتتكم به فأخرجنا الحديث عنه . قلت لكم ان (موريتانيا)ـ وقاعدتها سبتة ـ هى احدى ولايات الرومان ، فلما فتح العرب أفريقيا أصبحت موريتانيا منفردة عن مملكة الروم فانحاز صاحبها الى أسبانيا ليكون فى كنف دولة نصرانية .. ولما خرجت أنا من أسبانيا الى موريتانيا كان حاكمها رجلا اسمه (يوليان) فتظاهرت بالنصرانية ، وعمدت الى تجارتى أشتغل بها وأنا أرتحل فى البلاد وأعود الى سبتة وفى نفسى ما تعلمون من الغيظ لما تقاسيه طائفتى من الفتك والعسف تحت نير القوط ، فأتيح لى أنى انتقمت لها من يوليان هذا انتقاما ليس هنا محل ذكره ، وكنت مع ذلك من المقربين اليه ، يثق بى ويشاورنى فى أموره ، وأنا أظهر له الود وأغتنم الفرص لنيل بغيتى ، وما هى الا أن أحبب الى العرب فتح أسبانيا ، ولكنى أعلم أن السبيل اليها لا يكون الا اذا فتحوا سبتة لوقوعها على بحر الزقاق ، وهو أقرب سبل العرب الى هذه البلاد

« وكان عامل العرب على افريقيا فى الاعوام الاخيرة رجلا شجاعا ذا همة اسمه موسى بن نصير ، فبعث برجاله حتى فتحوا طنجة وأقاموا فيها وحاصروا سبتة من البر ويوليان ممتنع فيها ، صابر على ولاء القوط مع علمه أن صبره لا يجديه نفعا ، ولكنه لا يستطيع الخروج من طاعة رودريك لأسباب لا تجهلونها »

وكان الفونس لما ذكر اسم يوليان خفق قلبه لعلمه أنه والد حبيبته فلورندا وأصاخ بسمعه لعله يسمع شيئا يتعلق بها . واستأنف الرجل حديثه قائلا : « وكنت أنا فى أثناء ذلك الحصار فى قصر يوليان أجالسه كثيرا وهو يركن الى ويقربنى منه لغناى وسعة تجارتى لعله يحتاج الى مال أو مؤونة فى أثناء الحصار ، وأنا أكثر منه رغبة فى التقرب كما تعلمون . فبينما أنا فى منزلى واذا برسول يوليان

يدعونى اليه عاجلا، فمضيت حتى اذا دخلت قصره وأشرفت على باب غرفته رأيت شابا خارجا منها يظهر من قيافته أنه قادم من سفر بعيد ، وعلمت من شكل لباسه انه من أهل طليطلة وأحسبه من خدم الملك ، فسرت حتى دخلت الغرفة وكنت أدخلها دائما بلا استئذان ، فرأيت يوليان جالسا على كرسى بجانب نافذة تطل على البحر الكبير وبيده شيء قد قبض عليه وهو مستغرق فى الهواجس . فلما سمع خطواتى نهض بغتة ورمى الى بما كان بيده وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما وهو يقول : (اقرأ هذا يا فلان وانظر شقائى وتعاستى ! ما كفتنى المصيبة التى أصابتنى من أول عهد شبابى حتى بليت بأقبح منها من رجل أنت تعلم أنى أقاسى عذاب الموت فى سبيل المحافظة على الولاء له) فالتقطت ما رماه فاذا هو قطعة من قماش أظنها مقطوعة من قميص أو رداء وعليها كتابة حمراء كأنها كتبت بالدم . ولما قرأتها اقشعر بدنى استغرابا ولكن قلبى كاد يطفح سرورا لعلمى أن فى ذلك الكتاب حلا للمشكل الذى نحن فيه »

وكان الفونس فى أثناء ذلك قد بلغ به الاضطراب غايته ، وكان سائر السامعين قد أرهفوا آذانهم لاستماع الخبر الجديد ، بينما استأنف الرجل حديثه قائلا : « قرأت الكتاب فاذا فيه : والدى العزيز . سلمت ابنتك الى رجل يسمى نفسه ملكا ، وهو وحش كاسر ، لا يراعى ذماما ولا حرمة ولا عرضا ، ولولا العناية الالاهية لذهبت فريسة بغيه وفسقه ! . أكتب اليك هذا على قطعة من ثوبى وأنا هائمة على وجهى لا أدرى أين أختبىء من بغى هذا الظالم الخائن ، ولا أدرى متى ألتقى بك . فما جزاء من أراد بابنتك سوءا ؟ . وسينبئك حامل هذا الكتاب ـ اذا استطاع الوصول اليك ـ بما قد يشكل عليك فهمه . كتبته فلورندا »

فلا تسل عن الفونس واضطرابه وخفقان قلبه . ولولا ذلك اللثام لافتضح أمره لاستغرابه قولها : « أنا هائمة على وجهى » وقد كان يظنها فى مأمن عند عمه ، فعظم عليه الامر ولكنه كظم عواطفه وصبر نفسه لسماع بقية الحديث . وكذلك كان شأن يعقوب

أما الرجل فانه أتم حديثه قائلا : « فلما فرغت من قراءة الكتاب أظهرت الغيظ وقلت له : (الى متى البقاء على ولاء رجل لا يراعى ذماما ولا يحفظ حرمة ولا يستبقى عرضا ؟ أنت تعرض نفسك للخطر وتصبر صبر الاطفال فى الدفاع عن سلطانه وهو يفعل هذا الفعل مع ابنتك !) . وكان يوليان قد استولت عليه السوداء منذ أعوام

على أثر مصيبة انتابته وثقل عليه حملها ، فجعلت أستحثه وأهيج عواطفه حتى قال : (لا بد لى أن أنتقم من هذا الخائن وأسلم هذه البلاد للعرب فانهم أحفظ منه للجميل . ولا يكفى ذلك بل أنى محرضهم على فتح أسبانيا الى طليطلة حتى يصيبوا مقتلا من رودريك فأشفى غليلى !) فسرنى عزمه على ذلك وهو الغرض الذى طالما تمنيته وسعيت فيه ، فجعلت أقوى عزيمته وأهون عليه الامر حتى قلت : (واذا أحببت فانى أسعى عنك فى مخابرة العرب وأجعل تسليمك على سبيل الخدمة لك ولهم ، وليس عن ضعف أو جبن) . فرضى منى بذلك وخرجت فخابرت موسى بن نصير أمير العرب فسر ورحب بيوليان وعرض عليه عبور بحر الزقاق الى العدوة الاخرى وفتح الاندلس ، على أن يكون هو معهم يطلعهم على عورات القوط ، فرضى موسى ولم يسعنى عند سماعى ذلك الا القدوم اليكم بهذا الخبر »

فلما بلغ الرجل الى هذا القول استولت الدهشة على الجميع خصوصا الفونس ، فانه وقع بين عاملين : عامل الغرام بفلورندا وقد انشغل خاطره بشأنها بعد أن علم أنها ليست فى بيت عمه ، وعامل اليأس من الملك اذا فتح العرب هذه البلاد لانها تخرج من سلطان القوط على الاطلاق . وأدرك يعقوب ما قد يخطر ببال الفونس من من هذا القبيل وخاف أن يغير ذلك من رأيه فى مقاومة رودريك . ثم تذكر مسألة فلورندا وما فى نفس الفونس على رودريك بشأنها فعلم أنه لا يمكن أن يصفو له مطلقا خصوصا بعد أن سمع شكاية فلورندا لأبيها . على انه أحب أن يثبت الفونس فى عزمه فقال وقد وجه خطابه الى الرئيس : « ان هذا الخبر الذى جاءنا به أخونا هذا من الأهمية بمكان عظيم . ولا نظن العرب الا فاتحين هذه البلاد خصوصا لأن يوليان معهم يدلهم على الطريق . وطبعا نحن نكون عونا لهم أيضا لاننا نخدم مصلحتنا ولا يغير ذلك شيئا من غرضنا الاول فى استرجاع الحكم ، لاننا قد سمعنا الآن أن العرب يستبقون البلاد على ما هى عليه ، وما نظنهم اذا علموا نصرة مولانا ألفونس لهم الا مسلمين اليه الاحكام مكتفين بالخراج والجزية والسيطرة الخارجية »

وكان ألفونس يسمع ذلك باهتمام ، وأصبح شديد الرغبة فى الخروج من ذلك المجتمع للبحث عن فلورندا ، على أنه أراد قبل الانصراف أن يستوثق من الامر الذى جاء من أجله ، فرد على كلام يعقوب قائلا : « ظن صاحبى يعقوب أن نقمتى على رودريك انما هى لرغبتى فى السلطة . ولكن الحقيقة أن الغرض الاول هو انقاذ هذه

البلاد من استبداده واطلاق سراح اليهود الذين أجبروا على النصرانية ظلما . فاذا حدث ذلك فليس يهمنى بعده من يملك »

فقال الرجل : « أؤكد لمولاى ان المسلمين اذا فتحوا هذه البلاد فعلوا كما ذكرت ، ولا أظنهم يستغنون عن مولاى فى حكم هذه البلاد بعد فتحها . فقد ولوا على طنجة رجلا بربريا اسمه طارق مع أن البرابرة لم يذعنوا لسلطانهم اذعانا تاما حتى الآن . ولعلهم يفعلون ذلك لقلة عددهم بالنظر الى سعة البلاد التى فتحوها واضطرارهم الى الاستعانة بغير العرب فى ضبط الاحكام . وعلى كل حال فاننا لا نألو جهدا فى اقناعهم بذلك »

فلما سمع ألفونس قوله اطمأن خاطره من هذه الناحية ولم يبق ما يشغله الا أمر فلورندا ، فالتفت الى الرئيس وقال : « هل من كلام يلقى علينا أم تأذنون بانصرافنا ؟ » . فقال الرئيس بعد أن وقف الجميع : « اذا شئت الانصراف فالامر فيه أمرك . ولكننا نرغب اليك أن تعتقد صدق عبوديتنا فى خدمتك ، وأن اليهود فى كل هذه البلاد يضحون بأموالهم وأنفسهم فى مصلحتك ، وعهد الله فى ذلك بيننا وبينك » . فشكره ألفونس وقال : « قد ذكرت لكم غرضى ، والله ولى التوفيق »

ثم تحرك يعقوب نحو الباب وأشار الى ألفونس فتبعه وخرجا من تلك الحجرة الى الغرفة الكبرى وفيها المقاعد حول المنضدة كما تقدم ، فمشيا مشية خاصة ، وخرجا من باب الى باب ، حتى انتهيا الى السرداب ومنه الى الكهف . فلما أطلا على الخلاء رأيا الفجر قد لاح فعلم ألفونس أنهم قضوا طول الليل هناك وأحس ببرد الخلاء . ثم نزعا الثوبين الاسودين وخرجا من الكهف يلتمسان المدينة ، وكان بابها قد فتح فدخلاها وسارا يقطعانها نحو الجسر وألفونس لا يتكلم لما ازدحم فى مخيلته من الامور الجديدة . ولم يعد يدرى كيف يعامل يعقوب بعد أن عرف أنه من أعيان اليهود ، لكنه ظل راغبا فى استطلاع بقية سره . على أنه كان قد استولى عليه الصداع بعد خروجه من السرداب اذ استقبله النسيم البارد على أثر سهره الطويل ، فأصبح لا يستطيع بحثا فى شىء . ولكن صورة فلورندا لم تبرح مخيلته ، وما سمعه من أقوالها الى والدها لم يغب عن سمعه .

ووصلا الى القلعة وهو ما زال ساكتا ، ويعقوب يراقب حركاته وسكناته ، وكان قد أدرك بعض ما يجول فى خاطره ، ولم يشأ أن يحادثه فى شىء غير الاستفهام عما يريده من طعام أو نحوه . وصعدا

الى غرفة ألفونس فأعد له يعقوب كل ما يحتاج اليه وهيأ له الفراش فنام ، ونام يعقوب أيضا

فلنتركهما نائمين بجوار استجة ، ولنذهب بالقارىء الى أفريقية (وهى بلاد البربر المعبر عنها اليوم بشمالى أفريقيا وفيها برقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش) لنبحث عن أحوال العرب هناك الى فتح الاندلس

— ٧ —

توفى الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٥ هـ فخلفه ابنه الوليد . وكان عبد الملك قد تولى الخلافة عشرين سنة ، قضى معظمها فى محاربة مناظريه عليها ، وكثيرا ما خاف خروجها من يديه ، ولكنه كان ذا سياسة ودهاء ، وقد نصره الحجاج بن يوسف أدهى عمال المسلمين وأشدهم وطأة فخلصت الخلافة لعبد الملك . فلما مات خلفه ابنه الوليد وقد نجا من المنافسين ، فانصرف همه الى توسيع المملكة الاسلامية فبعث بقتيبة بن مسلم نحو الشرق لفتح ما وراء النهر فأوغل فى بلاد الترك حتى أدرك حدود الصين ، وبعث أخاه مسلمة ابن عبد الملك شمالا لغزو بلاد الروم ففتح عمورية وهرقلة وقمونية وغيرها . وأنفذ موسى بن نصير الى أفريقية فولاه اياها وأمره أن يتم فتحها

وكانت أفريقية قد فتحت فى صدر الاسلام وألحقت بمصر ولكن أهمل شأنها لبعدها ومشقة المسير اليها . وأهل أفريقية الاصليون قبائل عديدة من البربر لهم ألسنة خاصة وعادات خاصة ، وبلادهم كثيرة الماشية والمرعى . وكانوا لما اشتغل الأمويون عن أفريقية بأنفسهم أيام عبد الملك قد اغتنموا الفرصة وحاولوا التخلص من حكم المسلمين فتمردوا وشقوا عصا الطاعة . فبعث اليهم عبد الملك حسان ابن النعمان فحاربهم وأخضعهم ونشر الاسلام فيهم ، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا الى الاضطراب . فلما تولى الوليد بلغه أنهم فى انقسام فيما بينهم فرأى أن يغتنم هذه الفرصة لتأييد سلطانه هناك وتتمة فتح تلك البلاد فبعث اليها بموسى بن نصير وهو عربى لخمى وكان قائدا باسلا حسن الاعتقاد فى الاسلام ، فنزل القيروان ثم تتبع البربر الى بلاد السوس الادنى وهم يفرون من بين يديه حتى اذا يئسوا من النصر جاءوا اليه مستأمنين وبذلوا له الطاعة ، فولى عليهم أناسا من

رجاله يضبطون أحوالهم ويعلمونهم القرآن وفرائض الاسلام

وكان فى جملة مواليه رجل من البربر اسمه طارق بن زياد ، وكان شجاعا اعتنق الاسلام وأظهر غيرة عليه ورغبة فى تأييده . فلما اتسعت فتوح موسى فى أفريقية ولى مولاه طارقا على طنجة وأعمالها ، وترك عنده ١٩٠٠٠ فارس من البربر ممن أسلموا وحسن اسلامهم . ورجع موسى الى أفريقية ولم يبق فى تلك البلاد غير خاضع للمسلمين الا مدينة سبتة وهى ميناء مشرف على « بحر الزقاق » المسمى الآن بوغازجبل طارق. وكان حاكمهما هوالكونت يوليان المتقدم ذكره

وكان جماعة البربر فى المغرب يعبدون الاوثان ، الا بعض من خالط الروم على شواطىء البحر فانهم اعتنقوا النصرانية . وكان لكل قبيلة أصنام وعبادات ، وكهنة يديرون شؤونها ويتولون الاحكام بين أهلها كماكان يفعل الكهان عند العرب فى الجاهلية ، وكان البرابرة يستشيرون كاهنهم ويسمى « ماربوط » فى شئون الحرب والسلم ، ويحملون اليه الهدايا من الماشية والحنطة والرقيق الاسود والابيض . وكان التجار وغيرهم من الروم والقوط يسطون على قبائل البربر فيخطفون الاطفال والغلمان ويحملونهم الى الآفاق يتجرون ببيعهم ، كما كانوا يتجرون بغلمان البيض من أهل أسبانيا وغيرها ـ والغالب أن يكون هؤلاء من أسرى الحرب ـ وكان بيع الاسرى شائعا فى تلك العصور . واشتهر برابرة المغرب خصوصا بركوب الخيل

وكان طارق بن زياد ينتمى الى قبيلة الصدف ، احدى قبائل البربر ، وقد نشأ فى الجبال وعاش عيشة البدو ، وتدين بالوثنية مثل سائر أهله ورفاقه ، وشب قوى البنية شديد البطش شجاعا وكان منذ نعومة أظفاره مشهورا بين رفاقه بالفروسية والقوة

وكان من جملة عشرائه غلام أبيض بعكس سائر البرابرة ، وكانت تقاطيع وجهه تختلف عن تقاطيع وجوههم ـ فالبرابرة ضخام الشفاه عراض الوجوه قصار الانوف سود الشعر والبشرة ، بينما هو أبيض الوجه أشقر الشعر أزرق العينين ، ولكنه بالنظر الى معيشة البداوة فى البرارى وركوب الخيل والغزو اسمر لونه قليلا وضخمت أعضاؤه كلها فأصبح غليظ العنق والذراعين ، واسع الصدر خشن الكف كث الشعر . وكانوا يسمونه (بدر) اشارة الى صباحة وجهه دون سائر رفاقه . وكان البرابرة يحبونه لخفة روحه وبسالته ، ولا سيما انهم كانوا يرون الشجاعة من خصائص السمر ، وان البيض ضعاف جبناء !

شب طارق وهو يرى هذا الغلام فى بيت أبيه ويعلم انه ليس أخاه

وان « ماربوط » قبيلتهم دفعه الى أبيه وأوصاه برعايته والاعتناء بتربيته لأنه توسم فيه الخير . فتصاحبا وتحابا . وكان طارق لايهنأ له عيش الا اذا كان بدر معه ، وكان بدر يعجب بطارق ويحبه كثيرا ويعد نفسه أخاه ، ولا يتخاطبان الا بالاخوة حتى عرفا بذلك عند سائر قبيلة الصدف

ولما جاء موسى بن نصير الى افريقية وصار عاملا عليها كان فى جملة من اتخذهم من الموالى طارق بن زياد ، حتى اذا ما رأى شجاعته وحسن اسلامه رقاه حتى جعله قائد حامية طنجة كما تقدم . وكان بدر رفيق طارق فى كل أعماله ، ولكنه لصغر سنه لم ينتبه له موسى وان كان قد أظهر فى الوقائع التى شهدها بسالة الابطال المحنكين ، لأنه لم يكن يهاب الموت خصوصا اذا كان مع أخيه طارق .

فلما عرض يوليان على موسى فتح الاندلس على أن يكون هو عونا له فى ذلك بعث موسى الى الخليفة الوليد يستأذنه ، فأذن له ، على أن يخوضها بالسرايا (ولا يغرر بالمسلمين فى بحر شديد الاهوال) . فرأى موسى أن يجرب ذلك برجال من الموالى المسلمين من غير العرب ولم ير خيرا من طارق يوليه قيادة تلك الحملة ، فأعد سبعة آلاف من الموالى والبربر — وفيهم بعض العرب — وسلم قيادتهم الى طارق ، وأمره أن يعبر بهم بحر الزقاق الى الاندلس ، فعبره فى سفن أعدها لهم يوليان حتى نزلوا جبلا على شاطئه وسمى منذ ذلك (جبل طارق)

ولم يلق طارق مشقة فى امتلاك الجبل ، ثم بلغه أن رودريك صاحب طليطلة يتأهب للمجىء اليه فى جند عظيم ، فكتب الى موسى فأمده بخمسة آلاف بربرى فصار جنده اثنى عشر ألفا وفيهم يوليان صاحب سبتة يدلهم على عورات البلاد ويتجسس لهم الاخبار، ويبث فى أهل البلاد أن العرب جاءوا الاندلس لابقصد الفتح والاستيطان وانما ليملأوا أيديهم من الغنائم ويخرجوا ، وحبب الى الاسبان أن يسهلوا لهم التغلب على رودريك حتى يتخلصوا منه ويعيدوا الاحكام لمن يريدون من ملوكهم الاصليين

□

كان المسلمون على ما ذكرنا من تيقظهم ونهوضهم للفتح والتوفيق حليفهم ، ورودريك فى بلاطه على نحو ما قدمنا من اشتغاله بالترف والرخاء ، وقد تركناه وهو يكاد يتمزق غيظا من أوباس لانتزاعه فلورندا من بين يديه بعد أن كادت تكون فريسته ، فلما رأى منه

عند محاكمته فى مجلس الاساقفة ماكاد يفضح أمره ، أسرع الى انهاء الجلسة بحجة تأجيل النظر فى تهمة أوباس الى جلسة أخرى كما تقدم وهو لاينوى العود الى ذلك ، وانما اتخذه ذريعة للحجر على أوباس فى السجن ريثما يبحث عن فلورندا . حتى اذا ما انفضت الجلسة عاد الى قصره والاب مرتين الى جانبه يطنب فيما يزعم انه انتصار على أوباس وارغام أنفه ، فكاد أن يصدق ذلك روروديك وينسى ما كان من الصواعق التى أنزلها أوباس على رأسه فكادت تسقط عرشه

وصل رودريك الى القصر وهو مقتنع بفظاعة ذنب أوباس وانه يستوجب أضعاف تلك النقمة ، فعزم على استبقائه فى السجن ريثما يدبر وسيلة لاستطلاع خبر فلورندا ثم ينتقم منه . ولم يعجل فى قتله لئلا يحتاج اليه فى البحث عنها . وكان أول ما قام به أن بث العيون والارصاد فى ضواحى طليطلة وفى الطرق المتشعبة منها ، ووعدهم باجزال المكافأة لهم اذا قبضوا عليها وعلى من عساه أن يكون معها

أما أوباس فانه ذهب الى سجنه منشرح الصدر ، لاعتقاده ببراءة ساحته وسلامة طويته ونبالة مقصده ، خصوصا بعد أن أتيح له كشف أعمال رودريك للمجمع ولوتلميحا . ومع انه لم يكن يرجو تغير المجمع على رودريك كان يهمه الانتصار للحق والاستجابة لصوت الضمير الحى ـ شأن الذين ينتظمون فى سلك الرهبنة رغبة عن ملاذ هذا العالم ، فهؤلاء اذا أخلصوا النية فى تبتلهم لم يكن فى الناس أقدر منهم على نصرة الحق لاستغنائهم عن الشهرة أو الثروة ، ولاحتقارهم سائر أمجاد هذا العالم الفانية ، وهم انما تبتلوا نفورا منها ـ وقد كان أوباس واحدا منهم ، ولم يكن سعيه فى ارجاع الملك لابن أخيه الا من قبيل نصرة الحق

أقام أوباس فى سجنه المؤقت بضعة أسابيع وهو لايبالى لوأقام فيه أعواما لولا اشتغال خاطره بفلورندا ، لأنه لايعلم أين هى ، ولا أين ذهب بها اجيلا وشانتيلا ، ولكنه رجح من قرائن مختلفة انهم لم يقعوا فى قبضة رودريك . وكان لثقته فى ذينك الشابين وغيرتهما وصدق نيتهما فى خدمته مطمئن البال على فلورندا ، على انه كان شديد الرغبة فى معرفة مقرها ومصيرها ، كما كان يفكر فى الفونس وفى المهمة التى أنفذه رودريك فيها ، وما قد يتعمده من أذيته اذا علم بسعيه فى انقاذ فلورندا وطلب الملك لنفسه . ولكنه لانطباعه على نصرة الحق

لم يكن يخاف بأسا ، ولاعتقاده ان الحق يعلو ولا يعلى عليه وان على الباغى تدور الدوائر ، كان يتوقع وقوع رودريك فى شر أعماله ، ذلك ما صرح به غير مرة حتى بين يدى رودريك نفسه !

والعاقل اذا تدبر مصير الحياة الدنيا مع ما يعتورها من الاخطار يرى الرجوع الى غير الحقيقة ضربا من الجنون . لأن الحقيقة هى الغالبة وهى وحدها التى تبقى . وان كنا فى الواقع لا نكاد نخطو خطوة الا والوهم قائدنا ـ ذلك حالنا فى كل علاقاتنا الأدبية والاجتماعية ، وهى علاقات أساسها اعتبارات وهمية لاوجود لها فى الطبيعة ، وانما هى مما صوره وهم الانسان مسوقا اليه بالضعف البشرى ، محاولا اثباته صونا لمصلحته فيما تدعوه اليه عواطفه

▭

شريش Xeres مدينة فى جنوبى اسبانيا تابعة لولاية قادس ، فى الطريق بينها وبين اشبيلية . تبعد عن مدينة قادس ١٧ ميلا ، وعلى مقربة منها نهر صغير هو وادى ليتة Gua Dalete الذى يبدأ من جبال ولاية قادس فى الشمال ، ويسير نحو الجنوب والغرب ، فيترك مدينة شريش الى يمينه ويجرى حتى يصب فى المحيط الاتلانتيكى فى خليج بالقرب من قادس . ومدينة شريش واقعة فى منبسط من الارض بين جبلين يكتنفانها من الشرق والغرب ، وبينها وبين مجرى النهر كثير من المغارس والكروم حتى لقد اشتهرت بكرمها وخمرها المعروفة باسمها (خمر شرى) الشائعة فى أوربا ، وهى خمر ثمينة يعتقونها ويتعاطونها على موائدهم ، ومعظم ما يصدر الى العالم منها يعصر من كروم ضواحى هذه المدينة

وتحتل كروم شريش مساحة كبيرة من ضواحيها الى النهر وما وراءه ، على أكمات مسطحة أو مائلة . وبين الكروم بيوت الزراع ، ومنها أبنية غريبة الشكل تتألف من غرف كبيرة قائمة على صفوف من الاساطين الدقيقة ، عالية السقف ، فى جدرانها منافذ عديدة يتخللها الهواء ، ويستخدمونها كمستودعات يختزن خمورهم فيها لتعتيقها بمرور الاعوام

وبجوار وادى شريش مما يلى وادى ليتة سهل سماه المقرى « فحص شريش » التقى فيه طارق البربرى ورودريك القوطى ، وفيه كانت الضربة القاضية بفتح الاندلس وتمتع العرب بغنائمها ومحصولاتها ، وهان عليهم الفتح بعد ذلك حتى طمعوا فى فتح أوربا كلها ، وكانت غاية فى الاضطراب والتضعضع ، فلواستمروا فى غزوه

لما لقوا من يصد سيوفهم أو يقف فى سبيل نبالهم ، ولـكنهم أجلوا المسير فضاعت منهم الفرصة

ففى صيف سنة ٧١٠ للميلاد ، أى بعد الحوادث التى ذكرناها فى طليطلة ببضعة أشهر، كانت مغارس الكرم فى شريش وضواحيها وعلى جانبى وادى ليتة قد نضجت أعنابها وأخذ بعض الفلاحين فى قطافها والبعض الآخر فى تدعيم ما ثقل حمله من الدوالى لـكبر العناقيد ، واشتغل آخرون فى اعداد المعاصر ، وغيرهم فى نقل بعض ما اختزنوه من خمور العام الماضى لاختزان خمر هذا العام

وكان يشتغل فى ذلك كله عائلات من أهل البلاد الاصليين أو ممن قضى عليهم بالاسر فى بعض الحروب فأصبحوا فى مصاف العبيد ، وفيهم من كان بين قومه من أهل الوجاهة وقد صبروا على مضض الذل ، وهو غير ثقيـل على أهـل ذلك الزمان لأنه كان جاريا على الجميع ، لكنه لم يكن يمنع تذمر أولئك الفلاحين من تلك الحال كما كان أكثرهم يشكون من صاحب تاج طليطلة

على ان الرأى العام لم يكن راضيا عن رودريك لأسباب تقدم ذكر بعضها ، وكانوا من جهة أخرى قد سمعوا بنزول العرب بلادهم عند بحر المجاز (بوغاز جبل طارق) فلم يكترثوا بنزولهم ولا علقوا عليه كبير أهمية . وكان هناك شيخ طاعن فى السن قضى حياته فى الاسفار متنقلا بين أسبانيا وما يقابلها من بلاد الشاطىء الافريقى حتى وصل الى مصر والشـام ، وشاهد بعض أحوال العرب فى أوائل ظهـور الاسلام ، فكان اذا ذكروا العرب بين يديه يقول : « لاينجينا من هذا الملك الا هؤلاء » ، فلما قيل له انهم عبروا البحر قال : « لقد قرب الفرج ! »

وكان شيخنا المذكور جالسا فى كوخه فى أواخر يوليو من ذلك العام (سنة ٧١٠) الموافق رمضان سنة ٩٢ هـ ، وحوله أولاده وأحفاده ، يشتغل النساء منهم باعداد الطعام واصطناع الالبان والجبن، والاولاد بعلف الماشية أو صنع السلال لحمل العنب عند قطافه ، ولا حديث لهم الا تقدير محصـول ذلك العام من العنب والخمر — وما لهم فى تقديره فائدة لأنه ليس ملكهم ، اذ لم يكن للفلاحين ونحوهم أن يقتنوا عقارا أو يملكوا بنيانا ، وانما الملك والسـيادة لطبقة الشرفاء وأكثرهم من الرومانيين والقوط ، ولم يكن للفلاحين سوى حصـة قليلة من النتاج . ولكن الانسان ميال بطبعه للبحث عن المجهول ، ولذا فقد اشتغل الشيخ وأولاده معظم ذلك النهار فى تقدير غلة تلك

السنة حتى احتدم الجدال بينه وبين أحدهم فشغلوا بذلك عما حولهم . وكانوا جالسين فى ظل دالية كبيرة قد نصبوا بأغصانها خيمة بشكل العريش ، وأجروا الماء تحتها بقناة تقف عندها الماشية للشرب والناس للاستقاء ، ويستظل بظلها أهل تلك القرية وما فيهم غير الشيخ وأولاده وأحفاده ونساء المتزوجين منهم

أقبل المساء وهم على هذا الحال وقد رجع من كان غائبا أثناء النهار فى اصلاح الدالية أو تدعيمها أو تنظيف المستودعات أو عمل السلال أو نقل القضبان اليابسة ليتخذوها وقودا لهم ـ فربما جاء الرجل وعلى رأسه سلة ، وتحت ابطه حزمة ، وفى جيبه صرة ، وفى يده رغيف ، وفى فمه لقمة ، يجر وراءه صبية : هذا يقود خروفا ، وذاك يسوق حمارا ، وذلك يحمل عنقودا قطعه قبل تمام نضجه وفيه حموضة قليلة وقد منعه أبوه عن ذلك فخبأه فى جيبه وجعل يأكله اختلاسا ، وأخوه بجانبه يهدده بالشكوى الى أبيه اذا لم يطعمه بعضه ، فيهرع هذا الى والدته يختبىء فى ثنايا ردائها وفى زعمه ان ذلك الرداء يحميه من كوارث الدهر وطوارق الحدثان ، كأنما هو راية كسرى أنو شروان ـ تلك عيشة السذاجة الفطرية : أن يقتات المرء من ثمار ما يغرسه ، وألبان ما يرعاه ، لامطمع له الا أن يجمع من ذلك ما يكفى أهله بقية العام للكساء والطعام ـ وهناك النيات السليمة والقلوب الطاهرة . هناك الاخلاص وصدق اللهجة ، اذا سمعت أحدهم يقول لك انه مشتاق لرؤيتك فهو يعنى ذلك حقا ، ولايقوله على سبيل العادة التى أساسها الرياء والتملق ! . والسعادة الحقيقية (اذا صح وجودها) انما تكون فى تلك المنازل المتواضعة بين تلك المغارس التى تتجدد أوراقها فى كل عام وتتجدد معها قلوب أهلها ـ ليس هناك ضغينة ولا حقد ، ولا طمع ولا نميمة ولا رياء ، لقلة حاجات الانسان وسهولة نيلها . لأن الحسد والحقد والرياء والنميمة انما يلجأ اليها الضعيف اذا كثرت مطالبه ، وعجز عن الحصول عليها بجده وسعيه ـ ولذلك كانت الرذائل من جملة أدران المدنية

على ان الفلاح الساذج انما يكون سعيدا فى ظل الامن والعدالة ، والا فهو من أتعس خلق الله . لأن الظلم يقضى على سعادته قضاء مبرما اذ يسلبه ينبوع تلك السعادة وهو غلة أرضه ـ فكيف اذا لم يكن هو صاحب الارض كما كان شأن فلاحى أسبانيا فى الاجيال الوسطى ؟ ! فهل يلام شيخنا اذا تمنى ابدال حكومته بغيرها ولو كان غريبا ؟ !

غربت الشمس وهى ترسل أشعة ذهبية تشرح الصدر، ويتطاول أهل المدن لرؤيتها فلا يتفق لهم ذلك الا قليلا ، ولو أراد الفلاحون لرأوها كل ليلة ولكنهم فى شاغل عنها وعن سواها من مناظر المساء باعداد العشاء والاجتماع تحت سقف المنزل أو تحت بعض الاشجار. فلماغابت الشمس اجتمع أفرادتلك العائلة ـ وهم يعدون بالعشرات ـ وفيهم الاطفال والاحداث والشبان والشابات، وأصغرهم سنا أكثرهم فرحا ، وأعظمهم اهتماما ذلك الشيخ لأنه لم يكن يهدأ له بال الا بعد أن يرى أولاده وأحفاده تحت ذلك العريش فى آخر النهار ، خصوصا بعد أن جند أمير تلك الناحية بعضهم بأمر رودريك ، ليكونوا له عونا فى محاربة العرب القادمين عليهم من جهة البحر

فلما ظن الشيخ ان الاجتماع قد تكامل تفرس فى أولاده فاذا احدى بناته ما زالت غائبة ، وكانت أعزهم على قلبه للطفها وحنوها فصبر هنيهة أخرى لعلها تأتى ، فلما استبطأها نادى امرأته قائلا : « أين مارية ؟ »

فبغتت الوالدة العجوز وكانت تحسبها مع اخوتها وأخواتها ، ولم تكن تهتم بمراقبة رجوع أحد لاعتمادها فى ذلك على زوجها ـ فلما سمعته يسألها عنها بغتت وصاحت : « ألم تأت بعد ؟ »

قال : « كلا أين تركتموها ؟ »

قالت : « تركتها فى المستودع الكبير فوق الرابية تغسل بعض الدنان والبراميل ، وتنقل بعض الجرار الملآنة الى جانب آخر ومعها أخوها بطرس » قالت ذلك والتفتت الى ما حولها ونادت : « بطرس ! » فجاء الغلام مسرعا فابتدرته قائلة : « أين تركت مارية ؟ » . قال : « تركتها فى المستودع الكبير . ألم تأت بعد ؟ » . قالت : « لا » . ولم تتم العجوز قولها حتى وثب بطرس من العريش وأسرع نحو ذلك التل وهو يقول : « سأعود بعد قليل » وانما حركه على تلك العجلة شعوره بأنه مخطىء برجوعه وحده دون أخته

وكان القمر فى أواخر أيامه والليل مظلم والطرق بين الكروم شاقة وعرة الا على أهلها فانهم كانوا يمشون بينها وأعينهم مغمضة ، لايعثرون بعود ولا حجر . ولبث الشيخ وأهله ينتظرون رجوع بطرس فى قلق فلما طال غيابه وثب الوالد الشيخ كأنه شاب فى عنفوان الشباب واقتص أثر ابنه عن طريق مختصر يعرفه ، وصعد على السلم الى باب المخزن وهو يلهث من التعب ، فوجد الباب مقفلا وليس عنده أحد فدقه دقات كثيرة فلم يسمع جوابا ، فتأمل فى الباب فرآه

موصدا من الخارج على جارى عادته فترجح عنده ان مارية خرجت منه وأقفلته . فوقف فى أعلى السلم ليستريح والتفت الى ما حوله فأطل على مدينة شريش ، الى ضفاف النهر من جهة ، وعلى كرومها من جهة أخرى والظلام يغشى بصره ، على انه رأى أنوارا على ضفة النهر من تلك الجهة عرف من تبعثرها وتعددها انها نيران جماعة كبيرة . ولم يكن يعهد فى تلك الجهات أناسا غير الفلاحين وعملة الحقول وهم لا يوقدون نارا على هـذه الصورة ، فاشتغل خاطره ونسى ضـياع ابنته ، ووقف هنيهة ينظر الى تلك النيران ويرى أشعتها تتلألأ فى مجرى النهر كأنها مصابيح موقدة تحت الماء تهتز أضواؤها باهتزاز أمواجه ، ولولا ذلك لم يعرف ان تلك النيران موقدة على ضفاف النهر ثم ما لبث أن سمع حركة ركض ومرور أناس بين الدوالى فأنصت فسمع صوت امرأته ومعها بعض أولاده فعلم انهم جاءوا لاستطلاع خبر مارية فناداهم فكان أول صوت سمعه منهم صوت امرأته وهى تقول : « أين مارية ؟ » فلما سمع الشيخ ذلك اقشعر بدنه وزاد بلباله وقال : « أين بطرس .. هل عاد اليكم ؟ »

وكانت العجوز قد وصلت الى أسفل السلم فأجابت وهى تمد يدها الى اخمص قدمها وتستخرج شوكة أصابتها فى أثناء جريها : « عاد بطرس ولم يجدها ! »

فنزل الشيخ عن السلم حتى التقى بامرأته ومعها بضعة من أولاده فقال لهم : « يظهر لى ان مارية فقدت فى أثنـاء رجوعها من هنا ، فلنتفرق وليسر كل منا فى طريق حتى نلتقى فى البيت ، فمن وجدها منا فلينبه الباقين بالنداء حتى يكفوا عن البحث ، ولتكن العلامة فيما بيننا هذه اللفظة (يامار بطرس) . أما أنا فاذا أبطأت بالرجوع فلا تقلقوا لغيابى» . فأرادت امرأته أن تستفهم منه عن السبب فلم يصبر لسماع كلامها وانحدر نحو النهر ،يثب بين الكروم من تل الى تل ، يعثر تارة بالعليق وطورا بالحجارة ، وهو يتطلع نحو النهر مخافة أن يخطىء الطريق لاشتداد الظـلام ، فاذا توارى النهر عن عينيه وراء بعض الدوالى العالية أو وراء التلال تحاشى أن ينحرف فتبعد المسافة عليه ، فلما قرب منه رأى النور على ضفتيه ، ثم سمع جعجعة عرف انها أصوات الجمال وكان قد سمع مثلها فى أثناء أسفاره ـ اذ لم يكن لأسبانيا عهد بها من قبل ـ فتنسم رائحة العرب ، وأدرك انه على مقربة منهم ، وتذكر ما سمعه عن نزولهم عدوة الاندلس فتحقق انه بجانب معسكرهم ، ولكنه استبعد سهولة وصولهم الى ذلك المكان

وبعد هنيهة وصل الى أكمة وقف عندها وتفرس فيما بين يديه ، فاذا هو مطل على سهل كبير ينتهى الى النهر ، وعلى الضفة البعيدة خيام تتخللها النيران ، ورأى على الضفة القريبة فى طرف السهل نارا وبالقرب منها خيمة كبيرة لم يتبين لونها لشدة الظلام ، فلبث برهة يفكر فى مارية وضياعها حتى هم بالرجوع للبحث عنها فى مكان آخر ، ثم حدثته نفسه بالنزول الى تلك الخيمة واستطلاع خبر هؤلاء القوم قبل رجوعه ولم يخف بأسا لما علمه فى أثناء أسفاره فى افريقية والشام من عدل العرب ورفقهم بأهل البلاد التى يفتحونها . وكان قد تعلم بعض الالفاظ العربيـــة مع غرابة تلك اللغة عنده وبعدها عن لغته ، وكانت السنون قد علمته الشجاعة ورباطة الجأش فنزل من الاكمة وسار يلتمس تلك الخيمة وهو يعجب لانفرادها هناك مع كثرة الخيام على الضفة الاخرى، فلما دنا منهاطرق أذنه صوت ارتعدت لهفرائصه بغتة واستغرابا ، اذ سمع مارية داخل الخيمة تتكلم وصوتها مختنق من البكاء ، فلم يعد يتمالك عن الوثوب نحو الخيمة وهو لايهاب أحدا ولا يعى شيئا من فرط ما هاج من عواطفه خوفا على ابنته ، فاعترضه رجل واقف بباب الخيمة وقد تقلد سيفا ورمحا وهم بالقبض عليه وهو يقول بالعربية : « من أنت ؟ » ففهم الشيخ مراده فأجابه بكلمات متقطعة انه يريد الدخول الى الخيمة ، فاستمهله الرجل ريثما دخل ثم عاد وأشار اليه فدخل وأجال بصره فى أطراف الخيمة للبحث عن ابنته فرآها جالسة فى بعض جوانبها على الارض ، وحالما وقع بصرها على أبيها مع ضعف نور المصباح هناك وثبت نحوه وهى تصـــيح : « أبى أبى ! » فاستقبلها الشيخ بين ذراعيه وقد دمعت عيناها من البغتة والفرح ، ونظر الى صدر الخيمة فاذا هناك رجل كبير الهامة عليه العمامة والجبة فعرف انه من البربر ، وبجانبه رجل بلبـــاس القوط لم يحدق فيه الا قليلا حتى عرف انه يوليان صاحب سبتة ، ورجح أن يكون صاحبه هو طارق بن زياد ، اذ كان قد سمع باسمه ، وعرف انه هو الذى يقود جيوش المسلمين ، وان يوليان قد اتفق معهم على القوط ، وكان يحسب ذلك اشاعة كاذبة ، فلما رآه تحقق الامر وأيقن ان العرب غالبون لا محالة

مرت كل هذه الخيالات فى ذهن الشيخ فى لحظة وهو معانق ابنته يخفف عنها ، وسمع صاحب سبتة يقول له بلغة الاســبان : « لعل هذه الفتاة ابنتك ؟ »

قال : « نعم يا مولاى » . قال : « لاخوف عليها فانها فى أمان على

كل حال . ولا تظن مجيئك غير شيئا من عزمنا فى شأنها ، فقد كان الامير عازما على ارجاعها اليك آمنة سالمة . وأما بكاؤها الذى تراه فانما هو من خوفها ، وقد ظنت هؤلاء العرب يرتكبون مثل ما يرتكبه حاكمكم رودريك ، فان بمثل هذا الفعل الشنيع سيخرج سلطانه من يديه ان شاء الله ! » قال ذلك وانقبضت سحنته للحال فلم يدرك أحد سبب ذلك الانقباض ، على انه استطرد الكلام قائلا : « وأما سبب مجيئها الينا فان بعض رجال الامير خرج فى أصيل هذا اليوم لحاجة فرآها فى الطريق فجاء بها وهو يحسبها من قبيل السبايا ، فلما علم الامير بذلك أنكره عليه ، وقد كانا فى جدال عنيف فى هذا الشأن الى ساعة دخولك »

ولم يتم يوليان كلامه حتى وثب الى وسط الخيمة شاب بلباس العرب وعلى رأسه عمامة صغيرة ولكن سحنته غير سحنة العرب والبرابرة وهو فى مقتبل العمر تتدفق الصحة من عينيه وجبينه ونظر الى يوليان وهو يقول : « أراك حرمتنى من غنيمتى رغبة فى مرضاة أبناء جلدتك . . ! »

فأجابه طارق وهو يبتسم وقال : « لاتعجل يا بدر ، فانك ستصيب كثيرا من الغنائم . فنحن فى أول الطريق وغدا تلتقى بجند طليطلة فما تصيبه من الغنيمة أو السبايا فهو لك . أما الآن فما نحن فى حرب ، ولا يمكننا أن نعد هذه الفتاة سبية . وهذا أبوها شيخ قد طعن فى السن ورأيت ما كان من لهفته عليها ، فهل يليق بنا أن ننغص عيشهما بلا حق ، والاسلام انما يدعو الى العدل والرفق ؟ ! »

ثم التفت طارق الى الشيخ وقال : « انصرف أيها الشيخ الى منزلك وأنت فى أمان حتى تبلغه . واعلم اننا لم نقدم الى هذه البلاد الا رحمة بأهلها ، وان ديننا يأمرنا بالرفق والاحسان ، فكن على يقين أنت وكل أهل الاندلس أن من يكف يده عن حربنا فهو فى ذمتنا ولا خوف عليه ، وأما الذين يجسرون على مناوأتنا فما عندنا لهم الا السيف . . ! » ثم نادى : « يا غلام ! » فدخل رجل بربرى من أعوانه فقال له : « اصحب الشيخ وابنته حتى يصلا الى مأمنهما . . »

فهم الشيخ بتقبيل يد طارق فمنعه وطيب خاطره وصرفه ، فخرج وهو يثنى على ما لقيه من طارق وقال فى نفسه : « بمثل ذلك يملك الامير الرعية ولا يملكهم بالعنف أو الظلم . . »

— ٨ —

تركنا فلورندا وخالتها والرجلين اجيلا وشانتيلا هائمين على وجوههم فى ضواحى طليطلة . وكان السبب فى ذلك كما علمت من سياق الرواية ان اجيلا وشانتيلا كانا فى انتظار فلورندا عند أسفل القصر فى تلك الليلة الشاتية المرعدة ، فلما تيسر لها الافلات من بين يدى رودريك بعد أن بغته أوباس كما تقدم أسرعت الى النافذة ، وحملت ما استطاعت حمله من الثياب وأيقونة صغيرة للسيدة العذراء كانت شديدة الاعتقاد بكرامتها ، فخبأتها بين ثيابها والتفت بالقباء وخالتها العجوز تساعدها فى التأهب ، فلما أتما الاستعداد بقدر الامكان أطلت العجوز ونادت وكان الرجلان على أهبة العمل فتسلقا الشجرة وتعاونا على أنزال فلورندا سالمة ، ثم العجوز وما بقى من الامتعة الضرورية ، ونزلوا جميعا من الحديقة والرياح تهب والرعود تقصف ، وهم فى شاغل من الخوف عن كل ذلك حتى نزلوا الى القارب .. وكانت فلورندا تتوقع أن ترى الفونس فيه لأنه هو الذى كتب اليها أن توافيه اليه ، فلما رأته خاليا اشتغل بالها واستحيت أن تسأل عنه ، فخاطبت خالتها فى الامر فالتفتت العجوز الى الرجلين وقالت : « وأين الامير الفونس ؟ » . فقال شانتيلا : « لم يأت معنا يا سيدتى » . قالت : « وأين هو ؟ » . فخاف شانتيلا أن يكون فى قوله ما يسىء فلورندا لعلمه بما بينها وبين الفونس من الحب المتبادل، لأن الرجلين كانا قد أدركا سر المهمة التى انتدبهما لها أوباس، فاشتغل بالتجديف مع أخيه لتحويل القارب الى جهة مجرى النهر ، وكان المصباح قد انطفأ من شدة الرياح . على انه لم يجد مندوحة عن الجواب على سؤالها فقال لها : « نظنه فى منزل المتروبوليت لأنه هو الذى أمرنا أن نذهب بك الى هناك »

فسكن روعها ولكنها ما زالت مضطربة الخاطر اذ لم تكن تتوقع أن يكل الفونس انقاذها الى سواه

سار بهم القارب وهم يطلبون ضفة قريبة من بيت أوباس لأنهم كانوا على موعد للذهاب اليه ومعهم فلورندا ، ولكن طال بهم المسير فى النهر لهياجه واضطرابه ومقاومة الرياح لهم فضلا عن شدة الظلام .. وكانت فلورندا كلما خافت خطرا استجارت بالله واستخرجت الايقونة وقبلتها فيرتاح خاطرها ويطمئن بالها . وتلك ثمرة من ثمار الايمان ، اذ ليس أفضل منه وسيلة لتعزية الانسان

مضى هزيع من الليل قبل نزولهم الى البر ، فلما نزلوه تشاوروا فيما يجب أن يفعلوه ، فقال اجيلا وكان أسرع خاطرا وأكثر اقداما من أخيه : « أرى أن تمكثوا هنا وأذهب أنا الى بيت أوباس ، ثم أعود بمن يحمل هذه الاحمال » . فاستصوب الجميع رأيه فمضى حتى أشرف على المنزل فرأى حوله فرسانا من جند الملك فأجفل وتراجع وقد شغل باله بسبب وجود الجند هناك . ثم ما لبث أن رأى بعضهم يخاطب أوباس فتربص فى بعض المنحنيات ليسمع ما يدور بينهما ففهم من خلال الحديث ان الملك بعث بالجند للقبض عليه . فلم يخامره خوف على أوباس لفرط اعتقاده باقتداره ، ولكنه أوجس خيفة على فلورندا لاعتقاده أن سبب ذلك القبض متصل بفرارها . فلما توارى الركب عنه تحول نحو القصر على أمل ان يخاطب بعض الخدم فمشى وهو يسترق الخطى استراقا ويحسب الدخول سهلا بعد ذهاب الحرس ، فاذا هو بكوكبة أخرى قد أحدقوا بالقصر واستخدموا القوة لاخراج من فيه حتى علت الضوضاء وبالغوا فى التخريب والتعذيب !

فلما رأى اجيلا ذلك أيقن بالخطر الذى أصبح هو معرضا له هناك ، وبما يهدد فلورندا من الاخطار الجسيمة اذا اطلع الملك على مقرها . فهرول مسرعا ولم يعد له شاغل سوى بذل كل ما فى وسعه ووسع أخيه فى سبيل انقاذها وحمايتها !

▭

وكانت فلورندا جالسة على الارض وفى حجرها صرة قد اتكأت عليها بكوعيها والتفت بطرفها التفافا شديدا لشدة البرد والريح . وكان التعب قد غلب على قواها حتى مالت الى النعاس خصوصا بعد أن ظنت نفسها قد نجت من حبائل ذلك الرجل الشرير ، فأسندت رأسها على كفها وأغمضت جفنيها فنامت . ولما رأتها بربارة نائمة أجازت لنفسها الارتياح هنيهة . أما شانتيلا فانه ظل ساهرا قلقا وقد استبطأ أخاه وحسب لغيابه ألف حساب ، وربما لامه لابطائه ومغادرته اياهم عرضة للهواء والبرد ، وتوهم انه لو ذهب هو فى تلك المهمة لكان أقدر منه على اتمامها وملاحظة ما قد ينجم عن الابطاء من الاضرار . على انه ما لبث أن رآه عائدا وحده فذعر لانفراده ، ثم سمعه يقول : « هلم بنا سريعا حتى نخرج من هذه الضواحى الليلة ، لأنى لا أحسب الملك الا وهو يبث علينا العيون والارصاد من صباح الغد ! »

فأفاقت فلورندا من رقادها مذعورة وصاحت : « ويلاه والى أين

نذهب ؟ نجنى يا مخلصى ، أين الفونس ؟ »

فقال : « ليس فى المنزل أحد يا سيدتى »

قالت : « ولا أوباس ؟ »

قال : « لقد رأيته وهو مسوق بين أيدى الجند الملوكى الى قصر الملك . ثم رأيت الجند دخلوا بيته وأخرجوا كل من كان فيه من الخدم ، ولم أسمع ذكرا لسيدى الفونس بينهم ، فلعله لايزال فى منزله »

فقطع شانتيلا كلام أخيه وقال : « ان سيدى الفونس لم يرجع الى قصره قبل خروجنا منه »

قالت : « أين كان قبل خروجكم .. ؟ »

قال : « كان قد ذهب فى مهمة خاصة بأمر الملك » . فتذكرت للحال ما سمعته من رودريك فى تلك الليلة عن ابعاد الفونس ، وكانت تحسبه يقول ذلك على سبيل التهديد ، فأيقنت عند ذلك صدق قوله ولكنها لم تدر هل أبعده أو حبسه ، فأعادت السؤال قائلة : « هل أنت واثق بذهابه ، وهل تعلم الى أين ؟ »

قال : « انى واثق بخروجه من قصره وحوله الحرس الملوكى ، وأما الى أين ذهب فلا أعلم . ولكن الغالب انه سار فى مهمة الى بعض البلاد »

فعاد اجيلا وقطع كلام أخيه فقال : « أظنه أرسل فى قيادة حملة الى بعض البلاد لاخماد ثورة أو مخابرة بعض الكونتية مما يحدث كثيرا فى هذه الايام . ولا بأس عليه باذن الله . ومتى استقر بنا المقام وأمنا العيون والارصاد بحثنا عن مكانه ، وبذلنا كل ما يؤول الى راحتك وراحته فاننا صنيعته وأرواحنا له . والآن لابد لنا من مغادرة هذه الجهات حالا ، والفرار من الظلم فضيلة ، ولنترك البحث فى مصيرنا الى وقت آخر . دعونا نرجع الى القارب ونسير مع مجرى النهر حتى نخرج من حدود هذه المدينة وأهلها وحراسها فى شاغل عنا بالامطار والزوابع ، فاذا صرنا فى مأمن نبحث فى الذى نفعله » .

قال ذلك وتقدم الى فلورندا يريد مساعدتها فى النهوض فنهضت وتحولت الى القارب وقد عادت اليها مخاوفها ، وتبعتها خالتها وهى تحمل صرة الثياب وبقى هناك صندوق تعاون الرجلان على حمله ونزلا فى القارب وأخذا فى التجديف . وكان النوء قد خف وساعدهم مجرى الماء حتى خرجوا من ضواحى المدينة وأصبحوا فى مكان لايرون فيه انسيا ولا يسمعون صوتا غير نقيق الضفادع ، وكان قد مضى معظم الليل فأووا بالقارب الى منعطف وراء تلة تداروا بها من الرياح . وقال اجيلا عند ذلك لفلورندا : « نحن الآن فى مأمن يا سيدتى فاذا

شئت الرقاد الى الصباح لابأس عليك ، وكذلك الخالة ، وأما نحن فاننا نتناوب الحراسة ريثما يطلع النهار ونبحث فى الجهة التى نسير اليها »

ونامت فلورندا بقية ذلك الليل نوما مضطربا ، فلما أصبحت تناولت قطعة من نسيج كتبت عليها الكتاب الذى تقدم نصه ، واستدعت اجيلا فدفعت الكتاب اليه والدمع يترقرق فى عينيها من شدة تأثرها وهى تكتبه وقالت : « لقد رأيت من مروءتك ومروءة أخيك هذا ما يوجب سرورى وامتنانى كثيراً ، وقد وعدتنى بالبحث عن الفونس ، وأطلب اليك فوق ذلك أن توصل هذا الكتاب الى أبى .. هل تعرف من هو ؟ »

قال : « نعم يا سيدتى انه الكونت يوليان صاحب سبتة . ولكننى أرى يا مولاتى قبل كل شىء أن ننزلك فى مكان أمين أعرف الطريق اليه ، اذا أنا عدت بالجواب اليك »

فالتفتت فلورندا الى خالتها وقالت : « ما رأيك يا خالة ؟ . أين تظنين مقامنا أقرب الى الامن والسلامة ؟ »

قالت : « لايخفى عليكم ان فى هذه البلاد أديارا ينقطع فيها الرهبان عن العالم تعبدا لله تعالى ، وتكون هذه الاديار غالبا فى البرارى أو فى الجبال ، ومنها مالا يدخله الناس الا نادرا . فالرهبان منقطعون عن العالم برمته ، فاذا أقمنا فى أحدها كان ذلك أستر لحالنا ريثما يتيسر أمرنا »

فتقدم اجيلا وكأنه تذكر أمرا ذا بال وقال : « لقد أذكرنى كلام حضرتها أديارا للعذارى ، فالاقامة فيها أولى لمولاتى لأنها تكون بين عذارى مثلها »

فقطعت العجوز كلامه وقالت : « صدقت يا اجيلا ، ولكننا لانستغنى عن أحدكما معنا ، وانى أعرف ديرا بين هذه الجبال (جبال طليطلة) بعضه للرهبان والبعض الآخر للراهبات ، وكل طائفة منهما فى قسم من الدير لاعلاقة لها بالطائفة الاخرى ولا بسائر العالم الا نادرا . ولا يلتقى الراهبات والرهبان معا فى الكنيسة فى أوقات الصلاة . وقد علمت من قواعد هذه الرهبنة ان الراهبة لايمكنها مخاطبة أحد من الناس حتى رئيس الدير أووكيله الا بوجود راهبتين أخريين ، وهذا التدقيق نافع فى منع المحظورات . فأرى اذا استحسنت فلورندا أن نذهب الى ذلك الدير فنقيم أنا وهى فى قسم الراهبات ، وأنت وأخوك فى قسم الرجال ، حتى نرى ما يكون »

فالتفتت فلورندا وقد أشرق وجهها وقالت : « بورك فيك ياخالة ، لقد نطقت بالصواب . هلم بنا الى ذلك الدير . هل هو بعيد من هنا ؟ »

قالت : « لا أظنه يبعد الا يوما وبعض اليوم ، وطريقنا اليه غير مطروق فلا نخاف عينا ولا رصدا . وأظننى أعرفه وقد مررت بذلك الدير منذ بضعة أعوام »

قالت فلورندا : « أرى ياخالة قبل كل شيء أن يذهب اجيلا بالكتاب الى أبى ، فاذا عاد منه بخير جاءنا الى ذلك الدير » . ثم التفتت فلورندا الى اجيلا وقالت : « سر بحراسة المولى ، ومتى رجعت تعال الى دير الجبل الذى سمعت خبره . واذا استطعت معرفة خبر الامير الفونس فانك أعقل من أن أوصيك بالذى ينبغى أن تفعله »

فانشرح صدر اجيلا لهذا الاطراء وانحنى بين يديها وودعهم وانطلق . أما هم فخرجوا من القارب وحمل كل منهم ما يستطيع حمله ، وأوغلوا بين التلال والجبال ودليلهم العجوز وهى تسير أمامهم كأنها تلتمس منزلا تذهب اليه كل يوم ، فقضوا فى سيرهم عدة ساعات لم يلتقوا فى أثنائها بعابر ولا قاعد ، وأكثر التلال التى قطعوها جرداء الا ما كان على جوانب الاودية من شجر ملتف مهمل ، قلما امتدت اليه يد الانسان . وكانت الامطار قد أغرقتها فى الليل الماضى وغمرتها السيول . فلما أشرقت الشمس فى ذلك الصباح سرى فى الجو بعض الدفء . على ان وعورة الطريق أتعبتهم خصوصا فلورندا لأنها لم تتعود هذه المشاق ، ناهيك بما فى قلبها من لواعج الحب وما ينتابها من الهواجس والاشواق

قضوا معظم النهار فى المسير ، وباتوا وشانتيلا حارسهم وعونهم فى كل ما يحتاجون اليه من الطعام ونحوه ، ومشوا معظم اليوم التالى ولا حديث لهم الا تكرار ما فات ، حتى اذا مالت الشمس نحو الاصيل وصلوا الى سفح جبل أطلوا منه على بناء شامخ أشبه بالحصون منه بالاديار ، وظهر لهم لأول وهلة انه على قمة ذلك الجبل . فلما شاهدته العجوز صاحت : « هذا هو ، قد وصلنا ، ولكن لابد لنا من الصعود »

قالت فلورندا : « فلنصعد » ، ولملمت أطراف ثيابها وهرولت اليه مشمرة لشدة رغبتها فى الوصول والاستراحة ، وارسال شانتيلا لاستطلاع الاخبار من طليطلة عن مصير الفونس ، وعن حال أوباس ، ورأى رودريك فى فرارها . . كذلك هرولت العجوز وشانتيلا بين يديهما حتى وصلوا الى الدير ، فاذا هو فى ساحة فى سفح ذلك الجبل ، وهو بناء قديم العهد غريب الشكل ، حوله سور من الحجارة

الضخمة الكبيرة عظيم الارتفاع ، ليس فيه من النوافذ سوى شقوق مستطيلة فى أعلاه وباب واحد فى بعض جوانبه ، لا يتناسب صغره مع ضخامة ذلك السور ، وفى أعلاه برج حصين كأنه قلعة ، وهو مرقب يقيم فيه حارس الباب

وقفت فلورندا وخالتها وشانتيلا وهم يلهثون من التعب ويعجبون من منظر ذلك الدير . فلما استراحوا قال شانتيلا : « هل تأذن مولاتي بأن أقرع الباب واستأذن فى النزول ؟ » . قالت : « افعل »

فتقدم حتى وقف بالباب فاذا هو مصفح بحديد سميك استدل على سمكه من ضخامة قمم المسامير التى كانت بارزة فوق سطحه ولا يزيد علوه على قامة الانسان الا قليلا . فتفرس فى جوانبه لعله يرى حلقة يدق بها فلم يجد شيئا ، ثم وقع بصره على حبل مرسل من ثقب فى أعلى الباب نحو الخارج فأمسكه وشده ، فسمع جرسا يدق فى الداخل فعلم انه قد أصاب المحج . وصبر بعد الدق هنيهة فرأى رأسا قد أطل من نافذة صغيرة فى البرج المذكور وقد جلله شعر ناصع البياض حتى لم يظهر من وجهه الا أنف بارز وعينان تتلألآن فى غورين ، فوقهما حاجبان بارزان ، وفوق الحاجبين جبين أصبحت غضونه كالميازيب أو الاخاديد !. وأطل الشيخ برأسه ولبث برهة لا يتكلم فلم يصبر شانتيلا على سكوته لعلمه بما ألم بفلورندا من التعب فصاح فيه : « أما من مأوى عندكم للغرباء ولو الى حين ؟ »

وما أتم شانتيلا كلامه حتى تراجع الشيخ من النافذة واختفى ولم يبد جوابا . ولم تمض برهة حتى سمعوا قلقلة مفتاح وراء الباب توسموا منها قرب الفرج — وطال زمن القلقلة ثم سمعوا صريرا فتدانوا الى الباب يتوقعون فتحة فاذا هو لا يزال مقفلا ، فلبثوا ينتظرون ، فعادت القلقلة وعاد الصرير ولكن الباب لم ينفتح فملوا الانتظار ، وخافوا أن يكون وراء ذلك ما يوجب الخوف ، وخصوصا فلورندا فانها كانت واقفة وبصرها ثابت فى ذلك الباب

وأما العجوز فقد كانت جالسة على حجر ، وقد ذبلت عيناها من أثر ما نالها من التعب حتى كادت تنام ، واذا بصرير عنيف استلفت انتباهها فنظرت فرأت الباب ينفتح بتثاقل كأن فاتحه يجر ثقلا كبيرا ! فظلت فلورندا فى مكانها وتقدم شانتيلا نحو الباب ، فاستقبله ذلك الشيخ وعليه لباس الرهبان فى أبسط أحواله ، وهو رداء أشبه شىء بالعباءة يستر بدنه الى الركبة وساقاه عاريتان وقدماه حافيتان وقد أصبح اخمصاهما كالنعال لطول ما مر بهما من مصادمة الاحجار

والاحتكاك بجذوع الاشجار ! . خرج الشيخ الراهب وبيده عكاز أعقف الطرف ، قبض على عقفته بأنامل كأنها عظام عارية قد تصلبت مفاصلها ، ونتأت من قفا الكف حتى أصبح بسطها مستحيلا ، وكأنها خلقت للقبض على ذلك العكاز وما زالت قابضة عليه حتى تصلبت وهى منقبضة !

وكانت تلك العباءة قصيرة الاكمام لا تكاد تصل الى كوع الراهب الذى تعظم جلده وخشن ، حتى تحسبه اذا نظرت اليه كأنه أخمص القدم ـ وكأن الشيخ قضى عمره يدبدب على أخمصيه ومرفقيه

▭

ظل الشيخ واقفا بالباب فأسرع الجميع اليه وأولهم شانتيلا ، فانه نزع قبعته عن رأســه وهم بتقبيل يد ذلك الشيخ ، وكذلك فعلت فلورندا وخالتها ، فقال الراهب الشيخ وفى غنة صوته خشونة البرية : « ما الذى جاء بكم الى هذا المكان ؟ »

قال شانتيلا : « جئنا نلتمس البركة من صاحب هذا الدير ، فهل من مانع ؟ » . قال : « كلا . ولكن هذا الدير قسمان : قسم للرهبان ، وقسم للراهبات . فأيهما تريدان ؟ » . قال : « كما تستحسنون » قال : « وعلى كل حال فان ذلك راجع الى رأى الرئيس العام » . ثم تحول نحو الداخل وأشار اليهم أن يتبعوه فدخلوا فى أثره ، فاذا بالباب يستطرق الى ممر قصير فيه بابان آخران مصفحان بالحديد مثله ، وينتهى الى فناء واسع سقفه القبة الزرقاء . ولم يطأوا الفناء حتى سمعوا الابواب تقفل ، ونظروا الى ما حولهم فرأوا جدران ذلك الدير هائلة الارتفاع ، ووجدوا أنفسهم فى باحة مرصــفة بالحجارة الصلبة ، أو لعلها من صخر الجبل نفسه ، وأحست فلورندا كأنها فى سجن حصين !

وبعد أن مشى بهم الراهب بضع خطوات نحو اليسار انتهى الى باب يلى الجدار الذى دخلوا منه ففتحه وأدخلهم فيه ، فاذا هى غرفة تستطرق الى عدة غرف ، فأشار اليها وقال : « هذه دار الاضياف ، أقيموا فيها ريثما أقابل حضرة الرئيس وأخبره بأمركم ، فالذى يأمر به صائر » . قال ذلك وتحول يريد الخروج ، فسمعوا جرسا يدق ورأوا الراهب حالما سمع دق الجرس ألقى العكاز من يده ورسم اشارة الصليب ثم صالب يديه على صدره ووقف وقوف الاحترام ، ففعل الجميع مثــل فعله وهم لم يدركوا الغرض ، على ان الراهب ما لبث أن التفت اليهم وهو يقول : « لاسبيل لنا الى مخاطبة الرئيس

الآن لأن الصلاة قد آن وقتها ونزل الجميع الى الكنيسة ، وأنا ذاهب أيضا وبعد الصلاة نرى ما يكون »

فلما سمعت فلورندا ذكر الصلاة انشرح صدرها وتذكرت ما كان من صلاتها الحارة منذ بضعة أيام وكيف أنقذها الله بها ، فتقدمت الى الراهب وهى تخاطبه بلسانها العذب وصوتها الرخيم : « ألا يسوغ لنا حضور القداس واستماع الصلاة يا سيدى ؟ » قال : « الصلاة لا تحتجب عن مسيحى ، والكنيسة لا تقفل أبوابها فى وجه أحد »

ثم مشى الراهب أمامهم وهم يتبعونه فى وسط تلك الباحة حتى انتهوا فى صدرها الى باب كبير اشتموا قبل الوصول اليه رائحة البخور ، فعلموا انه باب الكنيسة . فتأدبوا ودخلوا منه فى أثر الراهب ، فأطلوا على مذبح فى صدره وقد قسم صحن الكنيسة الى شطرين : شطر للراهبات ، وشطر للرهبان . فهداهم الراهب الى مكان وقفوا فيه لاستماع القداس ، وكانت فلورندا أكثرهم تخشعا ، فكم قرعت صدرها وكم توسلت الى الله والى السيد المسيح أن ينجى خطيبها من المهالك ويعيده اليها سالما . فلما انقضت الصلاة أرفض الجمع فخرج الراهبات من باب ، والرهبان من باب آخر ، وعاد الراهب العجوز بفلورندا وصاحبيها نحو دار الاضياف ، ولحظ وهم خارجون ان فلورندا استخرجت من جيبها نقدا وضعته بين يدى الايقونة التى كانت تصلى أمامها ، ورأى النقد أصفر لامعا فاستدل من ذلك على أن الاضياف من أهل الثروة وربما تبرعوا بمال كثير لصندوق الدير ، فرافقهم الى دار الاضياف وهرول راجعا وهو يتوكأ على عصاه حتى أتى الى الرئيس وقص عليه ما كان من قدوم هؤلاء الغرباء الى أن قال : « ويظهر من قيافتهم ولهجة لسانهم انهم من أهل طليطلة، ويؤيد ذلك مارأيته من كرمهم، فهل تأذن لهم بالمجىء اليك ؟ »

قال الرئيس : « بل أرى أن أذهب أنا اليهم »

قال ذلك ونهض وعليه رداء بسيط أيضا ولكنه أرقى حالا من رداء الراهب البواب ، وهو مؤلف من عباءة أطول قليلا من تلك وقد تمنطق عليها بحبل واحتذى نعلامن خشب ، وعلى رأسه شبه قبعة سوداء . وكان الرئيس كهلا بادنا ربع القامة ، حسن الطلعة ، صحيح الجسم ، نير البصيرة . وكان كثير المطالعة والبحث فصيح اللسان ، وذلك ما رقاه الى درجة الرياسة وهو كهل وتحت حكمه عشرات من الرهبان معظمهم شيوخ مثل راهبنا العجوز. والارتقاء فى رتب الكهنوت يغلب أن يكون عن أهلية ، خصوصا فى الرهبنات اذ لا تأثير هناك لدالة

القرابة أو نفوذ العصبية ، والكل سواء فى الاغتراب والاعتزال ، لايتفاضلون بارث ولا بصنيعة ، بل لكل منهم نصيبه من اجتهاده وسعيه واقتداره . فاذا ارتقى راهب الى الرياسة أو نحوها مع صغر سنه كان ذلك دليلا على امتيازه عن رفاقه فيما يؤهله الى تلك الرتبة . ويغلب فى هذه الاحوال ان يكون السابق محسودا أومكروها ، أما رئيس دير الجبل فقد كان على الضد من ذلك بالنظر الى ما فطر عليه من اللطف والدعة وكرم الخلق ، بدليل انه لما سئل عن مجىء أولئك الضيوف اليه تبرع بأن يذهب هو اليهم بنفسه مجاملة وتلطفا .

وكانت فلورندا مذ عادت من الكنيسة جالسة على مقعد فى احدى غرف الضيافة وقد هاجت أشجانها ، وتنبه ذهنها للتفكر فى الفونس ، فاستغرقت فى الهواجس والعجوز الى جانبها صامتة لا تتكلم وقد غلب عليها النعاس لفرط التعب . بينما ظل شانتيلا واقفا بالباب ينتظر رجوع الراهب ، وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب . ولمغيب الشمس فى الجبال هيبة ورهبة ، خصوصا حيث يقل الناس

▭

لم تمض برهة حتى أقبل الرئيس وبيده رق كان يطالع فيه لما كلمه الراهب . فلما رآه شانتيلا مقبلا تأدب فى وقفته ولكن لم يكد يقع نظره عليه حتى توسم فيه رجلا يعرفه ، أو انه يشبه رجلا يعرفه ، ولو أن ذاكرته لم تسعفه فى تلك الفرصة الضيقة . فلما دنا الرئيس من دار الاضياف أشار شانتيلا الى فلورندا ينبهها الى مقدمه ، وتقدم هو حتى جثا بين يديه وتناول أنامله فقبلها ، والرئيس يظهر عدم ارتياحه الى ذلك المجد الباطل . ولما دنا من الباب خرجت فلورندا لاستقباله وجثت وقبلت يده ، وكذلك فعلت خالتها . وكان الرئيس عندما استقبل الفتاة لم يمعن نظره فيها على جارى العادة ، على انه ما لبث حين جلست بين يديه حتى تذكر انه رآها قبل الآن فقال لها : « لعل هذه السيدة والدتك ؟ »

قالت : « كلا يا مولاى بل هى خالتى » . قالت ذلك واستعاذت بالله من تلك الاسئلة وخافت أن يسألها عن اسمها ونسبها ولامندوحة لها عن الجواب الصريح لأنها تكره الكذب كرها شديدا ، وودت لو يوجه الرئيس أسئلته الى شانتيلا لأنه أقدر منها على التخلص . على انها تذكرت ما للناس من الثقة فى جماعة الكهنة حتى ليسلمون اليهم أسرارهم بالاعتراف ويقصون عليهم كل ما اقترفوه ولو كان عظيما ،

فهان عليها الامر وعزمت أن تجعل حديثها مع الرئيس من باب الاعتراف اذا رأت ما يدعو الى ذلك

مرت كل هذه الخواطر بذهنها فى لحظة ، فلما سألها الرئيس السؤال الثانى كانت قد تهيأت للجواب

قال لها : « ومن أين أنتم قادمون ؟ »

فالتفتت فلورندا اليه وقالت : « هل يأذن لى حضرة الاب المحترم فى كلمة أرجو أن لا تثقل عليه ؟ » . قال : « كلا . قولى » . قالت : « اذا لم يكن لحضرتكم بد من الاستفهام عن كل ما يتعلق بنا فانى أستميح الاذن فى أن تجعل ذلك على سبيل الاعتراف ، لأن فى حكايتنا سرا لايمكن ايداعه عند أحد الا عن هذا السبيل »

فحنى الرئيس رأسه وقال : « لايهمنى البحث عن أحوالكم الا على أمل أن أستطيع خدمتكم فى شىء ، فأنتم مخيرون فى الكلام أوالسكوت . وفى كل حال فانكم أضياف مكرمون »

فقالت فلورندا وقد أعجبت بلطف الرئيس : « نشكرك فى كل حال ، ولا نقبل مع ذلك الا اطلاعك على سرنا لما توسمناه فيك من اللطف ، ولأن مكاشفة أمثالك بالاسرار فرج ورحمة . فهل نقفل الباب ؟ »

ولما سمع شانتيلا كلام فلورندا بعد عن الباب فخف الرئيس بنفسه الى الباب كأنه يهم باقفاله ، ولكنه أشار الى العجوز ولسان حاله يقول : « وهل تبقى هذه المرأة لسماع الاعتراف ؟ » . فأدركت فلورندا قصده وقالت : « ان هذه الخالة مستودع أسرارى فلا بأس من بقائها »

وأغلق الرئيس الباب فأظلم المكان فعاد وفتحه ، وصفق فجاء راهب وبيده مصباح مضىء بالزيت فوضعه على مسرجة فى الحائط وانصرف ، فأغلق الرئيس الباب ثانية وجلس ، وأصاخ بسمعه لما تريد فلورندا أن تقصه عليه . ولم تكد تبدأ بالحديث حتى أهمه الوقوف على تمامه ، على انها لم تصرح له بكل شىء وانما قالت له : « نحن من طليطلة ، وقد خرجنا للتخلص من أناس أرادوا اغتيالنا فلم نجد فرجا غير الفرار »

فقال الرئيس : « ولماذا لم تلجأوا الى الملك فانه الموكل بنصرة المظلومين » . فلم تدر فلورندا بماذا تجيب وأدرك الرئيس اضطرابها فتوسم شيئا أحب أن يقف على حقيقته فقال : « يظهر ان الملك أيضا من جملة ما تخافونه ؟ » . فتصدت العجوز للجواب وقالت : « نعم ، ولماذا الكتمان ؟ بل كل خوفنا من الملك نفسه ! »

فبغتت فلورندا لهذا التصريح ، ولكنها اطمأنت لاعتمادها على سر الاعتراف وهو مقدس لا يباح به . ولحظ الرئيس بغتتها فحول وجهه عنها وقال : « ومن هو الرجل الذى جاء معكما ؟ »

قالت فلورندا : « هو من أتباع بعض أهلنا »

فابتسم الرئيس وقال : « أليس هو من أتباع الامير الفونس ؟ ! »

فلما سمعت فلورندا ذكر الفونس احمر وجهها حتى كادت تختنق ، وتلعثم لسانها والتفتت الى خالتها كأنها تتوقع مخرجا من عندها ، فاذا بالعجوز تقول : « بلى يا مولاى انه من خدم الامير الفونس بن غيطشة ملك الاسبان السابق . وهل تعرفه ؟ »

فتحول الرئيس من الابتسام الى الانقباض حالا ولم يستطع التوقف عن الجواب فقال : « نعم أعرف غيطشة وأعرف أولاده وكل أهله . ومن من كهنة أسبانيا لا يعرف أخاه الاسقف أوباس ، ومن لم يستفد من عظاته أو قدوته أو حكمته أو درايته ؟ ذلك الرجل الذى لا أظن الزمان يجود بمثله ، ولكن ! »

فلما سمعت فلورندا اطراءه أوباس اطمأن بالها الى ان الرجل ميال الى حزب الملك السابق فلا خوف منه على سرها ، ولكنها لحظت منه انه يحاذر أن يكاشفها بما فى ضميره للسبب الذى تخافه هى من مكاشفته لولا الاعتراف ، فعزمت على استطلاع حقيقة رأى الرجل وهى فى مأمن على ما تقوله فى ظل سر الاعتراف فقالت : « ألا تدرى أين هو أوباس الآن ؟ » . قال : « كلا . وأين هو ؟ » . قالت : « انه سيق الى السجن منذ يومين » . قال : « ومن ساقه ، ومن يتجرأ أن يفعل به ذلك ؟ » . قالت : « ساقه الملك رودريك . بعث الى بيته بكوكبة من الفرسان أخرجوه من فراشه »

فوقف الرئيس مذعورا وظهرت على وجهه امارات الغضب وقال : « ساقوه الى السجن ! أمثل أوباس يسجن ؟ ! قبح الله الجهل . ! كيف تجرأوا على مس يده لغير التقبيل ، وكيف خاطبوه بغير الاحترام والتبجيل ؟ ! »

فتحققت فلورندا عند ذلك ان الرئيس من مريدى أوباس وأهله ، فتاقت نفسها الى استنجاده أو مشورته فى أمر الفونس ، ولكنها استحيت فأطرقت ، فتناولت خالتها الحديث نيابة عنها وقالت : « والفونس ؟ هل تعرفه ؟ »

قال : « كيف لا وقد عرفته منذ طفولته ، وكثيرا ما كنا نلتقى به فى طليطلة أيام المواسم والاعياد على عهد المرحوم أبيه »

فوقفت العجوز ونظرت الى الرئيس نظر المتفرس وقالت : « اما وقد برح الخفاء فأخبرك ان الفتاة التى تراها بين يديك هى خطيبة الفونس ، فأراد ملك طليطلة أن يحرمه منها بالقوة فقذفه فى مهمة الى أقصى بلاد الاسبان . فلما رأت عزمه وفهمت مراده خرجت من قصره فرارا ، ثم علمنا ان رودريك ألقى القبض على أوباس لأنه ساعد فى انقاذها من بين مخالبه ! هذه واقعة الحال كما هى ، وانت وشأنك »

فتفرس الرئيس فى فلورندا وقال : « أليست هـذه بنت يوليان حاكم سبتة خطيبة الفونس ؟ انى أول الشاهدين على خطبتها ، وقد كان أهلها يتحدثون بخطبتها الى الفونس وهما طفلان ، ثم خطبها وأوباس واسطة ذلك العقد ، فكيف يتجرأ رودريك على حله ؟ ! »

فلما سمعت العجوز كلامه تذكرت انها كانت تراه يتردد الى قصر طليطلة على عهد غيطشة بلباس غير هذا اللباس فقالت : « ألست الاب سرجيوس ؟ »

قال : « أنا سرجيوس ، وكنت كاهنا أتردد على طليطلة بالنيابة عن هذا الدير ، فلما رأيت الدسائس تتعاظم ضد المرحوم غيطشة ولم أجد سبيلا الى نصرته أقمت فى هذا الدير حتى توليت رياسته . ولو أطاعنى أوباس لأقمنا هنا معا فى أمن وسلام » . ثم التفت الرئيس الى فلورندا وقال لها : « كونى مطمئنة يا ابنتى . ان سرك محفوظ فى بئر عميقة ، واعلمى انى نصيرك ونصير أوباس فى كل شىء . سامحه الله كم طلبت اليه أن يدع طليطلة ويأتى الى هذا الدير نعبد الله فيه ونبتعد عن دسائس العالم وشرور أهل المطامع ، وعندنا من المؤونة والاموال ما يكفينا طول العمر ، ولكنه أبى الا البقاء هناك . وأظنه بقى لرعاية أبناء أخيه خصوصا الفونس » . ثم أطرق وهز رأسه وقال : « أوباس فى السجن الآن ؟ »

قالت فلورندا : « علمنا انهم ساقوه الى السجن ولا ندرى أسجنوه أم قتلوه ؟ وكان فى عزمنا بعد نزولنا فى هذا الدير أن نبعث هذا الشاب الى طليطلة يتجسس الاحوال ويعود الينا »

فقطع الرئيس كلامها قائلا : « لا . لايصلح هـذا لذلك ، لأنهم يعرفونه ويعرفون انه من أتباع الامير الفونس أو الاسقف أوباس ، وربما قبضوا عليه وسجنوه أو قتلوه . دعوا ذلك لى ، فقد أصبح البحث فى هذا الامر من واجباتى .. كونوا براحة فتأتيكم الاخبار صاغرة » . قال ذلك ونهض وهو يقول : « وقد آن لكم أن تستريحوا من عناء السفر ، واعلموا ان الدير ومن فيه تحت اشارتكم لأننا جميعا

صنيعة الملك غيطشة ، ونحن وقف على خدمة ابنه وكل من يلوذ به . فهل تقيمون فى شطر الدير المختص بالراهبات ويبقى خادمكم شانتيلا فى هذا القسم ، أم تفضلون البقاء معا فى هذه الدار ولا ندخل اليها أحدا سواكم ؟ »

فنهضت فلورندا وقد أحست بحمل ثقيل نزل عن عاتقها وشكرت الله لأنه استجاب صلواتها وعلقت آمالها بقرب الفرج . فأثنت على الرئيس سرجيوس وقبلت يده واستشارت خالتها فى الاقامة فقالت : « أرى البقاء هنا بعيدين عن الناس وشانتيلا معنا حتى نرى مايكون »

فقال الرئيس : « ذلك لكم » . ثم خرج وكان الليل قد أسدل نقابه ، وأوقد الرهبان نيرانا فى بعض جوانب تلك الباحة للاستدفاء والاستنارة . وكان شانتيلا قد اختلط بالرهبان وهم يسألونه عن أحواله ولا يسمعون منه جوابا مفيدا . فلما خرج الرئيس من دار الأضياف سكنت الغوغاء وتشاغل الرهبان باعداد الطعام ، وبعث الرئيس الى قيم الدير وأمره أن يعد للاضياف ما يحتاجون اليه من لوازم الراحة

صعد الرئيس الى غرفته وهو فى هم من أمر أوباس لانه كان يحترمه ويحبه ويغار عليه ككل معارفه لما علمت من تعقله ورزانته وإبائه ، فأخذ يفكر فى سبيل انقاذه . ثم تذكر أنه ليس على يقين من حقيقة حاله فعول أن يتولى البحث عن ذلك بنفسه . وكان سرجيوس لم يذهب هذا العام الى طليطلة فى عيد الميلاد لحضور القداس الاعظم وتهنئة الملك لشواغل لم تكن لتقتضى تخلفه لو لم يكن هو ميالا الى الابتعاد عن الملك وحاشيته ، لما فى نفسه من النقمة لغيطشة . فقد كان حاضرا فى المجمع الذى دبر تنصيب رودريك بدله ، ولم يكن ذلك من رأيه ولكنهم غلبوه على أمره بالاكثرية ، ثم أصبح يخاف التظاهر بما يعتقده لئلا يناله غضب الملك ، ولم يكن يحتمل مشاهدة ما يغاير اعتقاده فجعل قدومه الى طليطلة نادرا . فلما أقبل عيد الميلاد الاخير تعلل بما يمنعه عن القدوم ، فلم ير شيئا مما حدث لأوباس ، ولو كان هناك لشهد محاكمته وسمع حجته ، وان كان حضوره لا ينفع أوباس شيئا لانه لا يستطيع التغلب على حزب الملك وهم الاكثرون

فخطر لسرجيوس أن يذهب الى طليطلة بنفسه فيعتذر للملك عن تخلفه فى العيد ، ولكنه خاف أن يتهمه أو يشك فى سبب قدومه ، وأول من ينبه شكوكه الأب مرتين لانه لا يغفل عن مثل ذلك . فرأى

تأجيل الزيارة الى يوم رأس السنة فيذهب لتهنئة الملك بالعيدين ، ولا يكون ثمة ما يدعوه الى الشك فى سبب ذلك القدوم . ولكنه لم يكن يصبر عن استطلاع حال أوباس طول هـذه المدة فعول على ارسال راهب يستطلع ذلك من حاشية الملك من غير أن يشاهد أوباس أو يسمع كلامه

قضى سرجيوس معظم الليل فى أمثال هذه الهواجس ، فلما أصبح بعث الى فلورندا وكانت قد باتت تلك الليلة فى راحة على أثر ماقاسته من تعب البدن واضطراب العواطف ، خصوصا بعد ما آنست من الرئيس سرجيوس مشاركته لها فى شعورها وعزمه على مساعدتها ـ وأفاقت فى الصباح على صوت الناقوس فنهضت وأخذت تتأهب للذهاب الى الكنيسة ، ولكنها لم تلبث أن سمعت وقع أقدام بجانب غرفتها تخالف وقع خطوات شانتيلا . ثم قرع الباب فنهضت خالتها وفتحته فرأت راهبا لم تعرفه فسألته عن غرضه فقال : « ان حضرة الرئيس يدعوكما اليه »

فمضتا والراهب يسير أمامهما وفلورندا تقول فى نفسها : « لم تنقض أيام شقائى بعد ، أظن الرئيس غير عزمه على مساعدتى »

ومشى بهما الراهب فى تلك الباحة حتى دار من وراء الكنيسة الى درجات صعدوا عليها الى حجرة طرق الراهب بابها ودخل قبل أن يؤذن له بالدخول ، ثم عاد ودعا فلورندا وخالتها فدخلتا فاذا هما فى غرفة بسيطة الأثاث حسنة الترتيب ، فى جدرانها أصناف من صور القديسين مختلفة الاشكال والاحجام ، وفيها صور كبيرة الحجم من صنع مصورى رومية تمثل أهم حوادث الانجيل مثل ولادة المسيح فى بيت لحم ، وتعميده فى النهر ، وصلبه وصعوده الى السماء . فلما أطلت فلورندا على الغرفة انشرح صدرها لتلك المناظر وتأثرت لها تأثرا عظيما لما فطرت عليه من التقوى والورع ، وقد زادتها المصائب تمسكا بحبل الدين ، فتخشعت عند دخولها تلك الغرفة مثل تخشعها عند دخول الكنيسة ، فخف الرئيس لاستقبالها ودعاها الى الجلوس فلم تتمالك قبل الجلوس من تقبيل أيقونة للمسيح المصلوب كانت قريبة منها ، ثم جلست فابتدرها الرئيس قائلا : « لم يبق بيننا حجاب وقد اطلع كل منا على أسرار الآخر فلنبسط الكلام صريحا . وعدتك يا فلورندا أن أستطلع لك حال أوباس ، وكنت عازما أن أتولى ذلك بنفسى ثم خطر لى أن ذهابى الى طليطلة اليوم بعد أن تخلفت عن حفلة العيد يدعو الى الشك ، وربما آل الى عرقلة مساعينا ،

فرأيت أن أؤجل ذهابى الى رأس السنة وهو قريب ، فما قولك ؟ ! »
فخفق قلب فلورندا وعدت ذلك التأجيل فاتحة العراقيل وبدا أثر ذلك فى وجهها ، ولم يخف اضطرابها على الرئيس فاستأنف الكلام قائلا : « ولكننى مرسل أحد الرهبان اليوم ليتفقد الحالة من حاشية رودريك ، فاذا اطلعنا عليها ساعدنا ذلك على تدبير الوسائل قبل ذهابى الى طليطلة »

فاطمأن بال فلورندا واكتفت بانتداب الراهب وأرادت أن تبين له ما تود الاطلاع عليه من أمر الفونس فضلا عن أوباس ، وأنها تريد أن تعرف رأى رودريك فى فرارها وهل هو جاد فى البحث عنها ، ولكن الحياء منعها من الكلام فى هذا الشأن صراحة فقالت : « اذا كان الراهب الذى ستنتدبه نبيها وأتانا بالتفصيل اللازم كان ذلك خيرا من ذهاب حضرتك قبل الاطلاع على شىء » . فقال الرئيس : « فلنبحث فيما يطلب الاطلاع عليه »

فقالت العجوز : « لا أخفى على مولاى الرئيس المحترم ان أهم النقط التى يطلب البحث عنها انما هى أوباس وحاله ، ثم يهمنا الاطلاع على رأى رودريك فى فرارنا لاننا فررنا من قصره رغم أنفه . ثم نحب الاطلاع على المكان الذى بعث اليه الامير الفونس » . قال : « فهمت المطلوب وسأوصى الرسول به ونظنه يعود الينا بالخبر اليقين » . فنهضت فلورندا وقبلت يد الرئيس وكذلك فعلت العجوز ، واستأذنتا فى الذهاب رغبة فى تفرغ سرجيوس لقضاء تلك المهمة . فأذن لهما فانصرفتا . أما هو فانه صفق فجاءه الراهب الذى يتولى خدمته ، فأمره أن يدعو راهبا سماه ، وكان له به ثقة كبرى وكثيرا ما كان يكاشفه بما فى نفسه ضد رودريك فلما جاء أوصاه بما يطلب الاطلاع عليه واستحثه أن يسرع فى الرجوع

وسافر الراهب على دابة من دواب الدير وعليها « الخرج » كأنه منصرف الى المدينة على نية الاستبضاع مما يحتاج اليه أهل الدير من الادوات والامتعة . وكانت عادة ذلك الدير أن يرسل رسولا لمثل هذا الشأن مرتين أو ثلاثا كل سنة ، والغالب أن يكون ذلك فى الصيف لانهم يفضلون السكن فى الشتاء كما يفعل سائر أهل الجبال . على أن ذلك لا يمنع شخوصهم الى المدن فى هذا الفصل

وقضى الراهب فى مهمته خمسة أيام عاد فى نهايتها . وكانت فلورندا قد ملت الانتظار وحسبت تلك الايام أجيالا . وكانت فى أثناء الانتظار تصعد مع خالتها وشانتيلا الى سطح الدير تشرف منه على الاودية

والتلال لعلها تجد الرسول عائدا . واتفق صفاء الجو وامساك المطر كل تلك المدة فكانوا اذا جلسوا على السطح أطلوا على جبال أكثرها عار من النبات الاخضر ، وبعض رؤوسها وكهوفها مكسو بالثلج ، وكانوا يشاهدون الضباب فى كل صباح يغشى الاودية يحسبه الناظر بحرا تتلاطم أمواجه ، ويحسب ما يبرز فى وسطه من قمم الجبال جزرا يفصل الماء بينها ، فاذا حمى الجو قبل الظهر عاد الضباب بخارا وعادت الجزر جبالا ! فكانت فلورندا تعلل نفسها فى أثناء تسلط الضباب أن يكون الرسول على مقربة والضباب يحجبه عن بصرها . وكانت تستأنس بذلك الشيخ الهرم بواب الدير لان غرفته أو برجه يستطرق الى السطح فكان يخرج فى بعض الاحيان ليجالسها ويقص عليها ما مر به من الغرائب فى أثناء عمره الطويل فتستريح الى سماع حديثه ، لانه على شيخوخته لم يكن يكثر الكلام الذى لا يلذ السامعين ولو كانوا شبانا

ففى أصيل اليوم الخامس رأت وهى على السطح راكبا أطل من بين اكمتين لم يكد بصرها يقع عليه حتى علمت انه الراهب الرسول ، فخفق قلبها ونادت خالتها قائلة : « ها قد أتى فلنمض الى الرئيس لنسمع حديثه » . قالت : « هلم بنا اليه » . وتحولتا نحو غرفة الرئيس وكان جالسا ببابها يطالع فى درج باللاتينية . فلما رأى فلورندا والعجوز قادمتين نهض لهما ورحب بهما فقرأ على محيا فلورندا أمارات الدهشة والقلق ، فأدرك أنها تكتم شيئا فقال لها : « خيرا يا بنية ، ما الذى حدث ؟ » . قالت : « أرى رسولك قادما فاستدعه لنسمع حديثه » . قال : « وهل أتى ..؟ انى أشد قلقا منك فى انتظاره ، ولا أقلب هذه الكتب الا تعللا وتشاغلا » . ونهض لساعته وأوصى خادمه أن يسرع فى استقدام الرسول ، فهرول الرجل وعاد بعد قليل والرسول فى أثره وهو لا يزال يعلو وجهه وثيابه غبار السفر . فلما وصل سلم وبارك وجلس ، فقال له الرئيس : « قص علينا ما رأيته على عجل ، وابدأ بأوباس »

فقال الراهب : « أما حضرة الاسقف فانه مسجون فى حجرة على حدة » . قال : « وما سبب سجنه ؟ » . قال : « اتهموه بالتآمر على خلع الملك وحاكموه فى مجمع الاساقفة » . فقطع الرئيس كلامه قائلا : « وكيف ذلك ولم نسمع بالتئام المجمع » . قال : « فعلوا ذلك التماسا للسرعة ، فألف الملك مجمعا من الاساقفة كانوا فى طليطلة يوم العيد »

قال : « وماذا كانت نتيجة المحاكمة ؟ » . قال : « لا أدرى ولكنى سمعت ان الاسقف أبدى من البسالة والحمية فى أثناء المحاكمة ما أفحم به خصومه »

وكانت فلورندا تتطاول بعنقها لسماع أقوال الراهب وتود الوصول الى خبر الفونس

فقال الرئيس : « وهل تظن تلك التهمة فى محلها ؟ » . قال : « هل أقول كل ما سمعته ؟ » . قال : « نعم قل » . قال : «بلغنى من أهل القصر الملوكى أن لمحاكمة أوباس سببا سريا لم يطلع عليه الا نفر قليلون ! » . فقال : « وما ذلك ؟ » . قال : «بلغنى أن الامير الفونس كان خاطبا فتاة من أهل القصر الملوكى ، وان رودريك أرادها لنفسه ، فوبخه أوباس على ذلك ، فغضب عليه وأراد الانتقام منه ! » . قال الرئيس : « وماذا تم فى أمر الفونس وخطيبته ؟ » . قال : «أما الفونس فقد أرسله الملك فى مهمة حربية الى بلد بعيد ليخلو له الجو بعده ، فكان ذلك سببا لتدخل أوباس . أما الخطيبة فقد بلغنى أنها فرت من طليطلة والناس يستغربون فرارها من القصر الذى كانت فيه والحراس من حوله . وأما الملك فقد اشتد غضبه على تلك الفتاة وعول على الانتقام منها حالما يظفر بها ! »

فقالت العجوز : « وكيف يظفر بها وأين هى ؟ ! »

ولا نظن الراهب لم يلحظ من قرائن الاحوال ان فلورندا هى الخطيبة الفارة ولكنه تجاهل مجاراة لما أراده الرئيس فقال : « أكد لى العارفون أن الملك ربط عليها الطرق وأقام الأرصاد ، وبث العيون فى كل أنحاء المملكة ، ولا يكاد يمر يوم الا ويحملون الى قصره فتاة أو فتيات ممن يعثرن عليهن فى أثناء التفتيش ، فاذا وقع بصره عليهن أطلق سراحهن اذ لا يرى تلك الفتاة بينهن ! »

فلما سمعت فلورندا ذلك اضطرب قلبها لأول وهلة ثم شكرت الله لدخولها هذا الدير وتوفقها الى ذلك الرئيس المحب ، وعولت على البقاء هناك حتى يعود أجيلا من عند والدها . ولكنها أحبت السؤال عن مقر الفونس فأومأت الى خالتها أن تسأل عنه فقالت : «وهل عرفت المكان الذى ذهب اليه الامير ألفونس ؟ » . قال : « لم أستطع الوقوف عليه صريحا ولكننى سمعت أن الملك أنفذه مع فرقة من الجند الى استجة ، ولم أتحقق تماما لأنى لم أدقق فى البحث عنه »

فأومأ الرئيس الى فلورندا أن تكتفى بما تقدم ريثما يتوفق هو للذهاب الى طليطلة والبحث عن كل ذلك . فسكتت ثم وقف الرئيس

وصلى صلاة وجيزة ، فلما فرغ انصرفت فلورندا وهى غارقة فى لجج التأمل لما سمعته عن أوباس وسجنه ، وعن تشديد رودريك فى البحث عنها ، فلم تر مندوحة عن البقاء مستترة فى ذلك الدير لترى مايأتى به القدر ، معللة نفسها بالاطلاع على تفاصيل أخرى بعد رجوع الرئيس من طليطلة

ولكن الطبيعة أبت الا معاكستها فتغير الطقس وتوالت الامطار وتكاثرت الثلوج حتى سدت طرق الجبال وانقطعت السابلة فمنعت الرئيس من السفر أياما عديدة وهو قاعد على مثل الجمر ، فكيف بفلورندا والجمر يتقد فى قلبها وفى رأسها . خصوصا بعد أن مضى شهر وبعض الشهر ولم يرجع أجيلا من مهمته الى والدها

وكان الرئيس يتردد اليها فيطمئنها ويعدها خيرا ويريها أبواب الفرج لثقته الكبرى بتعقل أوباس وحسن درايته وعظم سطوته على العقول والقلوب . ولم تكن هى أقل اعجابا به لأنها شبت لا تسمع اسمه الا مشفوعا بعبارات الاطراء والتبجيل حتى خيل لها انه قادر على كل شىء ، ولم تصدق أن أحدا يستطيع أذيته أو التغلب على رأيه ! وكان سرجيوس يعمل فكرته فى طريقة لاخراج أوباس من السجن ، فاذا خرج جاء الى الدير وأقام فيه بسلام . ولكنه لم يهتد الى شىء ، لما بلغه من تشديد الملك فى الاحتفاظ به والسهر على حراسته

▭

وأفاقت فلورندا ذات صباح من أواخر فبراير على هبوب العواصف وانهمار المطر وأكثره من الثلج أو البرد . واشتدت الأنواء والرعود والبروق نحو ساعتين ، ثم انقطع حبل الغيث وسكنت الرياح بغتة — وتلك عادة هذا الشهر فى البلاد المعتدلة فان الجو يتقلب فى اليوم الواحد من أيامه تقلبات شتى ، بين صحو ومطر ونوء وصفاء — فلما كفت الامطار أطلت فلورندا من باب الغرفة فاذا بفناء الدير قد غمرته الثلوج الى باب غرفتها ومع ذلك أشرقت الشمس على ذلك الثلج فتكسرت أشعتها عليه وانحل النور فى بعض الاخاديد فبدأ الطيف الشمسى بألوان قوس قزح . فوقفت فلورندا وهى تتأمل ذلك المنظر الجميل ، ثم ما لبثت أن رأت الرهبان يتقاطرون من كل جانب وفى أيديهم المجارف والمعاول وأخذوا فى جرف الثلج وحمله الى الخارج ، وبينهم الراهب الشيخ صاحب الباب ، وقد استبدل بالعكاز مجرفة يجرف بها الثلج بنشاط الشباب ، وكان فوق ذلك لا يزال عارى الساقين والزندين وقد اكتفى من وسائل الدفء بلف

شملة من الصوف حول صدغيه وأذنيه . ورأت شانتيلا كذلك يشتغل معهم . فلم تمض برهة حتى نظفت الباحة وكان بعضهم يجرف الثلج عن السطح أيضا ، فلما فرغوا خرجت فلورندا وبربارة وصعدتا الى السطح وأطلتا على الجبال على سبيل الفرجة . ولم تمض برهة حتى أثر الزمهرير فى فلورندا ولم يغنها القباء ولا الكساء، ثم تغير وجه السماء بغتة وتكاثفت الغيوم وأوشكت السماء أن تمطر فهمت فلورندا بالرجوع ، فرأت الشيخ الراهب فى باب حجرته على السطح وهو يشير اليها أن تأتى اليه ، فتحولت وتبعتها خالتها حتى أقبلتا على الغرفة واذا هناك نار فى اناء يشبه الموقدة فى بعض جوانب الحجرة . فلما دخلت أحست بالدفء وشعرت بلذة غريبة . فقال لها الراهب اجلسى يا بنية وتدفئى فان البرد شديد جدا اليوم . فجلست وخالتها الى جانبها . واتفق جلوسهما بجانب النافذة ، فأخذ الراهب يقص على ضيفتيه أحاديث شبابه وكهولته على سبيل التسلية ، والخالة العجوز تشاركه فى تحقيق بعض النقط وان كانت هى أصغر منه سنا

وكانت فلورندا فى أثناء ذلك تنظر من تلك النافذة الى ضواحى الدير ، فاذا هناك دابة تمشى صاعدة نحو الدير وعليها راكب ، فأمعنت النظر فيه وصاحت قائلة : « اجيلا ، اجيلا ! » فلما سمع الراهب قولها نظر الى القادم ولم يكن يعرفه فقال : « ومن هذا يا بنية ؟ ! »

قالت : « هو رسول أرسلناه فى مهمة وقد عاد الينا ، فهل تسرع فى فتح الباب له حتى لا يضر به البرد ؟ »

فقال : « سمعا وطاعة ! » وتناول عكازه وتحول نازلا وظلت فلورندا وخالتها مطلتين من النافذة لتتحققا أمره فاذا هو أجيلا بعينه على جواد . ولما دنا من الدير وقف الجواد وأجيلا ينظر الى الدير ويضحك ضحكا شديدا . فلما رأته فلورندا يضحك استبشرت وانبسطت نفسها ولم تتمالك أن نادته قائلة : « أجيلا » فلم تسمع منه جوابا ، فظنت هبوب الريح أضاع صوتها قبل وصوله اليه ، ثم رأت الراهب الشيخ قد خرج من الدير ، حتى اذا أقبل عليه شهر عكازه وأخذ فى ضربه ضربا عنيفا واجيلا لايتحرك ، والراهب يزداد عنفا بالضرب ويصيح ويستغيث بالرهبان الآخرين ، فخرج اثنان منهم وفى يد كل منهما عصا غليظة فأمسك أحدهما بزمام الفرس وعمل الآخر على ضرب الراكب حيثما اتفق وهو ساكت ، فاستغربت فلورندا ذلك

وتولتها الدهشة لما رأته من خشونة ذلك الضرب لغير سبب يدعو اليه ، فجعلت تصيح بالرهبان تستمهلهم وتستفهم عن سبب اعتدائهم وهم لا يبالون بكلامها ، فغضبت وتحولت من تلك الغرفة تريد غرفة الرئيس لتشكو اليه قسوة رهبانه ، وسارت الخالة فى أثرها حتى اذا نزلتا الى باحة الدير قالت فلورندا لخالتها : « اذهبى أنت الى الرئيس وأنا أخرج لمخاطبة أولئك الرهبان » . ثم نادت شانتيلا فلم تسمع جوابا فأسرعت الى باب الدير حتى خرجت منه فرأت شانتيلا عاملا مع الرهبان على ضرب أخيه أيضا وقد أنزلوه عن الفرس وأمسك أحدهم برجليه وآخر بيديه وأخذ البـاقون يضربونه على القدمين والكتفين ضربا موجعا ، فازدادت فلورندا دهشة واستغرابا وصاحت : « شانتيلا ، ما هذا العمل ؟ » . ولكنه لم يرد عليها ، وبعد هنيهة رأتهم هموا بأجيلا فحملوه وأسرعوا به الى الدير لايبدى حراكا فظنته مات من شدة الضرب ، فكادت تبكى لغيظها وأسفها. ولكن الاستغراب ظل غالبا عليها فلما دخلوا به سارت هى فى أثرهم فصعدوا الى غرفة صاحب الباب فتعقبتهم وهى لا تجسر على الكلام لئلا يصيبها حظ من ذلك الضرب ، ولكنها كانت تتلفت يمينا وشمالا لعلها تجد الرئيس قادما لتستنجده أو تستفهمه ، واذا به مسرع على السطح من جهة أخرى والعجوز فى أثره وهى تشير الى فلورندا أن تطمئن

فأسرعت فلورندا الى الرئيس وسألته عن سبب ذلك فقـال : « لا تجزعى ، فانهم انما يفعلون ذلك لحفظ حياته ! »

قالت : « كيف يحفظون حياته وقد أماتوه من الضرب ؟ ! »

فضحك الرئيس وقال : « يظهر أنك لم تسمعى (بالدنق) ! »

قالت : « وما الدنق يا مولاى ؟ »

قال : « هو الموت من البرد الشديد ؟ فالظاهر أن رسولك هـذا أوشك أن يدنق من البرد ، فعمدوا الى ضربه ليتحرك دمه وتعود اليه الحرارة فلا يموت »

قالت : « لم يكن يشكو من برد مطلقا بل رأيته يضحك سرورا »

فضحك الرئيس حتى قهقه وقال : « ان الضحـك فى البرد من علامات الدنق ! » قال ذلك ودخل الحجرة وهو يقول : « اسقوه قليلا من الخمر وأدنوه من النار »

فأسرع الراهب صاحب الباب الى ابريق فى بعض أركان الحجرة صب منه فى كأس ودنا من الرجل ، وتقدمت فلورندا نحوه أيضا

وتفرست فى وجهه فرأته قد فتح عينيه ولكنه لا يزال منحل القوى، فتحققت ما قاله الرئيس وشكرت الله على نجاته

قضوا ساعة فى معالجة أجيلا بالدفء وشرب المنبهات حتى صحا وعاد الى رشده ، فاستأذنت فلورندا فى نقله معها الى دار الاضياف فأذن لها ، فنزلت به ومعها شانتيلا والخالة . فلما استقروا فى الغرفة سألته عن سبب غيابه فأخبرها أنه قاسى فى أثناء رجوعه عذابا أليما من مقاومة الطبيعة وأرصاد رودريك حتى اضطر أن ينام فى النهار ويسافر بالليل خوفا من أن يقع كتاب يوليان فى أيديهم ، وهذا هو السبب فى وصوله على هذه الحالة من البرد الشديد حتى كاد يموت

ثم سألته عن والدها فقص عليها ما كان من وصوله اليه وما أصابه من الغيظ واليأس لما قرأ كتابها الى أن قال : « وقد صمم على الانتقام من رودريك انتقاما لم يسبق له مثيل فى تاريخ الأسبان »

ثم أخبرها عن اتفاق والدها مع جند العرب على المسير معهم الى أسبانيا ليكون عونا لهم على فتحها كلها ، ومد يده الى جيبه واستخرج أنبوبا مختوما سلمه اليها ففضته فرأت فيه لفافة من القباطى ، وهو نسيج مصرى قديم ، ففتحها فاذا هى كتاب من والدها اليها ، فحالما رأت خط يده خفق قلبها وتذكرت حنوه فدمعت عيناها ، ولم تستطع قراءة ذلك الكتاب الا بعد أن سكن جأشها ومسحت دموعها ثم تناولت الكتاب وقرأته فاذا فيه :

« من الكونت يوليان الى ابنته الحبيبة فلورندا . باسم الأب والابن والروح القدس . قرأت كتابك أيتها العزيزة فسبقتنى الدموع الى تفهمه ، لما هاجه لى من المصائب الكامنة . وقد ساءنى ما اقترفه ذلك الوحش الكاسر من الاساءة الى الدين والى الفضيلة والى يوليان . أما الاولان فالله كفيل بالقصاص لهما . وأما ما أراده من مس عرضى فأنا أتولى الانتقام له بنفسى . وأبشرى فاننى حامل عليه وعلى بلاده بجند من العرب لا شك أن الله ناصرهم على ذلك الخائن ، لما نعلمه من غضب الأسبان والقوط عليه . وان العمل الذى أشرت اليه فى كتابك يكفى وحده لغضب السموات والارض على ذلك الدخيل فى القوطية . ولا أطيل الشرح لان ناقل هذا الكتاب يوضح ما يشكل عليك ، وانما كتبت هذه الاسطر تثبيتا لأقواله ولكى أبشرك بالفرج القريب . وسوف ترين رودريك الخائن قتيلا مضرجا ، أو أسيرا مكبلا ، فامكثى

حيث تستأمنين حتى آتى اليك . واذا أعوزك الوصول الى فأنا مع كبير جند العرب حيثما يكون ، والسلام . . كتب فى سبتة »

فلما وصلت الى آخره لم تتمالك أن نهضت تريد الرئيس وكان قد ذهب الى غرفته فسارت وحدها وهى لاتفقه ما تمر به لفرط تأثرها من ذلك الخبر المفاجىء وقلبها يرقص طربا لما حواه ذلك الكتاب من بشائر الانتقام ، والانتقام من أقوى ملذات الانسان ، فلما أقبلت على الرئيس أنكر ما يبدو فى محياها من آثار البغتة مع شىء من الخفة فوقف لها فدخلت فحيته وقالت : « جئتك بأمرذى بال وفيه القضاء المبرم على رودريك ! »

فانذهل لتلك المباغتة وقال : « وما ذلك ؟ » . قالت : « ان الشاب الذى وصل فى هذا الصباح وكاد يموت من البرد انما هو رسول كنت بعثت به الى والدى فى سبتة وبعثت معه كتابا مختصرا شكوت فيه ما أصابنى من رودريك ، فعاد الرسول اليوم بهذا الكتاب » . ومدت يدها ، واستخرجت الكتاب ودفعته الى الرئيس ، فتناوله وقرأه وهو لا يصدق أنه فى اليقظة ، وأعاد قراءته ثانية وثالثة وفلورندا صامتة تتوقع ما يبدو منه . فلما تفهمه جيدا رفع بصره اليها وقال : « ان والدك سيعمل عملا يغير به وجه هذه الجزيرة ، سيعمل عملا يقضى به على هذه الدولة . وسيعلم رودريك عاقبة ما كان من خرقه حرمة الدين ، نعوذ بالله من غضب الله ! » . وصمت برهة ثم قال : « وهل نقل الرسول اليك شيئا من التفاصيل ؟ »

قالت : « أخبرنى ببعض الشىء ولم أستطع صبرا على نقل هذا الخبر اليك ، فاذا أذنت بعثنا الى أجيلا يقص علينا ما شاهده بعينيه » . قال : « أحب سماع ذلك » ثم صفق فجاء خادمه فقال : « الى بالرجل الذى جاءنا هذا الصباح وهو فى دار الأضياف »

فمضى الرجل وعاد بأجيلا فانحنى هذا أمام الرئيس وقبل يده ثم جلس متأدبا فجعل الرئيس يسأله عما شاهده بعينه ، فقص عليه ما عاينه من شجاعة العرب واتحاد كلمتهم ، وصبرهم فى الحرب ، ومواظبتهم على الصلاة ، وطاعتهم لرؤسائهم ، الى أن قال : « وزد على ذلك أن مولاى الكونت يوليان عون لهم فى ارشادهم الى المسالك علاوة على ماسيلقونه من مساعدة اليهود المتسترين بأثواب النصرانية ، وهؤلاء لا يدخرون وسعا فى نصرة أى داخل كان ، لانهم يكرهون هذا الملك ويكرهون حكومته لما يقاسونه فيها من الاحتقار والذل »

فلما سمع الرئيس ذلك هز رأسه وقال فى نفسه : « قد انقضت

دولة هذا الباغى ، وربما انقضت بانقضائها دولة القوط كلها ! » .
ثم التفت الى فلورندا وقال : « فاذا ذهبت الآن الى أوباس أخبرته بهذا الخبر الجديد ، وأطلعته على هذا الكتاب ، ولا أظن أهل البلاط قد علموا به بعد . ثم نحتال فى اخراجه من سجنه ونأتى به الى هذا الدير يقيم فيه معنا . وطالما كان أبوك مع العرب فنحن فى مأمن منهم اذا هم غلبوا . واذا غلبوا فلا يكون علينا بأس من رودريك لاننا لم نتعرض لحربه »

فتضاعف سرور فلورندا لما سمعت عزم الرئيس على استقدام أوباس اليه . وبعد بضعة أيام ذابت الثلوج وانكشفت الطرق ، فركب سرجيوس بغلته ومشى خادمه فى ركابه الى طليطلة

— ٩ —

أما رودريك فقد جاءه كتاب من صاحب بوتيكة ينبئه بنزول العرب بلاده فأطلع الأب مرتين عليه قبل عرضه على رجال دولته ، فأوهمه الاب المذكور أن العرب انما يريدون الغزو لا الفتح ، فاذا أصابوا غنيمة عادوا على أعقابهم ، وانهم لا يجسرون على مناوأة ملك القوط ، وكثيرا ما كان العرب يسطون على ما يلى مملكتهم من الثغور فيغزون البلاد ويعودون بما يقع فى أيديهم من ماشية أو نحوها ، فارتاح رودريك لذلك الرأى لقربه من المعقول ولم يطلع رجال حكومته على الكتاب . ثم جاء من طليطلة بعض الذين شاهدوا العرب بخيلهم وابلهم وقد ملكوا الجبل « جبل طارق » ومعهم يوليان صاحب سبتة يدلهم على عورات البلاد ويسهل عليهم الفتح ، وأخبروا قائد الجند العام بذلك

وكان قائد جند رودريك رجلا باسلا دموى المزاج حاده ، اسمه الكونت كوميس له عند رودريك وجاهة وسطوة ، وكان قد لحظ فيه ميلا الى فلورندا فنصح له أن يتركها ، فلم يكترث بقوله ، فتركه وشأنه وفى نفسه شىء عليه . فلما سمع بفرار الفتاة ومحاكمة أوباس نصح له سرا أن يعدل عن محاكمة هذا الرجل لئلا يفضحه . وكان من جملة نصائحه له ألا يصغى كبير اصغاء الى مرتين وغيره من جماعة الاكليروس . فلما جاءه الخبر بنزول العرب أسبانيا ومعهم يوليان زاده ذلك جرأة على رودريك واستخفافا به ، واستغرب كتمانه نزول العرب عنه ، وكان يستبعد ألا يكون عالما بنزولهم . فذهب اليه ذات

صباح وهو فى مجلس حضره كبار الموظفين . وكان أصحاب مناصب الدولة الكبرى عند القوط لايزيدون على عشرة ، منهم : ناظر الاراضى الملوكية واسمه « كونت الوطن » ورئيس الاصطبلات ويسمى «كونت الاصطبل » وكاتب سر المملكة واسمه « كونت السجلات » ورئيس القضاة وهو « كونت النعم » وقائد الجند ، وصاحب الخزانة ، وقيم القصر الملوكى . ومن أصحاب رتبة الكونتية عندهم رئيس السقاة ونحوه ممن يخدمون الملك

كان مجلس الملك حافلا بهؤلاء والأب مرتين بجانبه ، فدخل الكونت كوميس وسلم كالعادة وأمارات الغضب بادية فى وجهه ، وبعد أن استقر به الجلوس سأل الملك اذا كان قد بلغه شىء من أخبار بوتيكة. فقال الملك : « لا أدرى . . وهل سمعت شيئا مهما ؟ » . قال بصوت خشن : « سألت جلالة الملك هل جاءه خبر مهم من تلك المقاطعة ؟ »

ففضب رودريك لهذه المراجعة بما فيها من الجسارة والقحة فقال : « ما معنى هذه المراجعة بعد ما سمعته من جوابى ؟ » . واعتدل وتصدر وجعل يلاعب شعر رأسه المرسل على كتفيه ، وقد بدا الغضب فى عينيه وأصبح سائر الكونتية ينظر بعضهم الى بعض، والى كوميس ورودريك ، ويتساءلون عن سبب هذه الجسارة

أما كوميس فلما رأى الحضور ينتظرون ما يقوله وقد شخصت أبصارهم نحوه بعدما أبداه رودريك من الجفاء عظم الامر عليه ، وقواد الجند من أعظم الناس انفة وشدة خصوصا فى ذلك العصر الذى كانت الكلمة النافذة فيه لصاحب الجند القوى ، وكان كوميس فوق كل ذلك قد غلب على رأى الملك لما علمه من تهوره فى مسألة فلوراندا وأوباس ، فلما سمع كلامه بتلك اللهجة الشديدة قال : « أظن جلالة الملك لايجهل معنى سؤالى ولو تجاهله الآن معنى سؤالى أيها الملك انه حدث فى المملكة ما يدعو الى اطلاعنا عليه وقد كتمته . وهو من الاهمية بحيث يجعل المملكة فى خطر ! »

فضج الحاضرون ومالوا الى الاطلاع على جلية الخبر ، فلم يكن من الأب مرتين الا أنه وقف بهيئته المعهودة وتولى الجواب عن الملك ووجه خطابه الى كوميس قائلا وهو يتكلف التأنى ويظهر الاستخفاف : « أظنك تعنى ما جاء من أمر أولئك العربان الذين نزلوا سواحل بوتيكة ! فهؤلاء انما نزلوا للغزو والنهب ولا يلبثون أن يرجعوا الى بلادهم . ولو كان هذا الخبر مهما لعرضه جلالته على مجلس الاساقفة »

وكان كوميس يحتقر الأب مرتين ولا يعبأ بأقواله فوجه جوابه الى الملك وقال : « أما الاستخفاف بأولئك العربان فمن الخطأ الفادح ، خصوصا اذا عرف جلالته أنهم قادمون ورائدهم الكونت يوليان صاحب سبتة ، وأما اطلاع المجمع المقدس على أمثال هذه الاخبار قبلنا فللملك الرأى فيه . ولكننى أظن قائد الجند أولى بالاطلاع على ذلك من سواه لأن عليه حماية المملكة ، وأما السادة الاساقفة فما عليهم الا الصوم والصلاة ! » . وكان يتكلم والتهكم ظاهر فى كل عباراته ، فلم يشأ أحد من الحضور الدخول فى هذا البحث لدقته ، وفيهم من أدرك اشارة كوميس الى يوليان صاحب سبتة وما وراء ذلك من التعريض والتلميح ، ولكنهم ظلوا ساكتين

أما الملك فاشتد غضبه وأحس بما رماه به كوميس من السهام الحادة ، وأدرك خطورة المركز الذى وصل اليه وانه فى حاجة الى قائد الجند أكثر منه الى سائر رجال الدولة ، ولكن عظم عليه الاغضاء بعد مباداته بالجفاء فقال له : « لم يكن يليق بك ياحضرة الكونت أن تخاطبنى بمثل هذا الكلام ، بل كان الاولى بك أن تأتينى من طريق آخر »

قال : « ان الملك لم يترك لنا سبيلا نأتيه منه ، وقد جعل هذا القسيس لسان حاله والمتكلم عنه ، والكل يعلمون أن هذا وأمثاله لا يصلحون لغير العبادة ، وقد جعلهم الملك شركاءه فى مهام المملكة ، ولو أخلصوا له النصيحة لما بلغت بنا الحال الى هذا الحد »

ولا يخفى أن مثل هذا التصريح فى ذلك العصر خصوصا فى طليطلة كان يعد ضربا من الكفر لما علمناه من سطوة الاكليروس هناك ، ولولا تغلب الحدة على ذلك القائد لم يصرح بما صرح به . ففتح بهذه الجسارة بابا لاستقواء رودريك عليه فاستعلى بحجته وحول وجهة الكلام الى الدفاع عن الاساقفة ، وقد أراد بذلك أن يغطى خطأه فقال : « ألم تكتف بالجسارة على مقام الملك حتى تجاسرت على مقام الاساقفة . ان ذلك خارج عن حدود منصبك »

وكان الأب مرتين يرتعد من شدة الغضب فلما رأى الملك لا يزال على ثباته تعرض وخاطب كوميس قائلا : « ولا أظنك تجهل ياحضرة الكونت أن كلمة من جلالة الملك أو من أحد الاساقفة تكفى لتجريدك من هذا المنصب ! »

ولم يكن كوميس يتوقع هذا الاستخفاف من الملك نفسه فكيف من ذلك القسيس فوقف ويده على قبضة سيفه وقال : « لقد

خسرتم بهذا الكلام وهذه المعاملة سيف كوميس ، وأنتم فى أشد الحاجة اليه » . وخرج وقد أخذ منه الغضب مأخذا عظيما !

أما رودريك فقد كان يجادل هذا القائد مدافعة ولم يكن يريد أن يغضبه فى هذا المقام ، ولذلك ساءته عبارة مرتين أكثر مما ساءت كوميس . ولم يجسر أحد من الحضور على التوسط فى الامر لئلا يتعاظم الخصام وقد وقع ما تخوفوه . ثم وقف الملك فعلموا أنه يريد فض الجلسة فخرجوا الا مرتين . فلما انفردا التفت الملك اليه وقال : « أهكذا أغضبت قائدنا وصاحب جندنا ، ونحن فى أشد الحاجة اليه ؟ » . قال : « أتلومنى أيها الملك على انتهاره بعد أن أهانك وأهان السادة الاساقفة جميعا ؟ ان الصبر على ذلك ذل لا يطاق ! »

قال الملك : « أنت تعلم أن كوميس أعظم قوادنا ، ولم نكن فى وقت من الاوقات أشد حاجة اليه مما نحن الآن ، والعدو ببابنا وولاتنا يدلونه على عوراتنا ، سامحك الله على هذا الخطأ ، ألا يكفى ارتكابنا الخطأ الاول باخفاء تلك الاخبار عنه وعن سائر رجال الدولة حتى ارتكبت خطأ آخر شرا منه ؟ »

فاستاء الأب مرتين من هذا التعريض وقال : « كأنك تقول لى انى أنا سبب ذلك الخطأ ! فاذا كنت أشرت عليك مشورة فاسدة كان الاولى ألا تقبلها » . قال ذلك ومشى وسط القاعة ويده اليسرى وراء ظهره ، والاخرى يمسح بها ما تناثر من ريقه على شفتيه ولحيته ، فشق ذلك على الملك وعدها اهانة أخرى وقال : « أتكون مخطئا وتضيع منا أحسن قوادنا ، ثم تنقم علينا وتستخف بأقوالنا ويكون الذنب مع ذلك ذنبنا ؟ ! »

فأجابه مرتين وهو يهز رأسه ويمشى ولا يلتفت اليه : « صدقت أيها الملك ، ان الذنب ذنبى والخطأ كله خطئى ، وكل هذه الشرور من نتائج أعمالى . لانى لو لم أسىء الى بنت صاحب سبتة لم يكن والدها عونا للعرب على فتح بلادى ! » . ثم وقف بغتة وحول وجهه اليه وقد اشتد غيظه وارتعدت أطرافه وزاد لسانه لعثمة وتمتمة وقال : « تخطىء يا رودريك ثم تلصق الخطأ بشيبتى ؟ ثم اذا أهين الاساقفة لا يهمك الدفاع عنهم وهم الذين ولوك هذا المنصب ونصروك وعضدوك ! ألم يكونوا هم الذين دافعوا عنك بالامس وسط المجمع واتهموا رجلا بريئا بتهمة لا أصل لها ؟ ثم تقول انى كنت سببا فى خسارة ذلك القائد ، وأنت انما خسرته بسوء تدبيرك وانهماكك فيما لا ينفعك . وبسوء تدبيرك خسرت أيضا الأب مرتين الذى لم يكن ينبغى أن تنسى

تعبه فى مصلحتك ودفاعه عنك ! » . قال ذلك والتف بردائه وخرج من القصر ، فلما خلا رودريك بنفسه ، وتصور عظم الخطر المحدق به جلس على كرسيه وألقى رأسه على كفيه ، وراجع ما مر به من الحوادث فى الاشهر الاخيرة ، وتذكر فلورندا ووالدها فتحقق لديه أن يوليان انما انحاز الى العرب غضبا لها ، فاشتد حنقه وتراكمت عليه الهواجس ، وعظم عليه الامر خصوصا بعد أن فقد قائده وأساء الى قسيسه

▭

واتفق وصول الرئيس سرجيوس فى اليوم الثانى من هذا الخصام ، فنزل فى الكنيسة الكبرى على عادة الاساقفة ورؤساء الأديار اذا جاءوا طليطلة . فعجب لوجود الاب مرتين بها وعهده به فى قصر الملك . فسلما وتخاطبا مليا فى شؤون مختلفة والرئيس يستطلع ما فى نفس مرتين . وكان الأب مرتين على كبر سنه حاد المزاج سريع التأثر ، متسرعا فيما يخطر له كما تبين لك من وصف أخلاقه ، فلم يخف على سرجيوس شيئا مما وقع بالامس له وللكونت كوميس . وحملته حدة مزاجه وتسرعه على الايقاع برودريك والتنديد بفساد رأيه كأنه من ألد أعدائه ، وهو انقلاب غريب لا يحدث الا فى أصحاب المزاج العصبى أو الدموى الحاد

أما سرجيوس فقد جاء طليطلة وهو لا يتوقع سبيلا الى مقابلة أوباس أو انقاذه ، فلما لقى مرتين هان عليه ذلك فذكر أوباس بين يديه وزعم أنه سمع بسجنه . فلما سمع مرتين اسم أوباس تذكر ما كان من اعتدائهم عليه وانه سجن ظلما أو على الاقل أسىء اليه بتهمة لم تثبت عليه . ونظرا الى غضبه على رودريك رأى فى انتصاره لأوباس ما يشفى بعض غليله انتقاما من ذلك الملك ، فقال لسرجيوس : « ان أخانا أوباس سجن لتهمة اتهمه بها رودريك وقد حوكم فلم تثبت عليه التهمة ، فأجلت المحاكمة وسجن الى أجل غير مسمى ريثما تعاد محاكمته ، ولكن يظهر أن الملك لن يطلب العودة اليها »

فقال سرجيوس : « وهل تظن أنه يبرأ اذا استأنفوا محاكمته ؟ » . قال : « لا ريب عندى فى ذلك » . قال : « ولماذا لم يطلب الاستئناف؟» . فابتسم مرتين وهز رأسه وهو يقول : « وكيف يطلب ذلك وهو محجور عليه فى غرفة لا يرى فيها أحدا ، لأن رودريك منع الناس من الدخول؟ » الدخول ؟»

فقال : « وهل من سبيل الى رؤيته بغير اذن الملك ؟ » . فقال

مرتين وهو يبتسم : « ان ذلك هين على . فهل ترى أن نحرض أخانا المذكور على طلب الرجوع الى المحاكمة ؟ »

قال ذلك لارغبة فى نصرة أوباس ولكنه كان يتوقع ألا تغيب الشمس قبل أن يبعث اليه رودريك ليسترضيه ، فلما أصبح الصباح ولم يأته من قبله أحد اشتد حنقه ، فلما خاطبه سرجيوس فى شأن أوباس أراد أن يستنهضه لاستئناف محاكمته لاعتقاده أن رودريك يخاف ذلك الطلب ، خصوصا بعد ما ظهر من غضب يوليان وكوميس ، فلا يرى له مندوحة عن استرضائه لملافاة الامر

أما سرجيوس فاستبشر بما سمعه وقال : « اذا أدخلتنى اليه نبهت ذهنه الى ذلك » . فنهض مرتين للحال وأتى بدواة وقلم وكتب رقعة الى الضابط الموكل بحراسة أوباس أن يأذن للرئيس سرجيوس بمقابلته . فأخذ سرجيوس الرقعة وهو لا يصدق أنه قبض عليها وسار مسرعا الى أوباس

وأما أوباس فكان ما يزال فى سجنه وقد قطعوا كل علاقة بينه وبين سائر العالم ، وهو يتلقى ذلك بصدر رحب ويغالب المصائب بالصبر ، ولم يكن يشعر بوحشة الانفراد لما فى ذهنه من الموضوعات التى لا يستطاع التأمل فيها الا باعتزال الناس . وكان اذا فكر فيما سجن من أجله أشفق على رودريك وأمثاله لما هم فيه من الغرور ، ولما يرتكبونه من السيئات المهلكة التماسا للذة وقتية أو سعيا وراء وهم زائل . فكانت هذه التأملات وأمثالها فى غرائب ماجريات الطبيعة تستغرق منه الساعات والايام ، وهو سابح فى عالم الفلسفة يحسب نفسه فى نعيم وسائر الناس فى شقاء ، لولا ما كان يعترض تأملاته من أمر فلورندا والفونس ، وان كان قد وكل أمرهما الى الله اذ لاحيلة له فى مساعدتهما أو فى معرفة السبيل اليهما

فلما كان اليوم الذى جاءه فيه سرجيوس دخل عليه حارسه وقال له ان رئيس دير الجبل يريد مقابلته . فلما سمع اسم ذلك الرجل عرفه وخفق قلبه خفوق البغتة لطول عهده بالاعتزال ، وأذن له وهو يستغرب مجيئه وحصوله على الاذن فى الدخول عليه . وكان سرجيوس يتوقع أن يرى تغييرا فى سحنة أوباس بعد ما سمعه من طول سجنه . فلما دخل عليه رآه مقبلا لاستقباله بثوبه الكهنوتى — لانه لم يبدله منذ أقام هناك الا قلنسوته فلم يكن يلبسها — فمشى الى سرجيوس وشعره مرسل على ظهره وكتفيه وقد زاده مقامه فى تلك الخلوة هيبة وجلالا

فلما تلاقت الابصار أسرع سرجيوس وأكب على يد أوباس كأنه يريد تقبيلها فمنعه من ذلك وعانقه وضمه اليه ، ثم تصافحا وسرجيوس لا يستطيع امساك دمعه ، وأوباس ينظر اليه ويده على كتفيه لطول قامته بالنسبة اليه . ثم دعاه للجلوس فجلسا على مقعد متحاذيين وسرجيوس يتأهب للكلام فسبقه أوباس قائلا : « أهلا بصديقي وأخي سرجيوس .. من أين أنت آت الآن ، ولماذا ؟ »

قال : « أتيت من دير الجبل ولا غرض لى الا رؤية الاسقف أوباس فأحمد الله على سلامته . ولا بأس مما قاساه من البلاء ، فان الله يجرب خائفيه »

قال : « أنت من أهل العلم والحكمة وتحسب اعتقالى فى هذه الغرفة بلاء ؟ أليس الناس جميعا محبوسين على هذه الارض ، وآجالهم قصيرة ، وقواهم محصورة ، وأعمالهم لا تملأ أفئدتهم ؟ وهل من فرج الا فى العالم الباقى لمن أحسن عملا ؟ وأما أهل الظلم فانهم يشقون فى الدنيا والآخرة . فلا تشفق على سجين برىء الساحة نقى السريرة ، فان سجنه وان طال قصير ، ولكن ابك أناسا منحهم الله السلطة على اخوانهم من بنى الانسان ليحكموا بينهم بالعدل ، ويكونوا عونا لهم على دنياهم ، فظلموا وأساءوا اليهم ، وأهرقوا دماء الالوف منهم فى سبيل لقمة يلتقمونها أو لذة ينغمسون فيها ، ولكنهم انما يظلمون أنفسهم ولايعلمون ! » . قال ذلك بصوت هادىء لايتخلله اضطراب ولا حدة ولا شىء من عواقب الانفعال النفسانى ، فزاد اعجاب سرجيوس بما سمعه من الحكمة والموعظة . على أنه أراد أن يؤدى المهمة التى جاء من أجلها فقال : « لقد صدق مولاى ، ولكن الله كثيرا مايعاقب الظالمين ويثيب المحسنين فى هذه الدنيا ليكونوا عبرة لسواهم . وقد أتيتك الآن بأخبار جديدة لا ريب أنك مشتاق للاطلاع عليها . ألا تريد الاطلاع على ما كان من أمر فلورندا بعد فرارها من بين يدى رودريك ؟ »

فلما سمع أوباس ذلك تحركت فيه عاطفة الحنان ، وبدأ الاهتمام فى وجهه ، ونسى ما كان من فلسفته واستخفافه بحوادث الطبيعة ـ والانسان مهما يكن من تعقله وزهده لا يلبث اذا تحركت فيه عاطفة الحب أن يهتم بالحياة وأهلها ـ فقال : « وهل تعلم شيئا عنها ، وأين هى ؟ »

قال : « هى فى دير الجبل » . ثم قص عليه ما علمه من خبرها منذ خروجها من قصر رودريك فى طليطلة حتى أتت الدير الى أن

قال : « وهى مقيمة عندنا فى أمان وسكينة . ولكنها فى قلق شديد عليك وعلى الفونس لانها لا تعرف مقره . ولو عرفته لا تستطيع الذهاب اليه ، لما أقامه رودريك فى سبيلها من العيون والأرصاد »

فاطمأن بال أوباس على فلورندا ولكن ساءه تضييق رودريك عليها فقال : « ألا يزال هذا الرجل يتعقب هذه الفتاة ويضيق عليها ؟ »

فابتسم سرجيوس وقال : « ولكنه لا يلبث أن يقع هو فى الضيق ويفرج عن النـاس كافة ، خصـوصـا أنت » . ورأى أوباس فى عينى سرجيوس ما يدل على أمور مهمة يريد التصريح بها فأبدى الاهتمام وقال : « وكيف ذلك ؟ »

فمد سرجيوس يده الى جيبه واستخرج كتاب يوليان وهو لا يزال فى أنبوبته وقال : «لما خرجت فلورندا من طليطلة كما قدمت لسيادتكم لم يسعها الا أن تكتب الى أبيها كتابا تشكو فيه ماحل بها من الشقاء فى قصر رودريك وما أراده منها . وبعثت بالكتاب مع أجيلا فجاءها جواب حاسم لما نحن فيه ، واليك هو». ودفع الانبوبة اليه ، فتناولها أوباس واستخرج منها الكتاب ملفوفا وفضه وقرأه وأعاد قراءته وسرجيوس ينظر الى ما يبدو من آثار ذلك فى سحنته فلم ير تغييرا يذكر ، فلم يستغرب ذلك لانه من جملة أدلة رباطة الجأش وسعة الصدر . ولكنه توقع أن يسمع ما يدله على ذلك الاثر فاذا هو يقول : « هل زادكم أجيلا ايضاحا ؟ »

قال : « نعم . انه رأى جند العرب ينزلون شواطىء أسبانيا ويوليان معهم يدلهم على عورات البلاد »

قال : « وهل علم رودريك بذلك ؟ » . قال : « نعم جاءته الاخبار منذ أيام فلم يعبأ بها ولا أطلع أهل مجلسه عليها ، فآل ذلك الى زيادة الخرق اتساعا وبات رودريك فى أشد الضيق وأصبح خروج الملك من يده أمرا محتوما »

فقال أوباس : « وما سبب هـذا الانقـلاب ؟ » . قال : « لان الكونت كوميس قائد الجند العام علم بنزول العرب شواطىء أسبانيا من أناس أتوا طليطلة من هناك ، وتحقق أن رودريك أخفى ذلك الخبر عنه فعاتبه فى مجلس حضره كبار الموظفين ، فآلت المعاتبة الى المنافرة ، فخرج كوميس من الجلسة غاضبا من رودريك ومن قسيسه مرتين . وبعد انفضاض المجلس عاتب رودريك قسيسه ، فخرج هذا وأقام فى الكنيسة الكبرى حيث لقيته وفهمت منه أنه ناقم على رودريك ، وساعدنى من أجل ذلك فى الوصول اليك برقعة كتبها الى الحارس .

ويرى الأب مرتين أنك لو طلبت استئناف النظر فى قضيتك لا ريب فى خروجك بريئا . وفى كل حال فان الله رد كيد الظالمين الى نحورهم . وهذا رودريك قد هجره قائد جنده وأخص أخصائه وبات هزءا بين الناس ، ألا ترى ذلك من تدبير العزيز الحكيم ؟ »

وكان سرجيوس يتكلم ويتفرس فى وجه أوباس ليتبين ما يبدو فيه ، وأوباس مطرق يمشط لحيته بأنامله وهو مستغرق فى الافكار وقد قطب حاجبيه وبان الاهتمام فى عينيه . فلما فرغ سرجيوس من الكلام رفع أوباس بصره اليه وهو لا يزال مستغرقا فى الافكار وجعل يحدق ببصره فى وجه سرجيوس كأنه يستطلع ضميره . فلم يستطع سرجيوس احتمال أشعة تينك العينين أو الصبر على التحديق فيهما وهما كأنهما منفذ للسيال الكهربائى المتولد فى الدماغ من امعان الفكر ، فكلما زاد الدماغ عملا زاد ذلك السيال غزارة . وظل كلاهما صامتا بضع دقائق ، ثم تكلم أوباس قائلا : « أتستحسن الانتقام من رودريك فى هذه الفرصة ؟ » . فقال سرجيوس : « وهل تتوقع فرصة أثمن منها وهو الآن متضعضع الاحوال ، أعداؤه يهددونه وأصدقاؤه يتوعدونه ؟ »

فنهض أوباس وجعل يخطر فى أرض الغرفة ذهابا وايابا وأنامله فى لحيته يمشطها ، وشعر رأسه يجلل كتفيه ، وقد زاده السكوت وقارا وهيبة ، وسرجيوس ينظر اليه ولا يتكلم . ثم وقف أوباس بغتة أمام سرجيوس فنهض هذا وأصغى استعدادا لما سيقوله ، فاذا هو يقول : « أمن المروءة يا سرجيوس أن نغتنم ضعف عدونا ونحمل عليه وهو فى أشد الضنك ؟ وهل من الحكمة والتعقل أن نساعد الغريب على القريب ؟ ان رودريك مهما قيل فيه فهو منا ونحن منه ، نشرب من ماء واحد ، ونقرأ فى كتاب واحد ، ونتكلم لسانا واحدا ، ونصلى صلاة واحدة ، ونتناول القربان المقدس من كأس واحد ، ونجتمع فى كنيسة واحدة . فكيف نغتنم ساعة ضعفه ، ونعين عليه أناسا لا نحن منهم ولا هم منا ، ولا دينهم من ديننا ولا وطنهم وطننا ؟ زد على ذلك أن الانتقام من رودريك فى هذه الفرصة يجر البلاء على كل بلاد الأسبان اذ نخرجها من حضن دولة ربتها وعاشرتها ، الى دولة جديدة لا نعرف شيئا عنها . ولا ندرى ما يصير اليه أمر هذه البلاد اذا فتحها العرب . ألم يسفك أجدادنا دماءهم فى فتح هذه الجزيرة واستمثارها ، فكيف نسلم بذهابها هدرا ؟!. أما ما فى أنفسنا من انكار حق رودريك فى الملك فانما هو من قبيل ما يحدث من التنازع

بين الأخ وأخيه أو الأب وابنه ، فلا يجوز أن يستعين أحدنا على الآخر بأمة غريبة جنسا ومذهبا ووطنا. وأما ما ارتكبه رودريك من الشطط فى اساءتى فيكفيه من ضميره ما يعذبه ، والله يتولى أمره . فنحن يا سرجيوس فى موقف يقتضى أن ننبذ فيه الضغائن ، ونتحد على العدو المهاجم رغبة فى سلامة المملكة . ويجب أن نغضى عما أساء به أحدنا الى الآخر . وها أنذا أبدأ بنفسى فاذهب الى رودريك واستحثه على الاتحاد فى سبيل الوطن» . قال ذلك ومشى الى رف كانت قلنسوته عليه فوضعها على رأسه ، وهم بالخروج وقد ظهر التأثر فى وجهه ، ونسى أنه فى سجن ولا سبيل الى خروجه الا باذن الملك !

وكان سرجيوس فى أثناء ذلك الخطاب يتصاغر فى عينى نفسه ، فما أتى أوباس على آخر أقواله حتى رأى سرجيوس نفسه أمامه كأحقر الناس ، وان أوباس من طينة أرقى من طينة البشر ، ولم يتمالك أن أكب عليه فضمه الى صدره وقبل لحيته وعارضيه وقال له : «بورك فيك . ما أنت بشر ، انما أنت ملك كريم ! لقد حقرتنى فى عينى وجعلتنى مرذولا عند نفسى . فأنا تابع لك فيما تصنعه عامل بما تأمر به »

وكان أوباس فى أثناء ذلك يلبس قلنسوته ويصلح شعره تحتها ، ثم مشى نحو الباب وما أدركه حتى أدرك انه لا يستطيع الخروج بغير اذن الملك ، فتراجع وقد خجل لغياب ذلك عن ذهنه وتناول لوحا من ألواح الكتابة (مكسوا بالشمع) فكتب عليه ما يأتى :

« من أوباس الاسقف الى رودريك ملك طليطلة :

« أكتب اليك من سجنى لا لرحمة أرجوها ولا لنكبة أخافها ، ولكننى علمت بمصيبة تهدد المملكة فأردت أن أكون شريكا فى دفعها ، وأن أضع رأسى بين رؤوس جنودها . ولى كلام أحب أن ألقيه على مسامعك ، فمر بحملى اليك ، والسلام »

وخرج فدفع الكتاب الى الحارس وأمره أن يوصله الى الملك وعاد الى مجلسه فحمل الضابط الكتاب وسار

وكان رودريك قد أصبح فى ذلك اليوم محتارا فى أمره بعد أن هجره قائد جنده فلا هو يتنازل لاسترضائه ، ولا ذاك يعود اليه من تلقاء نفسه . ولو كان الاب مرتين عنده لاستخدمه فى فض هذا المشكل فقضى معظم اليوم فى غرفته واذا بخادمه الخاص يحمل اليه كتاب أوباس ، فتلاه وهو لا يصدق انه يقرؤه فأعاد قراءته غير مرة

ولما فرغ من ذلك أمر أن يكتب باستقدام أوباس مخفورا وخرج لانتظاره فى قاعة المجلس

وبعد هنيهة دخل أوباس بقدم ثابتة وجأش رابط فلبث رودريك صامتا ساكنا ليرى ما يبدو منه . فبدأ أوباس بالكلام قائلا : « انى لم آتك لعتاب أو توبيخ ، انما جئت لأمر يتعلق بمصلحة المملكة على أثر ما بلغنى من نزول العرب فى شواطئها وعزمهم على فتحها ، وان قائد جندك أغضب نفسه وأغضبك ، واغتنم ساعة حاجتك اليه وهجرك ، وهو ضعف شبيه بضعف يوليان صاحب سبتة فانهما غضبا من أحد رجال القوط فعمدا الى الانتقام من المملكة كلها ، ومن نفسيهما لأنهما من أفرادها ! على ان خطأهما لايبرىء الملك من الخطأ الذى اقترفه مما لا نخوض فيه الآن » . قال ذلك بسكينة ورزانة والجد باد فى وجهه ، فاستغرب رودريك ما سمعه وارتاب فى اخلاص أوباس ، ولم يتصور مثل هذه المناقب لبعدها عن مناقبه ـ كما يستبعد الشهم الوفى وجود أناس يكافئون على الحسنة بالسيئة ـ فأراد أن يتبين حقيقة مراد أوباس فقال : « وما الذى تراه ؟ »

قال : « لقد أحسنت فى اقتصارك على الموضوع الذى نحن فيه ، فالذى أراه أن تبعث الى الكونت كوميس والى الاب مرتين ، فاذا حضرا أوبخهما وأحرضهما على الرجوع اليك والعمل معك فى انقاذ هذه المملكة من غارة المهاجمين ! »

فأمر رودريك بعض الحرس ببابه أن يذهب فى استقدامهما حالا . فسار الرجل وأشار رودريك الى أوباس بالجلوس وهو لايصدق انه يقول ما يقوله عن اخلاص وحمية ، وظل صامتا يخاف أن تبدر منه بادرة يلام عليها لأن أوباس بهره بمروءته وجسارته . وأما أوباس فجلس ولم يعبأ بمن فى حضرته . وبعد قليل عاد الرسول وأنبأ الملك بقرب مجيئهما . ثم أقبل كوميس فحيى باحترام وجلس باشارة الملك وقد استغرب وجود أوباس هناك . ثم جاء مرتين وعجب حالما وقع نظره على أوباس . أما أوباس فالتفت الى رودريك واستأذنه فى الكلام فأذن له فوجه كلامه الى كوميس قائلا : « قد بلغنى يا حضرة الكونت انك خرجت بالامس من مجلس الملك غضبا ، فكيف أنت الآن؟ »

فقال : « لم أغضب من جلالة الملك الا غيرة على المملكة . ولكننى لم أبلغ منزلى وأخل بنفسى حتى رأيتنى عجلت فى عملى لأننا فى حالة تدعو الى الاتحاد لدفع الاعداء »

ولم يتم كلامه حتى ابتدره أوباس قائلا : « عوفيت من شهم صادق .

ذلك رجائى فيك لعلمى بحدة مزاجك ، وحاد المزاج سريع الرجوع الى الصواب » ثم التفت الى مرتين وكان جالسا مطرقا وقال : « ولا أظن الاب مرتين الا فاعلا مثل ذلك أيضا » . فظل مرتين مطرقا ولم يجب . فالتفت أوباس الى رودريك وقال : « لاريب عندى فى رغبة قداسة الاب فى الوفاق والوئام ونبذ البغضاء عملا بوصية السيد المسيح . ولذلك فاننا لا نطيل الكلام فى هذا الشأن بل نبادر الى العمل . فيأمر جلالة الملك بعقد المجلس من كبار الدولة للنظر فى الوسائل اللازمة »

فرفع مرتين رأسه عند ذلك ووجه خطابه الى الملك قائلا : « كيف تبرمون مثل هذا الامر قبل عرضه على مجمع الاساقفة ، وجلالة الملك يعلم ان قوانين المملكة تقضى بذلك ؟ ! »

▭

ولم تكن تلك القوانين خافية على أوباس ولكنه أراد السرعة لأن جمع الاساقفة يستغرق بضعة أسابيع . على انه خاف اذا أنكر جمعهم ان يفسد مرتين ما أصلحه فعذر الرجل على تعنته فقال : « لم أطلب ابرام شىء دون رأى المجمع ، ولكننى أردت التئام مجلس الملك للبحث فيما يعرضونه على المجمع » . وقد فاته ان مرتين انما أراد عرض ذلك على المجمع ليشكو اليه خروج أوباس من السجن ، لأنه اغتاظ من جلوسه فى حضرة الملك ، وزاد غيظه لما رآه جالسا مجلس المشير !

فاستحسن رودريك عقد مجلسه فبعث اليهم وهم الكونتيه الذين تقدم ذكرهم فحضروا . وقبل عقد الجلسة طلب الكونت كوميس الجرى فى عقدها على القوانين الرسمية وهى تقضى باخراج مرتين منها لأنه ليس من رجال الدولة فخرج وهو يتميز غيظا !

فلما التأمت الجلسة وقف أوباس ورفع يده وبارك وصلى صلاة حارة شفعها بالتوسل الى الله تعالى أن يجمع قلوب القوط ليتحدوا على حماية بلادهم ، ثم خاطب الحضور قائلا : « أنتم تعلمون الاساءة التى لحقت بى من جلالة الملك ومن مجلس الاساقفة حتى سجنونى سجن المجرمين شهرين كاملين لم أر فى أثنائهما غير الموكل بحراستى ، وقد حكموا على بذلك لغير ذنب اقترفته ، ومع ذلك فحالما علمت بما يهدد المملكة من الاخطار استأذنت فى مقابلة الملك ، وعرضت نفسى للعمل فى جملة العاملين على انقاذها . فأحرى بكم أن تكون رغبتكم فى ذلك وأنتم رجال الدولة ومديرو شئونها ؟ ولست أنبهكم الى أمر

تعلمونه ، ولكننى أبث لكم عواطفى فى هذا الشأن وانى أصغر العاملين فى هذا السبيل »

فقال الكونت كوميس : « ان شهامة أوباس ومروءته وتعقله أشهر من أن تذكر ، ولكننا لم نكن نحسب فى البشر مثل هذه العواطف . فكيف نرى ما سبقنا به هو ولا نتفانى نحن فى خدمة الملك ؟ ولكننى لا أرى تأجيل العمل الى اجتماع الاساقفة لئلا يضيع الوقت بلاطائل »

فقال أوباس : « ولكن لابد من استشارتهم فى مثل هذا الامر وهم كما لايخفى أصحاب الفضل الاكبر فى تنظيم هذه الحكومة ووضع قوانينها وأحكامها وتدبير شئونها »

فقال رودريك : « لايمكننا القطع فى التجنيد والمحاربة الا بعد مشورتهم »

فقال كوميس : « لابأس من استشارتهم ، ولكن الوقت قصير والفرصة ثمينة »

فخاف أوباس أن يحتد كوميس فيذهب سعيه سدى وتذكر أن مرتين خرج من الجلسة حاقدا ، وخاف اذا لم يسترضوه أن ينقلب عليهم ويهيج الاساقفة على الملك ، فتنقسم المملكة على نفسها وتكون المصيبة الثانية شرا من الاولى ، فعمد الى ملافاة ذلك قائلا لكوميس : « أراك ضيقت الفرصة ودققت فى الطلب ، فالاساقفة كما قلت لابأس من استشارتهم بل أرى احترامهم واجبا لأنهم واضعو أساس هذه النظم كما تعلم ، فضلا عما قد يترتب على نصائحهم من الفوائد . زد على ذلك ان الاتحاد يقضى علينا باستشارتهم لأن غضبهم يفضى الى الشقاق لا محالة . ولا يخفى عليك أيضا ما يترتب على ذلك من ضياع النتيجة التى انما تسل سيفك وتشحذ قريحتك فى سبيل الوصول اليها . فرجائى فيك ان تتلافى هذا الخطر ولا شك عندى انك متلافيه فألتمس أن تبدأ بذلك من هنا (وأشار الى باب القاعة حيث خرج مرتين) لأن حضرة الاب اذا رضى هان الامر » . ثم وجه كلامه الى رودريك وقال : « هل يأذن مولاى فى استقدام الاب مرتين ليحضر هذه الجلسة ونجعل له حظا من هذا البحث ؟ »

فكان كلام أوباس نافذا بلا مراجعة لأنه بهرهم بما أتاه من الحمية والمروءة ، فضلا عما فطر عليه من قوة العارضة . فأمر رودريك باستقدام مرتين وكان منفردا فى بعض غرف القصر . فلما دخل وقف أوباس وبش له وقال : « ليس فينا يا حضرة الاب من يجهل حق سيادة الاساقفة فى شئون مملكة القوط ، ولكن ولدنا الكونت

كوميس رجل حرب يحب المبادرة ، وغيرته على صيانة هذه الدولة هى التى حملته على التسرع . وهو مصيب بالنظر الى قوانين الحرب . ولكننى أرى رأى حضرة الاب بالنظر الى وجوب استشارة الاساقفة على انى أخاف أن يدعو ذلك الى التأخير فتفوت الفرصة ويذهب سعينا ضياعا ، ولا أظن السادة الاساقفة اذا اجتمعوا واستشيروا يشيرون بغير المبادرة الى الحرب ، بل أحسبهم يلوموننا على تأخير التجنيد الى اجتماعهم . فالذى أراه — والامر لجلالة الملك — أن نبدأ بالتأهب للحرب ومخابرة الاطراف فى حشد القوات والاموال ، ونبعث الى الاساقفة فنجمعهم ونتلو عليهم قرار هذا المجلس ، أو نبعث اليهم بخلاصة أعمالنا وهم فى أبرشياتهم لأننا أحوج اليهم الآن هناك . واذا أذن لى الملك قلت كلمة فى هذا الشأن ، والرأى راجع اليه فى كل حال ، ذلك انى أرى أن ينتدب قداسة الاب مرتين لينوب عن جلالته فى تبليغ الاساقفة قرار هذه الجلسة ، واذا رأيتم انى أليق بهذه الخدمة قدمت نفسى لها ، أو كما تشاءون »

فلما فرغ أوباس من الكلام لم ير مرتين سبيلا للرد عليه لعلمه ان أمر المجلس نافذ لا محالة ، وقد أعجبه رأى أوباس بانتدابه لمخابرة الاساقفة ليتمكن من بث ما فى نفسه اليهم ، لكنه أساء الظن فى ذلك الانتداب وظن أوباس انما يريد ابعاده عن مجلس الملك ، أو أن يفر هو من محبسه لغرض له ، وكلا الامرين لم يرضه . فلم ير خيرا من قبول قرار المجلس ، وعمد الى المغالطة فقال وهو يحاول كظم غيظه من تغلب أوباس على رأيه : « لا أظن حضرة الملك يسىء الظن بقصدى اذا التمست جمع الاساقفة فانه طلب قانونى . وأما الحرب فانها كما قال أخى أوباس تدعو الى العجلة ، وللملك أن يبلغ الاساقفة بالطريقة التى يختارها . وأما أنا فانى أعد تلك المهمة شرفا لى ولكنها تبعث الى التطويل لما يقتضيه ذلك من الانتقال من أبرشية الى أخرى ، وكذلك انتداب حضرة الاسقف . فالانسب أن ينتدب جلالة الملك من شاء من حاشيته ويفرقهم دفعة واحدة فيصل الخبر الى السادة الاساقفة فى وقت معا »

ولم يجهل أوباس ما ينطوى تحت تلك الملاينة من الكظم والحقد ، ولكنه تجاهل رغبة فى النتيجة ، وأغضى عن كل سيئة فى سبيل الوصول اليها ، فأبدى استحسانه لموافقة مرتين والتفت الى رودريك وهو يبتسم وقال : « لقد تم الاتفاق بحول الله ، فما على جلالة الملك الا

أن يتحد مع مجلسه فى التأهب للحرب ، ونحن فى كل حال فى خدمة المملكة فى كل ما تريدون »

فلم يسع الملك بعدماعاينه من مساعى أوباس فى نصرته الا أن يحترمه ويتصاغر فى عينى نفسه ، فقال له : « بورك فيك يا أوباس » . فقطع أوباس كلامه خوفا من اثارة حسد مرتين ، وكانت حجته فى قطعه انه لايريد أن يسمع الثناء على نفسه ، ثم وقف وطلب الى الملك أن يأذن له فى الانصراف الى سجنه فقال رودريك : « امكث معنا يا أوباس فانك نعم المشير ، ودع السجون لأهلها »

فقال أوباس : « أشكرك على ذلك ، ولكننى أستأذن فى الانصراف من هذه الجلسة على أن أعود بعد قليل »

فأذن له فخرج أوباس وقد حمد الله على نجاح مسعاه فلقيه سرجيوس فقص عليه ما كان ، فازداد اعجابا بتلك المناقب الشريفة

وعاد سرجيوس بعد بضعة أيام الى الدير ، وكانت فلورندا تنتظر رجوعه بفارغ الصبر . فلما عاد وقص عليها ما أتاه أوباس الى آخر الحديث أحست بانقباض فى نفسها لأنها عدت ذلك مخالفا لما كانت تتوقعه من سقوط هذه الدولة على يد والدها ، وما تخافه على نفسها وعليه اذا لم يفز العرب فى هذه الحرب ، فوقعت فى حيرة ولكنها لم تستطع تخطئة أوباس لأن نواميس الشرف والمروءة تؤيده وتنصره ، ولولا ضعف المرأة وايثارها الانتقام لما تخيرت فلورندا غير ما أراده أوباس ، ولكنها لم تكن ترى سبيلا الى السعادة الا بقتل رودريك خصوصا بعد أن جاهر والدها بحربه ، فانتصار رودريك يعود بالويل والثبور عليهما . وسألت الرئيس عن الفونس فأخبرها انه فى استجة مع فرقة من الجند ينتظر أوامر رودريك . فتاقت نفسها للذهاب اليه لعلمها انه لو كان عالما بمقامها لسعى اليها أو بعث فى استقدامها ، ولكنها خافت العيون واستشارت سرجيوس فى ذلك مرة ، فقال لها : « البثى عندنا ريثما نرى ما يكون من أمر هذه الحرب »

▭

قضت فلورندا فى ذلك الدير بقية فصل الشتاء وكل فصل الربيع ، وهى تتنسم الاخبار بواسطة اجيلا وشانتيلا وسرجيوس ، فلم تسمع الا بانتصارات العرب ووالدها معهم ، وقد دخلوا أسبانيا وأوغلوا فى مقاطعة بوتيكة . وكان رودريك قد أعد جنده وتأهب للخروج اليهم ، فسمعت انه برح طليطلة بنفسه ومعه العدة والرجال ، واضطربت أسبانيا بجملتها وفيها الخائف والشامت ، والآسف

والناقم . لاختلاف الاحزاب وتضارب الاغراض

أما أهل دير الجبل فقد كانوا يسمعون الاخبار وهم يرون الخطر بعيدا عنهم لبعدهم عن ساحة الحرب . وفلورندا قد تراكمت عليها الهواجس والخوف على أبيها وخطيبها ، لا تدرى هل تسير الى أحدهما ، أو كليهما ، أو تبقى فى ذلك الدير ؟ وكانت ترجح بقاءها هناك على رجاء أن يبعث والدها فيستقدمها كما قال . فلما أقبل الصيف أصبح دير الجبل عليل النسيم عذب الماء نشيط الهواء وقد اكتست أوديته حلة خضراء

ففى يوم من أيام يوليو استيقظت فلورندا مبكرة وهمت بالخروج من الدير للتمشى فى بساتينه على عادتها ، ولكنها قبل أن تخرج جاءها اجيلا يدعوها الى الرئيس ، وكانت قد مضت مدة لم يدعها اليه فاختلج قلبها وأسرعت حتى أقبلت على غرفته ، فرأت عنده كهلا لاتدل سحنته على انه من القوط أو من الرومان ، ورأت عليه لباسا تذكرت انها كانت ترى مثله وهى عند والدها فى سبتة . ولما دنت من الرجل رأت آثار السفر على وجهه بما غشى لحيته وشاربيه من الغبار ، حتى حاجبيه وأهدابه فان الغبار غلب على لونها جميعا . فتوسمت فلورندا من ذلك القادم خبرا جديدا فدخلت وحيت فرحب بها الرئيس وقال : « هذا رسول من أبيك »

فلما سمعت ذلك خفق قلبها وتوردت وجنتاها بغتة والتفتت الى الرجل وقالت : « ما وراءك ؟ » . قال : « انى من أصدقاء أبيك ومحبيه والمطلعين على أسراره ، وقد علمت بكتابك اليه وما ترتب على ذلك كله من الانقلاب . ألا تعرفيننى يا فلورندا ؟ »

فلما سمعت فلورندا صوته وتأملت ملامحه تذكرت انها شاهدته غير مرة فى صباها وانه كان كثير التردد على بيت والدها فى سبتة . فاستطأها الرجل وقال : « ألا تعرفين سليمان التاجر ؟ »

فانتبهت فورا وقالت : « انت سليمان ؟ . نعم أعرفك جيدا وكنت تتردد وتحمل الينا الهدايا والاحمال وتبتاع لنا الآنية والثياب . هل أنت آت من عند والدى ؟ وأين هو الآن ؟ »

قال : « هو مع جند العرب على مقربة من وادى ليته »

قال ذلك واستأذنها بعينيه هل يقول كل شىء فى حضرة الرئيس فأجابته بالاشارة أن يفعل فقال : « وقد أوغلوا فى بوتيكة ولم يلقوا معارضة الا قليلا ، وقد عدهم أهل البلاد رحمة ولا يلبثون أن يتملكوا البلاد كلها »

فبغت الرئيس وقال : « وماذا جرى لجند الاسبان ؟ »

قال : « لم يلتق العرب برودريك بعد ، ولكننا سمعنا بخروجه من طليطلة بجند كثيف وسيعود خاسرا فأبشرا »

فظهرت البغتة على وجه الرئيس وقال : « هل تعتقد ذلك ؟ وكيف تكون حالنا اذا صح قولك ؟ »

قال : « تكون أحسن مما أنتم عليه الآن ، لأن العرب اذا فتحوا بلدا قلما يتعرضون لأهله فى شىء غير ما يفرضونه عليهم من الجزية أو الخراج . وأما الرهبان وجماعة الاكليروس فانهم معفون من كل ضريبة يقيمون فى أديارهم مستكنين آمنين . ذلك ما شاهدناه بأعيننا فى البلاد التى فتحوها فى مصر والشام »

فأطرق الرئيس وسكت ، فقالت فلورندا : « وما الذى جئت به الآن ؟ »

قال : « كلفنى مولاى الكونت والدك أن آتى لأتفقدك ، واذا أردت الذهاب اليه سرت فى خدمتك »

فانبسطت نفس فلورندا لذلك وقالت : « ألا تخاف علينا بأسا فى أثناء الطريق ؟ » . قال : « لابأس علينا من أهل أسبانيا ونحن منهم ، ولا من الملك وهو فى شاغل من نفسه وجنده » . فالتفتت فلورندا الى الرئيس كأنها تستطلع رأيه فقال : « اذا لم يكن بد من ذهابك فهذه فرصة لاتضيعها ، ونحن ندعو لك بالوصول الى والدك سالمة » . فعادت فلورندا الى خالتها واستشارتها ، فأشارت عليها بالذهاب . وتأهبوا فى الغد وسافروا ودليلهم سليمان ومعه اجيلا وشانتيلا ، وأما فلورندا فطلبت الى سليمان أن يمروا فى طريقهم باستجة ، فساروا أياما لايمنع مسيرهم نوء ولا مطر ، والارض كلها مكسوة بالاشجار والاعشاب والطقس جميل حتى أطلوا على استجة ، فخفق قلب فلورندا عند مشاهدة تلك المدينة وكانوا قد أشرفوا عليها من مرتفع فرأت كنيستها فتبركت بها عن بعد ، وجعلت تناجى نفسها من مقر الفونس فلم تجد بدا من سؤال سليمان فقالت له : « اذا أنفذ رودريك جندا الى مدينة مثل استجة فأين يقيم ؟ »

فقال لها :« أظنك تبحثين عن مقام الامير الفونس ؟ »

فبغتت فلورندا وقالت : « نعم . وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال : « عرفته منذ بضعة أشهر ، اذ جئت هذه المدينة وبلغنى قدوم الامير وجنده ، وكانوا يقيمون فى هذه القلعة قرب الجسر . هل أبحث عنه هناك ؟ »

فاستأنست به فلورندا وقالت : « افعل يرحمك الله ، وأتنا بالخبر »
فتركهم وتحول بأسرع من لمح البصر وترجلت فلورندا وخالتها ولبثوا جميعا ينتظرون الخبر وفلورندا تمنى نفسها بملاقاة الفونس، وكلما تصورت انها لقيته يختلج فؤادها وهى لا تزال تذكره كما شاهدته لآخر مرة فى حديقة القصر فى طليطلة وعليه لباس الشتاء والفرو والمنطقة ، وقد خرج من الحديقة مسرعا مبغوتا عند سماعه الصفير . ولم يطل زمن اضطرابها وهواجسها لأن سليمان عاد سريعا فلما رأته مقبلا شخصت اليه ببصرها وقد منعها الحياء من مبادرته بالسؤال قبل وصوله ، فلما وصل ابتدرها قائلا : « لم أجد أحدا فى القلعة »

قالت : « أتظنهم لم ينزلوا فيها ؟ »

قال : « لاريب عندى انهم كانوا نازلين فيها وقد سألت بعض حراس القلعة فأخبرنى ان رودريك بعث الى مولاى الامير الفونس أن يوافيه الى وادى ليتة بمن معه من الجند لملاقاة العرب »

فبغتت فلورندا وأطرقت وهى تتجلد وتمسك عواطفها بين يدى ذلك الرجل ، ولكنها أصبحت قلقة البال على الفونس لأنه ذهب الى ساحة الحرب ، وهو فى جانب وأبوها فى جانب ، واذا فاز الواحدغلب الآخر، وكلاهما عزيزان عندها . وربما لم يفت سليمان ما مر بخاطرها من ذلك فقال لها : « أظننا نلاقى الامير الفونس فى الطريق اذا أسرعنا ، والا فاننا ملاقوه فى وادى ليتة . فاذا وصلنا الى هناك بحثت عنه وأتيتك بما تريدينه »

فاطمأنت فلورندا بذلك الوعد وأشارت الى الركب بالمسير فركبوا وساروا حتى تواروا عن استجة وقطعوا نهرها ، وما زالوا سائرين جنوبا وهم يمرون بالكروم والبساتين وكلما اقتربوا من وادى ليتة قل الناس العاملون فى الحقول

وأقبلوا فى صباح اليوم التالى على طريق رأوا فيها جماعة من أهل القرى يهرعون كأنهم يفرون من عدو لاحق بهم ، فقالت فلورندا فى نفسها : « الظاهر اننا على مقربة من معسكر العرب أو ان العرب قادمون » . فالتفتت الى سليمان فاذا هو ينظر الى الافق ويتفرس كأنه يرى شيئا غريبا فنظرت فرأت غبارا يتصاعد فترجح عندها قدوم العرب فخفق قلبها وقالت لسليمان : « يظهر أن العرب قريبون منا . أليس أبى معهم ؟ »

فقال : « لا أظن القادمين عربا لأنهم سائرون من الشمال الى

الجنوب » . ثم التفت الى احد المارة من الفلاحين وسأله عن سبب فرارهم فقال الرجل : « ألا ترى جند الملك قادمين ؟ فهم اذا حلوا بمكان أوقعوا الاذى بالفقراء أمثالنا ، فلا يتركون ثمرا لايقطفونه ، ولا زرعا لايدوسونه ، ولو اكتفوا بذلك لهان علينا الامر ولكنهم يلحقون الاذى بالناس » . قال ذلك وسار مسرعا فى طريقه لئلا يكون مخاطبه من حزب الملك فيقبض عليه !

وكانت فلورندا تسمع كلام الرجل وتأسف على تلك الحال ، وأرادت أن تعلم اذا كان الملك نفسه مع ذلك الجند فقالت لسليمان : « وهل تظن رودريك مع هذا الجند ؟ » . قال : « أظنه معهم » . فلما سمعت ذلك تصورت قرب الخطر منها ، وسليمان يراقب ملامحها فلما رأى اضطرابها قال لها : « لا تخافى يامولاتى فانك فى أمان . تعالى نختبىء فى مكان ريثما يمر هذا الجند »

قال ذلك ومشى فتبعه الجميع حتى دنوا من خربة مهجورة فوق تل بعيد عن الطريق فدخلوها فقالت فلورندا : « أرى أن أتنكر بثوب الرجال » . فأعطوها ثوبا من أثوابهم وأعطوا مثله للخالة العجوز حتى لايشك من يراهم عن بعد انهم رجال ، ثم اختبأوا فى تلك الخربة وفلورندا شديدة الميل الى مشاهدة تلك الحملة فاهتدت الى شق أرسلت بصرها خلاله الى جهة الغبار فاذا هى بالبنود قد ظهرت والفرسان بينها عليهم الالبسة الملونة والدروع ورأت فى أواسط الحملة بنودا كثيرة قد تجمعت تحملها فرسان بألبسة مرصعة ، وفى وسطهم موكب يتلألأ كالشمس فعلمت انه موكب رودريك . فلم تتمالك عن الاضطراب ولم يقترب الموكب من موقفها حتى اصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصها ، فرسمت اشارة الصليب فتشجعت وثبتت قدميها ، ثم شغلها ما سمعته من قرع الطبول وخفق البنود وصهيل الخيل وقرقعة العجلات وعليها المؤونة والذخيرة ، وضوضاء الناس وهم يمرون بين يديها . ثم أقبل الموكب ورودريك فيه على سرير بين دابتين بما يشبه الهودج ، وفوق رأسه مظلة من الديباج المزركش مرصعة بالدر والجوهر ، فى مقدمتها صليب مغروس فى أحد أعمدتها ، ورودريك جالس وعلى رأسه التاج يتلألأ بالحجارة الكريمة وقد ارتدى وشاحا مزركشا وردى اللون وجلس جلسة الملوك على عروشهم ويده فى لحيته وهو يجيل نظره ذات اليمين وذات الشمال ، ينظر الى جنوده وكثرة ما معه من العدة والرجال . وقد جلس معه فى ذلك السرير الاب مرتين وهو يخاطبه ويشير بيده ، ورودريك

ينظر الى الاعلام المحيطة بموكبه ودلائل الاعجاب بادية فى وجهه .

فلا تسل عن حال فلورندا لما وقع نظرها على وجه رودريك . وكان سليمان واقفا بجانبها فلما مر الموكب التفت فرأى لونها من الخوف قد تغير ، فأراد أن يشغلها عما بها فقال : « ما ظنك بعدد هذا الجند يا مولاتى ؟ »

قالت : « لا أدرى ولكننى أراه كثيرا . هل تظن جند العرب أكثر منه ؟ »

قال : « ان العرب لايزيد عددهم على خمس هؤلاء ، ناهيك بما سينضم الى جند رودريك من الرجال قبل التقائه بالعرب خصوصا جند مولاى الامير الفونس فانه سينضم اليه » . فقالت : « اذن فالعرب فى خطر وضعف ؟! » . قال : « لو كانوا ضعفاء ما استطاعوا دخول هذه البلاد فان القوة ليست فى الكثرة وانما هى فى الشجاعة . ان العرب يا مولاتى لايزيد عددهم فى هذه الجزيرة على ١٢ ألفا ومع ذلك لم يقف فى سبيلهم أحد »

فقطعت كلامه قائلة : « ولكنهم لم يلاقوا مثل هذا الجند بعد » . قال : « هذا صحيح ولكننى رأيت من شجاعتهم واتحادهم وصبرهم مالا أخاف معه عليهم شيئا . ومع ذلك فان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء »

وفى أثناء هذا الحديث مرت بقية الحملة فمكثوا هناك الى آخر ذلك اليوم . وخرج سليمان وحده للبحث عن المكان الذى نزل العرب فيه ثم عاد فأخبر فلورندا ان العرب نزلوا فى وادى ليتة قرب مدينة شريش ، فقالت له : « وهل علمت بمعسكر الفونس ؟ » . قال : « هو على مقربة من ذلك المكان ، واذا شئت الذهاب توا الى مولاى الكونت والدك أوصلتك اليه حالا » .. فأصبحت فلورندا فى حيرة لا تدرى كيف تسير الى معسكر العرب قبل أن ترى الفونس وتدبر طريقة للاجتماع به أو انقاذه . فلبثت صامتة فأدرك سليمان سبب صمتها فقال لها : « يظهر انك تريدين البحث عن الامير الفونس قبل ذلك ، فاذا شئت فانى أعرف كرما من كروم شريش لعائلة من أهل هذه البلاد ، وفى الكرم بناء مرتفع يطل على سهول شريش كلها ، وحيثما عسكر القوم رأيناهم . فتقيمين هناك مع خالتك والخادمين ، وأمضى أنا للبحث عن الفونس وآتيك بالخبر اليقين ، أو أستشير والدك » . فاستحسنت فلورندا رأيه وشكرته ، وساروا حتى أطلوا على مدينة شريش وحولها الكروم وفى جملتها كرم صاحبنا الشيخ والد بطرس

وهو الذى عناه سليمان فصعدوا اليه واخترقوه يلتمسون العريش فلم يجدوا فى الكرم أحدا . وكان سليمان لايمر من هناك الا ويرى الشيخ وأولاده وأحفاده يسرحون فى الكرم للعمل أو اللعب ، فقال سليمان فى نفسه ان لهذا سببا ذا بال . ومشوا حتى أتوا العريش فى بعض أطراف الكرم وقبل الوصول اليه سمعوا صوتا يناديهم تعودوا سماع مثله من نواطير الكروم فتقدم سليمان ولم يبال حتى دخلوا العريش فرأى هناك الشيخ وكل ذريته معا ، والقلق باد فى وجوههم أجمعين . فلما رأوه مقبلا ذعروا ، ونهض له بطرس فقال : « ماذا تريد ؟ » . ثم ما لبث أن عرفه فقال : « سليمان ؟ . مرحبا بسليمان التاجر ! » . وكان لذكر اسمه تأثير فى سائر أعضاء تلك العائلة لانهم كانوا يسمعون به وبعضهم كان يراه عند قدومه الى شريش لابتياع الخمر فى المواسم . وذهب عنهم بعض الإضطراب عند رؤيته — وأهل القرى مهما بلغ من ذكائهم واقتدارهم فانهم يعتقدون فضل أهل المدن عليهم — فلما رآهم سليمان احتفوا به هذا الاحتفاء بالغ فى ملاطفتهم وتقدم الى الشيخ فسلم عليه وسأله عن سبب انزوائهم فى ذلك العريش فى أثناء النهار والكرم لا يستغنى عمن يتعهده فقال الشيخ : « يظهر أنك لم تعلم بما طرأ علينا » . قال : « أظنك تعنى قدوم العرب » . قال : « نعم ولا ندرى ما يؤول اليه حالنا بعد هذه الحرب . ورأينا بالامس جند الملك قد عسكر مقابل جند العرب ولا تلبث الحرب أن تنشب ، وعندنا أطفال لا نستطيع الفرار بهم ولا نحن قادرون على ترك مغارسنا » . قال ذلك وصوته يكاد يختنق حنوا على أهله وولده

فابتسم سليمان وقال : « لا بأس عليكم يا عماه انى كافل لكم كل ما يحميكم ويحمى أولادكم من كل شر . ومعى أناس من أهلى سيقيمون عندكم الليلة ، فهل من مكان لهم ؟ »

قال : « على الرحب والسعة » وأشار بيده الى جهة مستودع الخمر فى قمة الجبل ، ثم هرول مسرعا ومعه بعض أولاده حتى أقبلوا على فلورندا ورفاقها فتناولوا أزمة الخيل وقادوها الى ذلك المستودع ، وكان بعضهم قد سبق اليه فكنسه ونظفه فصعدت فلورندا وهى لا تزال بلباس الرجال وصعدت خالتها وخادماها ثم سليمان ، وظل أولاد الشيخ أسفل المكان ينتظرون ، فنزل سليمان فدفع اليهم قطعا من الذهب وطلب اليهم أن يأتوهم بالطعام ، وأظهر السخاء فازداد أولئك الغلمان رغبة فى خدمته

أما فلورندا فلما صعدت الى ذلك المستودع أطلت من بعض نوافذه فرأت تحت ذلك الكرم والى شرقيه سهلا واسعا على مدى البصر ، يخترقه نهر على ضفتيه الاشجار والاعشاب ، وفى أحد طرفى السهل الى يمينها خيام على نمط لم تتعود مثله ، وفى وسطها خيمة كبيرة حمراء اللون أمامها علم كبير ، وأمام الخيام الاخرى أعلام أصغر منه . ورأت وراء تلك المضارب خياما منفصلة عنها وفيها الدواب وبينها الجمال وهى لم ترها من زمن طويل . فعلمت أنها ترى معسكر العرب فتنسمت ريح والدها من هناك ، وكان سليمان قد فرغ من صرف أولاد الشيخ وصعد فلما رأته قالت : « أليس هذا معسكر العرب ؟ »

قال : « بلى يا مولاتى . والخيمة التى ترينها فى وسط المعسكر هى خيمة الامير طارق بن زياد . ومولاى الكونت يوليان والدك يقيم معه »

قالت : « وما تلك المضارب البعيدة ؟ »

قال : « هى أخبية النساء ومراتع الماشية . لأن العرب اذا ساروا الى الحرب أخذوا معهم نساءهم وأولادهم وماشيتهم ويجعلونهم وراءهم ، فاذا ضعفوا فى الحرب وحدثتهم أنفسهم بالرجوع لقيهم أهلهم فيعودون وقد تشددوا وتحمسوا ! »

فحولت نظرها الى السهل من جهة اليسار فرأت هناك خياما أخرى عرفت أنها مضارب الأسبان ، وفيها خيمة رودريك وخيمة ألفونس. أما فسطاط رودريك فعرفته من كبره ومما فوقه من الاعلام والبنود وما أمامه من الخدم والاعوان ، وان كانوا لا يظهرون لبعد المسافة . وأما خيمة ألفونس فلم تستطع معرفتها لتشابه خيام القواد وهم كثيرون فأشارت الى خيمة رودريك وقالت : « أليست هذه خيمة الملك ؟ »

قال : « بلى وأظنك تريدين معرفة خيمة الامير ألفونس فهذا لاسبيل اليه الا بالبحث . وقد عقدت النية على أن أبحث عن ذلك بنفسى لما لوالدك من الفضل على »

فشكرت له فضله ثم قالت : « ومتى تذهب للبحث ؟ »

قال : « فى هذه الساعة ، بعد أن أهيىء لك ما تحتاجين اليه من الطعام . ولا بأس عليك هنا ومعك خالتك والشابان وهما نشبيطان »

قالت : « ومتى تعود الينا ؟ »

قال : « أما الرجوع فلا يمكن تحديد موعده ، وسأبذل الجهد فى الاسراع » . وبعد أن دبر كل شىء ودعهم ونزل والشمس قد دنت من المغيب

▭

وكان سليمان كثير الاختلاط بالاسبان يتكلم لسانهم مع لسان القوط ، وكان يعرف العربية والبربرية ويحسن التكلم خصوصا بالاسبانية والقوطية فاذا كلم أحدا باحداهما ظنه من أهلها . ونظن القارىء أدرك مما تقدم انه هو الرجل الذى جاء الجمعية اليهودية فى استجة منذ أشهر والفونس فيها ، وأنبأهم بما عزم عليه يوليان

فلما فارق فلورندا عاد الى الطريق التى جاء منها ونزل الى معسكر الأسبان من ورائه ، لئلا يشك أحد فى قدومه من بعض القرى أو المدن . وما زال يتجسس وهو لا يتوقع أن يرى ألفونس باقيا هناك فطال تجسسه دون أن يقف على أثره ، فسأل بعض العارفين فدلوه عليه فاذا هو فى الطرف وراء معسكر رودريك ، فجعل همه البحث عن يعقوب وعنده كل الاسرار . وكانت الشمس قد غابت قبل وصوله الى المعسكر ، فجعل يمر بين الخيام حتى اذا ما دنا من خيمة ألفونس وجد ببابها بعض الحراس ولم ير يعقوب بينهم فمر من ورائها وتظاهر انه شرق بريقه وتنحنح نحنحة خاصة ما لبث أن سمع جوابا عليها من الداخل . فعلم أن يعقوب هناك ، وانه علم بقدومه فظل ماشيا فى طريقه ، فلم يلبث حتى سمع نحنحة دلته على مكان يعقوب والتقيا فسلما وتحدثا بلغة خاصة فقال سليمان : « أراكم لا تزالون هنا ألم تنجح فى اقناعه ؟ »

قال يعقوب : « كدت أنجح لولا أوباس وكتابه »

قال : « أتعنى الاسقف أوباس الذى كان رجاؤنا فى النجاة من هذه الدولة موقوفا عليه ؟ »

قال : « بلى ، هو بعينه وقد أطلعتكم على ما دبرناه منذ بضعة أشهر ، ورأيتم ألفونس نفسه فى تلك الجلسة يوم أريناه الدنانير فى ذلك التابوت »

قال سليمان : « وقد رأيت من الفونس اتحادا معنا على هذا الامر . فما الذى حدث بعد ذلك ؟ » . قال يعقوب : « خرجنا من تلك الجلسة وكله اقتناع بنجاح مشروعنا ، وقد أفهمته ان العرب اذا أخذوا البلاد أبقوا له كل أمواله وأعادوا الحكم اليه ، وان سعادته فى انتصارهم على رودريك . وأخبرته أن سقوط رودريك يتوقف على أمر واحد لايقدر

فيه أحد سواه وذلك ان ينضم هو ومن معه الى جانب العرب يوم المعركة الاولى ، فاقتنع وتواثقنا على ذلك »

فقال سليمان : « ثم ماذا ؟ » . فمد يعقوب يده الى جيبه واستخرج لوحا مشمعا من ألواح الكتابة عندهم فى ذلك العصر ودفعه الى سليمان وقال : « وفيما نحن مطمئنون بذلك جاءه هذا الكتاب من عمه أوباس » . فتناول سليمان اللوح ونظر اليه فلم يستطع قراءته لشدة الظلام فابتدره يعقوب قائلا : « لا تتعب نفسك فى قراءته فانى حفظته حرفا حرفا ، لكثرة ما أعدت قراءته من شدة غيظى من أوباس مع فرط اعجابى به . . ! انه يقول فيه :

« من المطران أوباس الى الابن المحبوب بالرب ولدنا الفونس

« بسم الآب والابن والروح القدس . سلام . أما بعد فقد بلغنى ما ارتكبه ولدنا الكونت يوليان من الخطأ فى حملته على رودريك بجند العرب ، ولا أظنه فعل ذلك الا انتقاما لابنته . وكأنى بك لما بلغك الخبر سررت به لأنه يشفى مافى نفسك من هذا القبيل . فأخاف أن يسوقك الضعف البشرى الى ما ساق اليه ولدنا المذكور ، فتوافقه على ما يضيع هذه المملكة ، ويبيد هذه الدولة ، فتهدمون فى يوم ما بناه أجدادكم فى أجيال ، وتدور الدوائر علينا وعليكم جميعا . فاذا كان قد خطر ببالك شىء من ذلك فانزعه عنك فانه من حبائل الشيطان ، واتحد مع ملك القوط للدفاع عن مملكة القوط . وأما ما بيننا وبين رودريك من التباغض فاننا نتنازع عليه بعد الفراغ من محاربة الغرباء . فرجائى أن تصغى الى نصحى ، ولا تقبل قول سواى والسلام »

فلما سمع ذلك سليمان قال : « والله انه لقول رجل عاقل . ولكنه اذا عمل به فلا شك ان الضربة تعود علينا نحن اليهود ، خصوصا اذا فاز رودريك واستنطق بعض الأسرى وعلم بجمعياتنا ودسائسنا ومساعينا ضده . والذى أراه من قلة جند العرب مع بسالتهم وصبرهم ان ألفونس اذا لم ينضم اليهم فالكفة راجحة فى جانب رودريك ، والعياذ بالله »

فقال يعقوب : ذلك هو اعتقادى ولكننى قد استنفدت الحيل فى سبيل اقناعه . وأنت تعلم يا سليمان كم بذلت من الوقت والسعى من أيام غيطشة لانقاذ شعب الله من هذا الجور ، فتركت منصبى ، وتجاوزت عن أموالى ، وتظاهرت بالنصرانية ، وجعلت نفسى خادما أهيىء الاطعمة وأخدم على المائدة ، وصبرت على ذلك أعواما حتى اذا خلت

صبح الفرج قد أقبل أغلقه أوباس ، بعد أن كان أكبر نصير لنا ، بل المحرك الاعظم لمشروعنا ! »

فقال سليمان : « أما أوباس فانه يحمد على هذا العمل بالنظر الى العدل والحق ، فهو لا يريد أن تخرج هذه المملكة من يد ابن وطنه ودينه ولغته ويسلمها الى أناس غرباء عنه دينا ووطنا ولغة . أما نحن فيهمنا اخراجها من هؤلاء القوط على الاجمال ، لان المسلمين خير لنا منهم نظرا الى ما عاينته من معاملتهم لليهود والنصارى فى الشام ومصر ، فانهم يطلقون لهم الحرية فيمارس كل منهم طقوس ديانته كما يشاء ، على أن يدفع مالا قليلا يسمونه الجزية . زد على ذلك أن اليهود أقرب نسبا للعرب ، لاننا واياهم من جد واحد هو ابراهيم كما تعلم ، فهم يرفقون بنا بنوع خاص ، فيجدر بنا والحالة هذه أن نكون عونا لهم فى تملكهم هذه البلاد . نفعل ذلك حبا لمصلحتنا ، ولا يهمنا كلام أوباس ولا غيره »

فقال يعقوب : « هذا هو الامر الذى نتمناه ، ولا سبيل اليه الا بانحياز ألفونس الى العرب لان ذلك يقلل جند رودريك ويضعف عزيمته . ولا يخفى عليك أن معظم رجال هذه الحملة يحاربون مع رودريك رياء وهم لا يحبونه . فاذا رأوا ابن ملكهم ينحاز الى العدو يهون عليهم أن يتبعوه ، أو أن يتقاعدوا عن الدفاع على الاقل » . قال ذلك ويده فى لحيته يلاعب طرفيها بأنامله وشعرها لا يزال متلبدا بالأوساخ . وسكت هنيهة ثم عاد فقال : « فالخلاصة اننا ان لم نستطع اغراء الفونس بالخروج الى معسكر العرب ، ذهبت مساعينا وأرواحنا وأموالنا أدراج الرياح »

فقال سليمان : « هذا هو الصحيح ، ولو كان هذا الوطر ينقضى بالمال لهان علينا أمره ، ولكن الرشوة لا مدخل لها فى هذا المشروع ، اذ لا نستطيع أن نرشو الفونس ولا أوباس ، واذا رشونا أحدا من رجاله لايستطيع التغلب على رأيه ، وأنت أقرب الناس اليه ولم تستطع شيئا مع كثرة دهائك ومكرك » . قال ذلك وابتسم

فأجابه يعقوب : « دعنا من المجون فاننا فى معرض جد وخطر والوقت قد داهمنا » . قال سليمان : « ومتى ينوى رودريك القتال؟ » . قال : « سمعت أنه ينوى مهاجمة العرب غدا »

فبغت سليمان وقال : « غدا ؟ ! لقد داهمنا الوقت وفاتتنا الفرصة . الا تستطيع تأجيل الهجوم يوما أو يومين ؟ » . قال : « لا أظننى

أستطيع ذلك . وما الفائدة من التأجيل ؟ » . قال : « سأسعى فى طريق أظننى أبلغ منه المراد »

قال : « وما هو ؟ » . قال : « لا أقول لك الا بعد قليل، فاسعفنى أنت بتأخير المعركة يوما أو يومين »

قال : « لا أظننى قادرا على ذلك يا سليمان ، لأن رودريك يرى العجلة فى مهاجمة العرب قبل أن تأتيهم نجدة فيقوى ساعدهم ، وقد أشار عليه بذلك أوباس »

فقطع سليمان كلامه وقال : « سبحان الله ، ما أوباس هذا ؟ كيف انقلب هذا الرجل من الشىء الى ضده ..؟ »

فقال يعقوب : « اذا كانت عندك حيلة فهاتها قبل فوات الوقت ».

قال : « انى ذاهب الساعة وسأعود غدا صباحا بالأمر الذى دبرته فاذا استطعت سبيلا لتأخير المعركة فافعل أستودعك الله » . قال ذلك وتحول راجعا الى حيث أتى ، ويعقوب واقف حتى توارى سليمان عن نظره ، فتحول الى خيمة ألفونس وقد مضى هزيع من الليل

▭

أما سليمان فانه سافر توا الى معسكر العرب والليل حالك حتى أتى خيمة يوليان ، فلم يعترضه أحد لانه كان عارفا بشعار الليل عندهم . وكان يوليان قد أوى الى خيمته للرقاد وقلما كان يستطيعه لما تراكم فى مخيلته من الشواغل القديمة والحديثة ، فلما وصل سليمان كان يوليان جالسا فى الفراش وقد زاده الأرق انقباضا . ولو رآه سليمان على نور المصباح لرأى السوداء مرسومة فى وجهه بخطوط واضحة خصوصا بعد أن رأى جنود رودريك بالامس ، وهاله ما رآه من كثرتهم واستعدادهم بينما جند العرب لا يزيدون على خمسهم، فخاف أن يغلبهم القوط وتعود العاقبة عليه وعلى ابنته وسائر أهله ، وفيما هو فى ذلك اذ قيل له : « سليمان بالباب » . فأذن فى دخوله ثم ابتدره بالسؤال : « أين فلورندا ؟ » . قال : « هى فى خير، وستأتى فى صباح الغد أو بعد الفراغ من المعركة » وأخبره بمقامها وطمأنه

فقال : « وما الذى حملك على المجىء الآن ؟ » . قال : « حملنى عليه أمر ذو بال لا أظنه غاب عن بصيرة مولاى »

قال : « ما فى بصيرتى شىء الآن غير جنود رودريك فانى أستكثرتهم وخفت على جند العرب منهم . واذا غلب العرب عادوا ولا يهمهم شىء وتقع المصيبة على رؤوسنا ورؤوس أهلنا وكل من قال بقولنا ! »

قال : « ذلك ما جئتك من أجله . ولكن اعلم يامولاى ان الامر على

وعورته يتوقف حله على أمر هين » . ثم قص عليه حال ألفونس وما دار بينه وبين يعقوب بشأنه الى أن قال : « وقد جئت الآن ألتمس منك كتابا الى ألفونس تدعوه فيه الى التسليم وتضمن له أمواله وأملاكه وأملاك أهله أجمعين ، وتوغر صدره على رودريك بما لا يخفى عليك ، ثم تعطينى الكتاب فأبعثه بطريقة أختارها »

فأطرق يوليان هنيهة ثم قال : « عد الى فى الصباح فأعطيك ذلك الكتاب »

قال : « سمعا وطاعة » . وخرج يلتمس مستودع الخمر وكانت فلورندا فى انتظاره على مثل الجمر تتقاذفها الهواجس وتترامى بها الأوهام لم يغمض جفنها الا قليلا . وكيف يزورها النوم وحبيبها على قيد خطوة منها ولا تستطيع الوصول اليه

وأمر ما لاقيت من ألم الجوى قرب الحبيب وما اليه وصول

مضى معظم الليل وهى فى هذه الهواجس ، وكلما هب النسيم وسمعت حفيف الورق توهمت سليمان قادما ، وكان شوقها يحدثها نه سيأتى والفونس معه . وبينما هى تفكر فى نحو ذلك اذ سمعت وقع الخطى وخشخشة الاعشاب اليابسة بقرب المستودع ، فأصاخت بسمعها وقد أسرعت دقات قلبها وتعاظمت حتى كادت تسمعها بأذنها فاذا هى بالخطوات تقترب ، ثم سمعت همسا فلم تتمالك عن الوقوف ودنت من النافذة وأطلت فرأت سليمان يخاطب أجيلا . ثم صعد سليمان السلم ففتحت له فلورندا واستقبلته وهى تقول : « ما وراءك يا سليمان ؟ »

قال : « ما ورائى الا الخير » ولكن غنة صوته كانت تدل على شىء فى نفسه فاضطربت فلورندا وابتدرته قائلة : « يظهر أنك تضمر شيئا . قل لى ما الخبر ؟ » . فاستيقظت خالتها على هذا الصوت فقعدت وهى تمسح عينيها بأطراف أناملها وقالت : « ما الخبر يا سليمان . هل رأيت الامير ألفونس ؟ »

قال : « كلا يا مولاتى »

فلما سمعت فلورندا ذلك انشغل خاطرها وقالت : « وأين هو اذن ؟ » . قال : « هو فى هذا المعسكر » . قالت : « وكيف عدت من هناك ولم تره ؟ » . قال : « لان رؤيتى اياه لا تفيدنى ولا تفيدك شيئا ، لانه فى حال لا تساعده على سماع كلام أحد غير عمه أوباس وهو يأمره أن يتفانى فى سبيل رودريك »

فلما سمعت ذلك تصاعد الدم الى وجهها ، واقشعر بدنها وصمتت

برهة ثم قالت وهى تبتسم استخفافا بما قاله سليمان ، ووثوقا بانصياع ألفونس لقولها دون سائر العالمين : « أظنه يسمع قولى . لكن ما علاقة ذلك بتوقفك عن مقابلته ؟ »

قال : « ان لذلك علاقة كبرى بحياتك وحياتى وحياة مولاى الكونت يوليان ، وحياة كل قوطى ينتمى الى غيطشة ، وكل من لا يرضى أن يعيش ذليلا بين يدى رودريك ، لان بقاءنا جميعا يتوقف على انتصار العرب ، وذلك لا يكون الا اذا انضم اليهم ألفونس هو ومن معه ، فينخذل رودريك لا محالة وتخلص البلاد من شره »

فأعظمت فلورندا أمر ألفونس ولكنها ما زالت ترجو أن ينصاع لقولها فعزمت أن تكتب اليه كتابا شديد اللهجة تستجمع فيه كل عبارات التحريض والتوبيخ والاستعطاف فقالت لسليمان : «سأكتب اليه كتابا هل تأخذه اليه ؟ »

قال : « نعم يا مولاتى انى رهين هذه الخدمة » . قالت : « اذا أصبحت تعال فأدفع اليك الكتاب فتحمله اليه وأرجو أن يكون نافذا بعون الله »

فاستبشر سليمان بذلك ومضى وكان الفجر قد دنا فتوسد حصيرا فى عريش صاحب الكرم التماسا للراحة فغمضت عيناه ، ولم يستيقظ الا على صوت الطبول والابواق ، فنهض وقد أجفل وأطل على المعسكرين فرأى معسكر القوط يتماوج بالرجال وقد أخذوا فى الاصطفاف للقتال وأمامهم الرايات والأعلام ، وفى وسطهم موكب الملك رودريك بمظلته وسريره وفرسانه وأعوانه . والتفت الى معسكر العرب فاذا هم فى حركة كأنهم يهمون بالدفاع فأسقط فى يده وتشاءم من ذلك اليوم وقال فى نفسه : « فاتت الفرصة » . وقد زاد فى تشاؤمه ما شاهده من الفرق العظيم بين عدد جند القوط وجند العرب ، ومقدار ما عند القوط من العدة والخيل والمؤونة ، فوثب من مكانه وثوب النمر وأسرع منحدرا نحو معسكر العرب ليأخذ كتاب يوليان الى ألفونس فوصل الى المعسكر وهو يلهث من التعب ، فرأى المسلمين وأكثرهم من البربر قد اصطفوا للحرب وعلى رؤوسهم العمائم البيض تقيهم حر الشمس وتتلقى عن رؤوسهم مواضى السيوف وحداد السهام كأنها درع للرأس ، وفيهم حملة الرماح وحملة الحراب ونقلة القسى العربية . وأما الفرسان فقد كانت عليهم دروع من الزرد وعلى رؤوسهم الخوذ لا يظهر من وجوههم غير الحدق ، وفى مقدمتهم فرسان يحملون الرايات وعليها الآيات القرآنية . ولم يصل الى الخيام حتى سمع

أصوات التكبير والتهليل وما فيهم الا من قرأ الفاتحة والتفت سليمان في وجوه الناس فلم ير بينهم من يبالى بما سيلاقى فى تلك المعركة من خير أو شر ، فاشتغل بذلك المنظر مدة عن يوليان ، ثم تذكر ما جاء به فانخرط فى صفوف الاجناد وهو يتطلع ويتشوف فلم يجد يوليان فسأل عنه بعض الوقوف فقالوا له انه ركب فى أثر طارق يستحثان الجند على الثبات . ولم يكد يتدبر ما سمعه حتى رأى فرسانا قادمين من بعض أطراف المعسكر يتقدمهم فارس عليه درع سليمانية ، وعلى رأسه عمامة كبيرة وليس على وجهه درع فظهرت سحنتـه وبانت ملامحه

▭

نظر الى هذا الفارس فاذا هوطارق بن زياد قائد ذلك الجند وكان سليمان قد رآه غير مرة ولـكنه لم يره عمره مثل ما رآه فى تلك الساعة ، فخيل له وهو ينظر اليه انه جبـل على فرس وقد أزاح عمامته الى ما وراء جبينه فبان من تحتها جبين عريض تحته حاجبان غليظان ، تحتهما عينان احمر بياضهما من الجهد فى الذهاب والاياب . وله شفتان غليظتان ولحية شعرها شديد السواد الا شـعرات قد وخطها الشيب . وكان العرق يتصبب من جبينه الى لحيتـه وهو لا يبالى بمسحه ، ولا يتلفت الى شىء أو يتفرس فى رجل ، ولكنه كان ينظر الى الجند اجمالا كأنهم رجل واحد . وقد أمسك عنان جواده بيساره ، واستل حسامه بيمينه ، وحسر عنهـا كمه ، فبان زنده الشديد السمرة ، ولم يكن جواده أقل حماسة منه بل كان يستوقفه طارق فلا يقف الا وهو يتحفز للجرى وقد بلل العرق صدره ورأسه

فتهيب سليمان من منظره ، ثم رأى بجانبه فارسا يختلف عنه لونا وسحنة ويشبهه حماسة واقداما وبسالة ولكنه أصغر منه سنا وأقل جسما . فتنحى سليمان جانبا ريثما يمر طارق ورفاقه لعله يرى يوليان بينهم فينفرد به ويطلب منه الكتاب ، فاذا بطارق قد وقف وتحول بوجهه نحو الصفوف الواقفة بين يديه ، ورفع يمناه والسيف مشرع فى قبضته ، فأدرك الناس أنه يهم بالكلام فأصغوا اليه فاذا هو يقول بعد حمد الله والثناء عليه ، وحث المسلمين على الجهاد

« أيها الناس ، أين المفر ؟ ان العدو أمامكم ، والبحر وراءكم ، وليس لكم والله الا الصدق والصبر . واعلموا انكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مأدبة اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لاوزر لكم الا سيوفكم ، ولا أقوات لكم الا

ما تستخلصونه من أيدى عدوكم . وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة ، وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لأنفسكم بالموت . وانى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس الا أبدأ بنفسى . واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفه الالذ طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفى من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان . ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته ، واظهار دينه بهذه الجزيرة . وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين . واعلموا انى أول مجيب الى ما دعوتكم اليه ، وانى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق ، فقاتله ان شاء الله تعالى . فاحملوا معى فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم اليه . وان هلكت قبل وصولى اليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا اليوم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون »

وما فرغ طارق حتى تعالت أصوات الناس بالتهليل وقد تشددت عزائمهم ، وشعر سليمان عند سماعه ذلك الكلام بما فيه من بواعث التحميس ولكنه قلق لضياع الوقت وأوغل فى الناس يسأل عن يوليان فرآه فى جملة الراكبين مع طارق فأسرع اليه ، فحالما رآه يوليان استدناه منه فجاءه فقال يوليان : « استبطأناك فبعثنا الكتاب مع رسول آخر »

فانشرح صدر سليمان لعدم ضياع الفرصة ، وتحول راجعا الى الكرم ليأخذ كتاب فلورندا اذ كان أكبر تعويلا عليه لما سيحويه من مثيرات العواطف . فوصل الى المستودع فرأى فلورندا واقفة على السلم والكتاب فى يدها فتناوله ولم يفه بكلمة محافظة على الوقت وهرول لا يلوى على شىء وهو فى قيافة لا يشك من يراه فيها انه من

رجال رودريك ،وكانت الشمس قد أطلت على معسكر القوط ، فانعكست أشعتها على ألبستهم وبنودهم وخوذهم خصوصا موكب رودريك . فجعل سليمان طريقه من وراء الجند والناس فى شاغل لما هم فيه من التأهب ، فرأى جند القوط قد ترتب على هيئة كراديس مثل نظام جند الروم ، وكان العرب الى ذلك العهد لا يزالون ينظمون جيوشهم صفوفا متراصة ، فكان جند رودريك مؤلفا من ميمنة وميسرة يقود الاخيرة ألفونس . وأما القلب فكان قائده رودريك نفسه ومعه الكونت كوميس ، وقد جلس رودريك على سريره وفوق رأسه رواق من ديباج يظلله ، وهو فى غابة من البنود والاعلام وبين يديه المقاتلة بالسلاح وفيهم الفرسان بالثياب المزركشة . وأما ثياب رودريك فقد كانت مرصعة بالدر والياقوت والزبرجد ، حتى خفه فانه كان من الذهب المرصع ! فأعجب سليمان بالفرق بين بساطة العرب وبذخ هؤلاء القوط ، وأين قعود رودريك على ذلك السرير من ركوب طارق على ذلك الجواد ؟ على أنه رأى فى موكب رودريك رجلا طويلا واقفا على دكة مرتفعة عليه لباس الكهنوت وقد رفع يديه نحو السماء وفى احداهما صليب مرصع ، ورفع صوته فى الصلاة ليتضرع الى الله لينصر جند القوط . فعرف سليمان من طول قامته وقوة عارضته أنه أوباس . فوقف بالرغم عنه فرآه لما فرغ من الصلاة والتضرع أخذ فى حث الناس على الصبر والاتحاد ، وذكرهم بمجد آبائهم وشدة بطشهم وكيف فتحوا هذه البلاد بدمائهم

ولم يقدر سليمان على الصبر هناك فسار مسرعا حتى أتى ميسرة الجند وكانت عيناه شائعتين للبحث عن يعقوب ليدفع الكتاب اليه فلم يجده فى مصاف الجند فتحول للتفتيش عنه فى الخيمة . فلما وصل اليها رأى ببابها رجلا فى مثل زى الجند لكنه لم يكد يتفرس فيه حتى عرف أنه من رجال يوليان . فعلم أنه هو الذى نقل رسالة يوليان الى ألفونس فلما وصل اليه كلمه بحيث لا يسمعه أحد فعلم منه أن الفونس داخل الخيمة يتلو الرسالة وعنده يعقوب

— ١٠ —

وكان الفونس منذ أتاه كتاب أوباس يغالب عواطفه ويقدر عواقب تلك الحرب فلا يرى فى الثبات خيرا ، ناهيك بما فيه من الخطر على فلورندا وأبيها . وكان منذ قرأ كتابها الى والدها فى تلك الغرفة المظلمة

ما يزال يبحث عنها فلا يقف على خبرها ، ولم يكن يستطيع التدقيق فى البحث خوفا من رودريك . ثم سمع بقدوم العرب وايغالهم فى بوتيكة ويوليان رائدهم ، وكان فى عزمه أن ينضم اليهم اذا لم يكن انتقاما من رودريك فاكراما لفلورندا ، ولكن جاءه كتاب أوباس فأثر فى عقله تأثيرا عظيما كأنه استهواه بالتنويم المغناطيسى ، فأصبح كأنه فى بحر لا قرار له ، يشعر من جهة أنه يجب أن يفعل بمشورة عمه ، ويرى ذلك من الجهة الاخرى مخالفا لعواطفه ومناقضا لمصلحته ، حتى اذا أتاه الامر من رودريك أن يوافيه الى شريش رجح عنده رأى عمه ، واشتغل بالحرب والاستعداد لها وصورة فلورندا مع ذلك لا تبرح مخيلته ، ولكن عواطفه كانت مقيدة بسلطان عمه فأصبح بسبب ذلك منقبض النفس ضيق الصدر ، وقد نسى الابتسام وأغفل الاجتهاد وسلم أمره الى الاقدار !

ولما جاء رودريك بالامس وعسكر هناك ، سلم الى ألفونس قيادة ميسرة الجند وأمره أن يكون على استعداد للهجوم فى صباح ذلك اليوم . فبكر ألفونس فى الفجر وأمر قواده فرتب كل منهم فرقته فى موضعها ، ودخل خيمته ليلبس درعه وكان يعقوب يرافقه وعيناه تترقبان مجيء سليمان أو خبرا من عنده حتى خاف ضياع الفرصة ، واذا هو برجل لايعرفه يطلب مقابلة الفونس ويبدو من عينيه انه يحمل خبرا سريا فسأله : « هل معك كتاب اليه ؟ وممن ؟ »

قال : « معى رسالة من الكونت يوليان » . ومد يده ودفع اليه لفافة من جلد ، فتناولها يعقوب ودخل وحده ، ولم يكن فى الخيمة غير ألفونس فلم يتنبه له ، فأقبل يعقوب حتى دنا منه وتنحنح نحنحة تعود الفونس أن يكون وراءها خبر مهم ، وكان قد خلع قباءه ونزع قبعته وأخذ فى لبس الدرع ، فبدأ بالجزء الذى يكسو الصدر والظهر وهم بلبسه ، وقد علقت حواشيه بأطراف ضفائر شعره المسترسل على كتفيه فأخذ فى تخليصها ، فلما سمع نحنحة يعقوب التفت اليه فاذا هو يحمل بيمناه لفافة مختومة وقد جعل يسراه على صدره ، فتناول ألفونس اللفافة وفضها فاستخرج منها ورقا مكتوبا ، فما قرأ أسم يوليان حتى خفق قلبه واستيقظت عواطفه ، وتصاعد الدم الى وجهه وظهرت عليه البغتة خصوصا بعد أن أتم تلاوته . وكان يعقوب واقفا أمامه وقد أسند يديه متصالبتين على صدره فدفع ألفونس اليه الكتاب كأنه يستشيره فى أمره ، فتناوله يعقوب وقرأه فاذا فيه :

« من يوليان كونت سبتة الى الامير ألفونس

« بسم الآب والابن والروح القدس . لا حاجة بى أيها العزيز الى اطالة الشرح فى المصائب التى توالت على هذه الجزيرة منذ تولاها هذا الباغى ، الى ما تعلمه من تعديه على الملك واخراجه من أيدى أهله بقتل والدكم المرحوم . فكرسى الملك لبيت غيطشة وأنت أرشدهم جميعا . ولم يكتف بتعديه على الحقوق حتى تجاوزها الى الأعراض ، فمن كان هذا شأنه فكيف يطاع أمره ؟ والعرب يا ألفونس دولة جديدة ملكت الخافقين بالعدل والرفق ، وهى منتصرة على رودريك لا محالة ، لأن أهل مملكته كلهم عليه حتى أقرب أقربائه ، والذى ينصره انما ينصر الظلم والغدر . وانت تعلم انى ضنين بك شفيق عليك ، لما بيننا من رابطة النسب الصحيح ، فاذا أطعتنى وانضممت الى جند العرب فانى ضامن لك كل ضياع المرحوم والدك فى الاندلس وهى ثلاثة آلاف ضيعة سلبكم رودريك اياها ، وترجع أنت وسائر آل غيطشة الى ما كنتم عليه قبل استبداد هذا الطاغية . وانما كتبت هـذا اليك رفقا بك وشفقة عليك ، والسلام »

وكان يعقوب يتلو الكتاب والفونس مطرق ، وشعره لايزال مسترسلا على كتفيه وقد علق بعضه بهداب الدرع ، فلما فرغ يعقوب من قراءته نظر الى الفونس وقال : « وما الرأى يا مولاى ؟ » . قال : « الرأى؟.. انت أدرى منى بما كتب به الينا عمى أوباس . فهـل أعصى عمى وأطيع يوليان ؟ » . فقال يعقوب وهو يحك قفاه : « لا أشير عليك بشىء فانك أدرى بالصواب ، وأنا معك الى الممات . ولكننى أستغرب ذلك الرأى من أوباس وهو أعلم الناس بما أصابك وأصاب سـائر القوط من هذا الطاغية ، ولولا اعتقادى بقوة عقل أوباس وصحة بدنه لقلت انه يتكلم عن خرف . على انى لا أحسبه الا كتب ذلك الكتاب ثم ندم عليه ، وفى كل حال فالرأى لك »

فقال الفونس : « كيف تقول انه ندم ، وأنا لا أجتمع به الا حرضنى على الثبات ، ولايزال صوت خطابه يرن فى آذاننا وهو يحرضنا على الاتحاد والصبر فى ساحة الحرب ، وهو لايتكلم جزافا اذ لولا اعتقاده بحسن عاقبة هذا الاتحاد لم يدعنى اليه ؟ ! »

قال يعقوب : « عمك أوباس يا مولاى حكيم وفيلسوف ، وواعظ ولاهوتى ، ولـكنه لا يعرف أمور السياسة . ولعلك اذا سمعت منى ذلك نقمت على وظننت انى أخدعك . ولكن دع ذلك عنك وانظر الى الكونت يوليـان فانه والد فلورندا ، وهو انما ركب هـذا المركب الخشن فى سبيل الدفاع عن ..... »

فمد الفونس يده وسد بها فم يعقوب بلطف وهو يقول : « يكفى يا يعقوب فانى عامل برأى عمى لأنه لا يجهل شيئا نحن نعلمه ، وهو أدرى منى ومنك بالاسباب التى حملت يوليان على ذلك . وقد آن لى أن أخرج لقيادة الجند » . وعاد الى لبس الدرع فيئس يعقوب منه ولبث واقفا يحك عثنونه بطرف سبابته ، فسمع نحنحة سليمان خارج الخيمة فاستبشر وخرج ، فدفع اليه سليمان كتابا قال له انه من فلورندا ، فدخل به على الفونس فتناوله وفضه ، وحالما وقع نظره على الخط علم انه من فلورندا فاختلج قلبه وتزايدت ضرباته ، وظهرت البغتة على وجهه ، وارتعشت أنامله حتى ظهر ذلك فى اهتزاز الكتاب ، ثم امتد الارتعاش الى كل أطرافه وهو يتجلد ويتظاهر بعدم التأثر ، ويعقوب يرى كل ذلك ويتجاهل . أما الفونس فقرأ الكتاب فاذا فيه :

« أكتب اليك على قطعة من ردائى بمداد من دمى ، وهو الرداء الذى قابلتك به فى حديقة القصر ، وقد تمزق تلك الليلة بين يدى رودريك دفاعا عن جوهرة هى لألفونس أكثر مما هى لى . وقد أرسلت اليك مع حامل هذا بعض ماتناثر من شعرى فى أثناء ذلك الدفاع ، ناهيك بما علق منه بنواتىء تلك الشجرة اليابسة تجاه نافذة قصرى وأنا هاربة من الوحش الكاسر ! . هذا هو رودريك الذى أراك اليوم تحارب بسيفه ، وتدافع عن عرشه ، لتحفظ له ملكا اختلسه من أبيك ، وتستبقى له يدا سيمدها ثانية الى خطيبتك ، الى فتاة تزعم أنك تحبها ، وقد فاتك انك ذاهب بها وبأبيها وسائر أهلك وأهلها الى الدمار ! . وكأنى بك لم تعلم بما ارتكبه رودريك أو عزم على ارتكابه . فاعلم انه أراد ابتذال عفتى وهتك سترى ، فهددنى وخوفنى ، وأملنى ومنانى ، وأرانى السعادة فى طاعته والشقاء فى عصيانه ، ولم يصغ الى بكائى ولم يرق لتضرعى . فعصيته وآثرت الشقاء حبا لك ومحافظة على ودادك . ولعل طول البعد أنساك عهودك على ضفة نهر التاج ، يوم مسست شعر رأسك بأناملك وقلت ان بقاء هذا الشعر حرام عليك ان لم تف بقولك ! أهذا هو الوفاء ؟ كأنك تعهدت بقتلى وقتل والدى وسائر أهلك وأهلى ، وكأنك أقسمت أن تؤيد سلطان هذا الباغى ! فاذا علمت ما ذكرته لك وتذكرت ماضى عهودك ورأيت البقاء عليها ، فاترك رودريك وجنده وتعال الى فوق هذه الرابية فى مستودع الخمر بين المعسكرين ، أو الى والدى فى معسكر العرب . وأما اذا كنت لا تزال على نصرة ذلك الظالم وكان

لحب فلورندا بقية فى قلبك ، فلا تتركنى أموت قبل أن أراك وأشكو اليك جفاك ، وأخاطبك وأعاتبك ، وأتزود منك بنظرة أنسى بها ذلك الشقاء . واذا ضننت حتى بهذا فأستودعك الله الى أن نلتقى بين يدى الديان العظيم ، ومعنا رودريك يشهد على نفسه وعليك ، والسلام .

« فلورندا »

▭

وما فرغ الفونس من تلاوة ذلك الكتاب ، وشاهد شعر فلورندا حتى أحس كأنه استيقظ من رقاد . أو هى عواطفه تنبهت من غفلتها ، وانحلت من قيود الاستهواء ، فاستولى عليه سلطان الغرام فأنساه أوباس وكتابه وحكمه وآدابه . والحب سلطان نافذ الكلمة ماضى القضاء غالب على كل سلطان ، يستذل الملوك ويحطم سيوف القواد

ظل الفونس بضع دقائق مطرقا كأنه غائب الرشد ، ولم يبق فى مخيلته الا صورة فلورندا بثوبها الارجوانى الذى رآها فيه آخر مرة ، وبشعرها الذهبى ضمن تلك الشبكة ، وفى يده بضعة من كليهما ، وتذكر ما دار بينهما من التشاكى والعتاب ، وما تعهد لها به من أسباب السعادة بانتزاع الملك من رودريك . وتعاظم خجله واضطرابه حتى توهم انه يسمع صوت توبيخها وتعنيفها ويرى دموعها . وكان يعقوب واقفا بين يديه فلما رأى اضطرابه وتأثره خرج من الخيمة تأدبا ليخلو الفونس الى نفسه ، فلما خرج لقيه سليمان وكان واقفا هناك على أحر من الجمر . فلما رأى يعقوب استفهمه بالاشارة فأجابه باطباق عينيه ان الطبخة قاربت النضج . وفيما هما واقفان رأيا فارسا مسرعا نحوهما وفى يده شىء فتقدم يعقوب نحوه للسؤال عن غرضه فاذا هو من أتباع أوباس ، فلما تلاقيا تعارفا فسأله يعقوب عن غرضه فقال انه قادم بكتاب من أوباس الى الفونس ، فاستعاذ يعقوب بالله من ذلك الكتاب مخافة أن يكون فيه ما يفسد تلك الطبخة فعمد الى الاحتيال فقال : « ان مولاى الامير يغير ثيابه ولا يستطيع أحد الدخول عليه »

قال : « انى مأمور بايصال هذا الكتاب اليه حالا »

قال : « هاته وأنا أدخله عليه بعد قليل » . فدفعه اليه وانصرف وهو لايشك انه أتم مهمته . أما يعقوب فانه تظاهر بدخوله الخيمة ودار من ورائها وفض الكتاب فاذا هو بخط أوباس ونصه :

« لا يخدعنك اليهود بدسائسهم ، فانهم انما يريدون مصلحتهم وليست هى فى بقاء المملكة للقوط . أثبت فى الدفاع عن الوطن كما

هوظنى فيك ، واصغ الى قولى فانى بمنزلة أبيك » . فلما قرأ يعقوب الكتاب انقلب الضياء فى عينيه ظلاما ، وعجب لتيقظ أوباس وانتباهه ، وأدرك انه اذا لم تنفذ حيلته فى تلك الساعة ذهبت مساعيه ومساعى سائر اليهود هباء منثورا . فاستقدم سليمان وأطلعه على ذلك الكتاب وتفاوضا فقررا كتمانه عن الفونس ، وأن يعجلا العمل قبل أن ينشب القتال ، فدخل يعقوب فرأى الفونس جالسا على وسادة هناك وهو لايزال مطرقا ولم يتم لبس الدرع وشعره لايزال مسترسلا على كتفيه ، ولما رآه انتبه لنفسه ، فوقف وفى خاطره أن يطلع يعقوب على كتاب فلورندا ولكن الحياء منعه ، فابتدره يعقوب قائلا ان الرسول لايزال واقفا فى انتظار الجواب وقد أمره صاحب الكتاب أن يعود سريعا »

فخطر لألفونس أن يرى الرسول ويسأله شيئا لعله يتخلص من ذلك التردد فقال : « ادخله على »

فخرج واستقدمه فدخل سليمان وسلم متأدبا فسأله الفونس قائلا : « هل رأيت كاتب هذا الكتاب ؟ »

قال : « نعم يا مولاى »

قال : « ومن هو وماذا تعرف عنه ؟ »

فأشار سليمان بعينيه نحو يعقوب كأنه يخفى أمرا لايريد التصريح به بحضوره ، فأشار الفونس الى يعقوب فخرج . فتقدم سليمان الى الفونس وقال : « أتسمح لى يامولاى أن أصرح بما أعلمه ؟ » . قال : « قل » . قال : « انى من أصدقاء الكونت يوليان صاحب سبتة وقد كلفنى أن أستقدم ابنته فلورندا من دير كانت فيه قرب طليطلة فوصلنا بالامس » . قال : « وأين هى الآن ؟ » . قال : « هى على مقربة من هذا المعسكر » . قال : « ولماذا لم تذهب الى والدها ؟ » . فأطرق سليمان وتظاهر بشىء يمنعه الحياء من ذكره ، فازداد الفونس رغبة فى الاطلاع عليه فقال : « قل كل ما تعرفه ولا تخف شيئا »

فرفع سليمان نظره الى الفونس وقد تباكى حتى ظهر الدمع فى عينيه وقال : « ماذا أقول يا مولاى ؟ ان فلورندا أصبحت فى حال يرثى لها من الضعف ، ولم أرها يوما واحدا فى أثناء رجوعها غير مبللة العينين . وكنت أظنها تفعل ذلك شوقا الى والدها فجعلت أمنيها بقرب لقائه فلا تزداد الا بكاء ، ولما صرنا على مقربة من معسكر العرب حيث يقيم والدها أبت الذهاب اليه حتى كاد يغمى عليها . ثم فهمت من خالتها العجوز ومن قرائن أخرى انها مخطوبة لك ، وسمعتها تقول

انها تريد المجيء اليك ولو كنت فى ساحة الحرب . لم أر فى حياتى مثل هذا الحب فانها لم تبال بأبيها فى سبيل لقاك . ولا أخفى على مولاى اننى عرفت ذلك رغم كتمانها اياه عن كل البشر . وهى التى سلمتنى هذا الكتاب وأوصتنى أن أعود اليها بالجواب حالا وهى تبكى ! »

قال ذلك وتساقطت عبراته كأنه يبكي بكاء صادقا ، فلم يتمالك الفونس عن ارسال الدمع . ثم سمع دق الطبول ونفخ الابواق فى المعسكر فعلم انهم شرعوا فى القتال ، فدق قلبه ورأى انه لابد له من القطع فى أحد الامرين . فتشاغل بلبس درعه واصلاح ثيابه وقد ترجح له أن يتبع هوى قلبه ويطيع فلورندا ولكن الحياء كان يمسكه

▭

وبينما الفونس فى تلك الحيرة اذ دخل الخيمة رجل بلباس الكهنوت وهو يهرول ويتمتم ، فنظر الفونس اليه فاذا هو الاب مرتين بلباسه الرسمى الموشى وعلى صدره صليب مرصع ، والغضب باد فى وجهه . ولم يكن الفونس يحبه ، فلما رآه داخلا على تلك الصورة تلقاه بالسؤال قائلا : « كيف تدخل خيمتى قبل أن تنبهنى الى ذلك مع خادمى ؟ »

فقال مرتين وهو يتمتم كالعادة : « أى خادم تعنى ؟ ومتى كان الاب مرتين يستأذن قبل الدخول ؟ أين الكتاب الذى جاءك من عمك الآن ؟ ولماذا تخلفت عن القتال وأنت قائد ميسرة الجند ؟ » . فأكبر الفونس أسئلته على تلك الصورة ، وكبر عليه أن يعتذر عن سبب تخلفه أو أن يصرح بعدم وصول الكتاب اليه فقال : « وما شأنك وحضورى القتال ، أو مايرد على من الكتب من عمى أو من غيره ؟ » . فحمى غضب مرتين ولم يعد يعى ما يقوله وقال : « ان لى فيه شأنا تعلمه . واذا كنت لا ترى ذلك من شأنى فلا أظنك تنكره على جلالة الملك ، صاحب هذا الجند وقائده الاكبر » . وكان سليمان واقفا فى بعض أطراف الخيمة بحيث تقع عينه على عين الفونس ، وكلما قال مرتين قولا أشار سليمان بشفتيه وحاجبيه اشارة الاستخفاف والاستياء ، واذا رد عليه الفونس أبدى سليمان استحسانه واعجابه فازداد الفونس استمساكا بحميته ، فلما عرض مرتين بذكر رودريك وسلطانه زال حياء الفونس مما كانت نفسه تحدثه به ، ولم يكن جوابه الا الخروج من الخيمة مسرعا الى جواده فامتطاه ، وحول شكيمته نحو ميسرة الجند وهو يقول : « سوف ترون من هو صاحب

هذا الجند وما هو مصير أهل البغى ! وقد كنت أتردد فى الذهاب وحدى فها أنذا ذاهب مع جندى ! »

وكان القتال قد بدأ وتطايرت السهام وتلألأت السيوف ، وعلا ضجيج الرجال وصهيل الخيول وصلصلة اللجم ، والملك فى قلب الجيش وحوله فرسانه وأعلامه وبنوده ، وأوباس يطوف الجيش على جواده وقد نزع قلنسوته فاسترسل شعره على كتفيه وظهره ، وأمسك زمام الجواد بيسراه ورفع يمناه يحمل بها صليبا مرصعا ، وهو يستحث الجند على الثبات والصبر

ولما ركب الفونس جواده وقعت عينه على أوباس عن بعد ، فخاف أن يدركه قبل الفرار فيثنيه عن عزمه ، فساق جواده ولم يلتفت يمنة ولا يسرة حتى أتى فرقته ، فلاقاه ومبا وزميله قائدا الفرقة بعده ، فحدثهما ووعدهما خيرا ، وقد علمت انهما كانا يحبانه ويكرهان رودريك فأطاعاه وأمرا الجند بالخروج من المعركة فتحولت ميسرة القوط كلها نحو معسكر العرب ، فتضعضع جند القوط واضطربت جوانبه !

أما مرتين فانه ما انفك منذ خروج الجند من طليطلة وهو يراقب حركات أوباس ويلقى الشكوك لدى رودريك فى اخلاصه وصدق نيته ، فلما نزلوا سهل شريش واصطف الجند للقتال رأى الفونس قد تأخر عن الخروج للحملة ، ثم رأى أوباس دفع الى بعض حاشيته كتابا سار به الى خيمة الفونس ، فظن سوءا وأسرع الى الملك فأراه الرسول راكبا الى تلك الخيمة وهرع هو اليها كما تقدم . فلما خرج الفونس وسليمان وبقى هو فى الخيمة وحده عظم عليه ما كان من استخفاف الفونس به ، فالتفت الى ما حوله فوقع نظره على رق ملفوف فتناوله وهو يحسبه كتاب أوباس ، فاذا هو كتاب فلورندا وقد نسيه الفونس هناك لغضبه وتسرعه ، ففرح مرتين بذلك الكتاب فرحا شديدا وفهم منه مقام فلورندا ، ولكنه ما زال يعتقد (أو يريد أن يعتقد) أن أوباس كتب اليه بالانضمام الى العرب !

وخرج مرتين من الخيمة ونظر الى الجند فرأى الفونس وفرقته يسيرون نحو معسكر العرب ، فركض الى رودريك وكان لايزال على سريره فى وسط موكبه ، فنظر الى مرتين فاذا هو يشير بأصبعه الى الفونس ورجاله ، فلما رآهم رودريك يسوقون خيولهم الى معسكر العرب استشاط غضبا وقال : « ما الذى غيرهم ؟ »

قال : « غيرهم كتاب حضرة الاسقف ، وقد قلت لك انى لم

أكن أطمئن بظواهره فمر بالقبض عليه الآن واسجنه ، قبل أن يفر هو أو يحرض باقى الجند على الفرار! » . فأمر رودريك رئيس حرسه أن يقبض على أوباس حالا فأسرع رئيس الحرس ومعه كوكبة لانفاذ أمر الملك !

أما مرتين فلم يشف غيظه القبض على أوباس فأراد أن ينتقم من الفونس ، فاغتنم غضب رودريك ودفع اليه كتاب فلورندا فتلاه وهو ينتفض من شدة الغيظ ، لما حواه من الطعن فيه والتحريض على أذيته . فلما فرغ من تلاوته أصبحت لحيته ترقص على صدره وأنامله ترتجف ، وصاح فى مرتين : « أين هو المستودع الذى تقيم فيه هذه الفاجرة ؟ »

فأشار مرتين الى المستودع وهو يقول : « أظنه هذا »

فأمر رودريك كوكبة من فرسانه أن يذهبوا للقبض على من فيه ، ويسوقوهم اليه أحياء أو أمواتا

▭

ظلت فلورندا بعد ذهاب سليمان من عندها فى ذلك الصباح جالسة الى النافذة تراقب حركات الجند وسكناته ، وكان أكثر اهتمامها بالميسرة لعلمها ان الفونس هناك ، ولا تسل عن اضطرابها وقلقها ، فلما رأت الميسرة تهرع الى معسكر العرب اطمأنت وأيقنت بالفرج ، ورقص قلبها طربا . وكانت الخالة واقفة الى جانبها وهى لا تكاد تتبين ما يجرى لقصر نظرها ، فلما أخبرتها فلورندا بما رأته شاركتها الفرح ، وكان اجيلا وشانتيلا واقفين على مرتفع بجانب المستودع يراقبان حركات القتال ، فلما رأيا ميسرة القوط انضمت الى العرب أسرعا الى فلورندا فأخبراها ففرحوا جميعا ووقفوا يتحادثون بما شاهده كل منهم فى أثناء المعركة مما لم ينتبه له الآخرون

وفيما هم فى ذلك اذا بالشيخ صاحب الكرم قد أسرع ومعه بعض غلمانه وأطفاله يركضون حتى صعد المستودع وهو يصيح : « أين سليمان التاجر ، فانه وعدنا بالحماية ؟ »

فأطلت فلورندا من النافذة فرأت كوكبة من فرسان القوط يسوقون خيولهم بين الدالية لا يبالون بتكسيرها ، حتى وصلوا الى المستودع وفى أيديهم السيوف مسلولة . فحالما رأتهم فلورندا علمت أنهم من رجال رودريك فاصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصها وصاحت : « أجيلا ! شانتيلا ! »

وكانا قد جاءا للدفاع قبل سماع صوتها ولم يباليا بكثرة الفرسان

القادمين ، وساعدهما على ذلك أولاد الشيخ ونساؤه ، وعلت ضوضاء النساء والاطفال وفلورندا واقفة فى النافذة مع خالتها تقرع صدرها وتصلى الى الله أن ينجيها ، وتتوسل الى السيد المسيح والى العذراء مريم أن يدفعا عنها ذلك الشر . ثم نظرت الى أسفل المستودع فرأت أجيلا وشانتيلا قد وقعا قتيلين بعد أن قتلا بضعة من رجال رودريك فحزنت عليهما حزنا شديدا . ولكنها أصبحت فى شاغل من نفسها ولم تجد من تستغيث به غير الله ، فجثت فى وسط المستودع وكشفت صدرها وحلت شعرها ونظرت الى السماء وجعلت تقول وهى تلطم وجهها وتقرع صدرها وصوتها مختنق من شدة البكاء : « الهى أنت نصير الضعفاء . الهى أنت منقذ المظلومين . اللهم اشفق على صباى . احمنى من هؤلاء الظالمين اكراما لدم ابنك المسفوك على الصليب» . ثم اختنق صوتها فبلعت ريقها وعادت الى الصلاة وهى لا تبالى بوقع الاقدام على السلم الخشبى المؤدى اليها ولم تلتفت الى شىء مما حولها ، وانما صوبت حواسها وعواطفها وأفكارها كلها الى السماء وهى على ثقة تامة أن الله لا يتخلى عنها . وكانت خالتها جاثية بجانبها تعيد دعاءها وتؤمن لها

أما الفرسان فانهم قتلوا ذينك الشابين وبضعة من أولاد الشيخ ، وصعدوا الى المستودع صعود الذئاب الخاطفة يتقدمهم رئيسهم وهو من أهل بلاط رودريك ، وكان قد شاهد فلورندا فى طليطلة غير مرة فلما رآها فى المستودع لم يعرفها لما طرأ عليها من التغير بالاسفار ، ثم ما كان من تغيير حالها فى تلك الساعة وهى محلولة الشعر مكشوفة الصدر حاسرة الزندين ، وقد توردت وجنتاها من اللطم والصفع ، واحمرت عيناها وتكسرت أهدابها من البكاء ، وبلل الدمع وجهها وامتزج بالعرق المتساقط على صدرها فتبلل شعرها وقميصها . فلما رآها الفارس على تلك الحال وقد دخل ولم تنتبه له ناداها فلم تجبه ، فتقدم اليها وأمسكها بزندها وجذبها نحوه فالتفتت اليه فرأت بيده الاخرى سيفا لا يزال يقطر دما وقد تلطخت أنامله الاخرى بالدم ، فلما شاهدت ذلك ازدادت رعبا ولكنها تجلدت وقالت : « ماذا تريدون ؟ »

قالوا : « نريد أن نمضى بك وبمن معك الى الملك رودريك »

فلما سمعت اسم رودريك صاحت : « لا . لا . لا أذهب اليه »

فقال لها الفارس : « سيرى برضاك والا أخذناك قهرا ، ولا أظنك تستطيعين النجاة من أيدينا ونحن جماعة ! » . قال ذلك وصاح فى

ونظرت فلورندا إلى السماء وجعلت تقول : « إلهى
أنت نصير الضعفاء !. إلهى أنت منقذ المظلومين ! »

رجاله فقبضوا عليها وجروها والعجوز تصيح فيهم وتستعطفهم وما من مجيب ، حتى نزلوا من المستودع فأركبوها فرسا وأركبوا خالتها فرسا آخر وساقوهما وفلورندا لا تزال محلولة الشعر مكشوفة الصدر ، محمرة الوجه ، دامعة الطرف ، وهى تستغيث بالله وتستنصره على القوم الظالمين ، والفرسان لا يبالون بصياحها ونحيبها حتى انحدروا من تلك الأكمة وانتهوا الى ساحة الحرب . فوقع نظر فلورندا على رودريك فى موكبه وقد حمى وطيس الحرب والتحم الجندان بين فارس وراجل واختلط المسلمون بالقوط . وقد تضعضع هؤلاء حتى اضطر رودريك للنزال والدفاع بنفسه

وكانت فلورندا قد يئست من النجاة فودت لو أن نبلا من النبال المتساقطة يصيب صدرها فينجيها من رؤية رودريك . ثم التفتت فرأت فارسا من جند المسلمين يجول فى المعمعة على مقربة منها وهو صبوح الوجه متناسب الملامح لولا عمامته ولباسه العربى لظنته قوطيا ، وقد شد عمامته على رأسه شدا وثيقا ، واستل سيفه وأخذ يهاجم صفوف القوط فيبددها ، ثم التفت الى فلورندا فلما وقعت عينه على عينها صاحت فيه واستنجدته بلغة لم يفهمها ، ولكنه فهم مرادها من اشاراتها وملامحها ، ووقعت من نفسه موقعا عظيما من أول نظرة وأسرع للدفاع عنها فحول شكيمة جواده نحوها وشهر سيفه وصاح : « أبشرى يا مليحة أتاك بدر . لا تخافى ! »

وجاء فى أثره بضعة من فرسان البرابرة يصيحون بكلمة التوحيد وبأيديهم السيوف ، فلم يستطع فرسان رودريك الثبات أمامهم طويلا فلما خافوا اخفاق مسعاهم أسرع أحدهم الى الملك يستنجده فلم يتمالك أن جاء بنفسه وقد تحول عن سريره الى جواد مثقل بالزخارف ، والمجوهرات على تاجه ونطاقه وسيفه وقبائه حتى نعاله ، وكذلك عدة الفرس فقد كانت مرصعة ، كما كان الجواد من أجمل الخيول شكلا وقواما ، ولكن جواد بدر يفضله خفة وسهولة مثل سائر خيول العرب

وكان بدر قد شتت شمل الفرسان عن فلورندا حتى أوشكت أن تنجو واذا برودريك قد أقبل بأثقاله فلما وقعت عينها على عينه صاحت هى وخالتها بصوت واحد ، ناهيك بصوت يرجو به صاحبه النجاة من الموت والعار معا : « هذا هو طاغية القوط ! »

فتحول بدر اليه وعرف من قيافته انه الملك ، وتبارزا ، وكان بدر أنشط بدنا وأخف مركبا فتجاولا وتصاولا اذ كان رودريك من القواد

المعروفين . وكانت فلورندا على جوادها وعيناها شاخصتان الى الرجلين تراقب كل حركة من حركاتهما ، وقد حبست أنفاسها لئلا يشغلها التنفس عن مراقبة تلك المبارزة لعلاقة ذلك بحياتها أو مماتها ، فاذا هجم رودريك أشارت بيدها كأنها تشارك بدرا فى تلقى ضربته ، واذا هجم بدر أحست كأنها تهجم معه وهى بالحقيقة واقفة مكانها ولكن جوارحها كانت تشارك نصيرها بكل حركة . ثم ما لبثت أن رأت رودريك يستمهل بدرا بالاشارة ، وكان بدر يود أن يقبض عليه ويسوقه الى طارق أسيرا لينال بأسره فخرا ، فلما رآه يستمهله أجابه بالاشارة أيضا أن يمضى معه الى معسكر المسلمين ، فعاد الى استمهاله فأمهله دون أن يفكر فى أنه انما يخدعه وينوى الفرار ، فقد كان بدر مستخفا بالرجل ولكن رودريك حول شكيمة جواده نحو خيامه وأطلق له العنان ، فالتفت بدر الى رفاقه وكلمهم بالبربرية أن « خذوا هذه الفتاة الى خيمتى » واقتفى أثر رودريك

وكان القوط قد ضعفت عزائمهم فلما رأوا ملكهم فارا أركنوا الى الفرار . أما بدر فما زال يتعقب رودريك ورودريك يجول فى معسكره كأنه يفتش عن ضائع ، وبدر يتبعه ويعجب من مسيره على تلك الصورة ، حتى انتهيا الى خيمة خرج منها كاهن امتطى فرسا وهم بالفرار ، فصاح رودريك فيه « مرتين ! » فالتفت مرتين واقترب من رودريك فابتدره رودريك بسيفه وهو يقول : « كل هذا البلاء من فساد سريرتك وضعف رأيك » فأصابت الضربة عنقه فوقع مضرجا بدمه ، فتركه صريعا وساق جواده نحو الوادى وبدر يتبعه ، حتى وصل ضفة النهر . والظاهر انه لم يعد يقوى على رد جماح جواده فأرسله فى الماء فغرقا معا . ويقال انه فعل ذلك عمدا وفضل الموت غرقا على أن يقتله أحد من أعدائه . فرجع بدر وهو يصيح : « قتل الطاغية ! قتل الطاغية ! » فازداد المسلمون جرأة وأوغلوا فى معسكر أعدائهم . ولم تمل شمس ذلك اليوم الى الاصيل حتى خلا المعسكر من القوط الا من وقع قتيلا أو أخذ أسيرا ، واستولى المسلمون على ما فيه من العدة والذخيرة والزاد والامتعة والخيول والماشية وغير ذلك

وكان طارق بن زياد فى أثناء المعركة يجول على جواده ويحرض المسلمين على الثبات ، ويكافح ويجالد ويقاتل لا يبالى بقلة رجاله بالنسبة الى رجال القوط ، ولم يكن يعلم بما كتبه يوليان الى ألفونس ، ولكنه صمم على التفانى فى سبيل الفتح منذ وطىء الاندلس كما رأيت من خطابه الذى ذكرناه ، فأحرق سفائنه حتى ييأس رجاله من التعلق

بها أو الالتجاء اليها اذا غلبهم القوط ، ولذلك لم يكن يبالى بكثرة عدوه أو قلته وانما كان همه وهم من معه الصبر والثبات

فلما رأى الفونس ورجاله ينضمون اليه شكر الله على ذلك وازداد ثقة بالنجاح ، وحرض المسلمين على الثبات حتى قضى على القوط بالفرار كما رأيت ، وكانت تلك الواقعة الضربة القاضية على مملكة القوط قتل فيها ملكهم ونخبة قوادهم

▭

فلما فرغ الجند من الحرب وتراجعوا الى خيامهم أمر طارق بأن يحملوا اليه الغنائم والسبايا والأسرى على العادة بعد كل قتال ، فحملوا كل ما غنموه من العدة والسلاح والآنية والذخيرة والجواهر والتحف ، وأكثرها من الصلبان والخواتم وفيها الفضة والذهب بين مرصع وغير مرصع ، وجاءوا بالأسرى وفيهم المقيد والموثق والسليم والجريح . فتجمع من ذلك كله شيء كثير حتى أصبحت الأسلاب ركاما أمام الفسطاط ، والأسرى جماعات مشدود بعضهم الى بعض بأعناقهم أو أيديهم أو أرجلهم والرجال لا يزالون يأتون بهم زرافات ووحدانا

واجتمع قواد الجند أمام فسطاط طارق على بساط كبير من جملة الغنائم افترشوه هناك ، فجلس طارق فى صدر المكان والى يمينه الكونت يوليان والى يساره الامير ألفونس وبين يديه كبار القواد وفى جملتهم بدر . وكان الفونس قد لقى يوليان ساعة انضمامه الى جند العرب وتحادثا مليا فى شأن المملكة وما كان من أمر أوباس وذكرا فلورندا وانها مقيمة فى المستودع حتى يرسلوا فى طلبها ، وصمما على أن يستقدماها فى صباح الغد بعد الفراغ من قسمة الغنائم والأسلاب . وكان ألفونس منذ انقضاء المعركة يتفرس فى الأسرى لعله يرى أوباس بينهم وهو لا يتوقع أن يراه أسيرا لعلمه أنه يفضل الموت على الأسر

فلما تكامل اجتماع القواد وكل طارق الى كبير منهم أن يخرج خمس الغنائم حسب العادة لبيت المال ويقسم الباقى بين القبائل على مقتضى تعدادها وكان يقول ذلك وأمارات الاعتزاز والافتخار بادية فى وجهه ، وألفونس ويوليان يتسماءلان فى أمر أوباس هل قتل أو فر أو أسر ؟ وكلاهما يستبعد وقوعه فى الأسر ، واذا هم بجماعة من جند العرب يسوقون رجلا طويلا شعره مسترسل على ظهره وكتفيه ولما دنوا من الفسطاط تقدم أحدهم وهو يقول لطارق : « وجدنا هذا الأسير مغلولا فى مضارب القوط فحللنا وثاقه وجئنا به »

فقال : « الى به »

فأقبل أوباس وهو لا يزال كما كان فى أثناء القتال محلول الشعر وفى صدره صليب وبيده صليب . فلما وقع نظر ألفونس عليه لم يتمالك أن نهض حتى وصل اليه فجثا أمامه وأكب على يده وجعل يقبلهما ودموعه تتساقط بلا بكاء ، وفعل نحو ذلك يوليان وقد امتزجت فى وجهه أمارات السرور بالنصر بأمارات الخجل من الخيانة ، فانحنى على يد أوباس فقبلها وأمسك به ودعاه للجلوس فى صدر المكان . وكان طارق وبدر وسائر القواد قد تحولت أنظارهم الى ذلك القادم وقد زاد هيبة وجلالا باسترسال شعره ، فأخذ ينظر الى الذين حوله بلا اكتراث . ولما دعاه يوليان للجلوس أمسك عن مجاراته وظل واقفا فى مكانه يتفرس فى وجوه الناس . ولو استطاع ألفونس التفرس فى عينى أوباس لرآهما تتلألآن بالدمع رغم اعتقاده ان الطبيعة لا تستطيع قهره ، وهى لا تستطيع قهر العاقل اذا استذل عواطفه وأخضعها لعقله ، فانه لا يرى فى حوادث الطبيعة ما يدعو الى الحزن أو الى الفرح ، والحياة بجملتها فى نظره نسمة من نسمات الوجود ، فما قولك بأعراضها ! ولكن المرء لا يخلو من العواطف فهو عرضة للحزن والفرح ، فلا تلومن أوباس على البكاء وقد رأى ذهاب دولة القوط من أسبانيا بسوء تدبير رجل واحد رغم ما كان يؤمله هو من ملافاة ذلك ، حتى اذا كاد يدرك مراده ذهبت مساعيه أدراج الرياح وجوزى جزاء سنمار ! . على ان أسفه ما لبث أن تحول الى الاعتبار ، فلما دعاه يوليان للجلوس توقف هنيهة ثم قال بصوت جهورى فيه خشونة من عظم التأثر : « تدعونى يا يوليان للجلوس فى مكان تحسبه بيتك وأنت قد خسرت اليوم هذا البيت ؟ بعته يا يوليان بأرخص الاثمان ، وأنت تزعم أنك فعلت ذلك انتقاما من رجل ساقه ضعفه الى مس كرامتك ، فسقت نفسك وأهلك وسائر رجال القوط والأسبان الى ضياع أنفسهم وأموالهم وأعراضهم . حتى ابنتك التى ارتكبت هذه الخيانة غيرة على عرضها قد ذهبت سبية فى يد رجل لا هو من دينك ولا أمتك ولا لغتك ! »

وكان أوباس يتكلم والحضور مطرقون حتى العرب ، مع أنهم لم يكونوا يفهمون ما يقول ولكنهم هابوا صوته ومنظره . أما يوليان فانه كان يذوب خجلا فلما سمع ما يقوله عن فلورندا وسبيها انتبه وأجفل ، وكذلك ألفونس ، ولم يتمالكا أن قالا بصوت واحد : « أين هى ؟ » ولم يستغربا اطلاعه على ذلك ولا استخفا بقوله لانه لا يقول عبثا .

فلما سألاه عنها وجه خطابه الى ألفونس وقال : « ضاعت خطيبتك منك ، وما أنت لها وقد ارتكبت ما لم يرتكبه رودريك ، لانك خنت بلدك وأهلك وأضعتهم جميعا ! . فاذا كنت فعلت ذلك عقابا لرجل أراد أن يمس عرضك ، فما هو مقدار العقاب الذى تستحقه أنت وقد جعلت أعراض القوط وأموالهم وأرواحهم عرضة للسلب والقتل ؟ »

فلم يكن جواب ألفونس غير البكاء . وأما يوليان فانه أحس بتبكيت الضمير خصوصا لما سمع بضياع ابنته ، وأراد أن يستفهم عنها فتهيب وظل مطرقا

وكان طارق وبدر يسمعان كلام أوباس ويعجبان به وهما لا يفهمان ما يقوله . فالتفت طارق الى ما حوله يبحث عمن يترجم له أقواله . فرأى سليمان التاجر فأدرك سليمان غرض طارق قبل أن يسأله ، فتقدم وفسر له كلام أوباس وهو يتوقع أن يستاء منه فاذا هو قد زاد اعجابا وخاطب أوباس بواسطة سليمان قائلا : « بورك فيك من رجل عاقل وشهم كامل ! انى لأعجب من فشل جند القوط وفيهم رجل حكيم مثلك ، مع كثرتهم واستعدادهم »

فقال أوباس : « لا تعجب يا ولدى ان للدول آجالا كما للناس . فاذا جاء أجلها خابت الحيل فى استبقائها . على أنى كنت أحسب أجل هذه الدولة أطول من ذلك ، فعجله ضعف رأى الملك وفساد نيات أهل شوراه . وهكذا أراد الله »

قال طارق : « فاذا كانت هذه ارادة المولى فلا يسؤك خروج هذه الدولة من أيدى القوط ، فان دخولها فى حوزة المسلمين من أسباب سعادتها ، لأن أهلها يعيشون فى ظلنا ندفع عنهم الاعداء ونضمن لهم الأمن ، ولا نكلفهم عن ذلك الا جعلا قليلا هو الجزية ، فاذا أدوها بات كل منهم آمنا على عرضه وروحه وماله » . قال ذلك وأمسك بيد أوباس ومشى به وهو يقول أ « هلم بنا الى الفسطاط ريثما يفرغ القواد من قسمة الغنائم »

فمشى أوباس ويوليان وألفونس وبدر ومعهم سليمان ويعقوب حتى دخلوا الخيمة وكانت كبيرة ، فقعد طارق فى صدرها وأقعد أوباس الى يمينه ويوليان وألفونس الى يساره ، وقعد بدر فى جانب من جوانب الخيمة وهو لا يزال لابسا الثوب الذى حارب به وعليه السيف والدرع . ولم يكد يوليان يراهم استقروا هناك حتى ذهب تهيبه من أوباس فعاد الى الاستفهام عن فلورندا فقال : « سمعتك يا مولاى تقول أن فلورندا ذهبت سبية فهل تعنى ذلك حقيقة ؟ »

قال : « ومتى كان أوباس يتكلم جزافا ؟ »

فزاد اهتمام يوليان واستغرابه وأراد الاستيضاح فسبقه الفونس وقال : « وكيف ذلك ؟ ومن سباها ؟»

فقال أوباس : « لا أعرف اسم الرجل ولكنني رأيتها وأنا مسجون في الخيمة محلولة الشعر تستنجد السماء لتنقذها من رودريك وكان قد بعث يستقدمها اليه . فجاءها فارس عربي لكنه غير بربري عليه عمامة بيضاء فأنقذها وتعقب رودريك لا أدري الى أين ، ولكنه أمر رجاله أن يحملوها فحملوها نحو هذا المعسكر ـ سبية بالطبع ـ وهي ملك للذي سباها ! »

فقال يوليان : « هل تعرف ذلك الرجل اذا رأيته ..؟ يظهر انه أخذها اليه وأخفاها عن الامير طارق لأني لم أرها بين السبايا »

قال أوباس : « أظنني أعرفه اذ أنه يمتاز عن كل الجند ببياض لونه وشقرة شعره »

فلما سمع يوليان ذلك اتجه فكره الى بدر فالتفت اليه وكان جالسا على عدة خطوات منه ، يسمع كلامه ولا يفهمه لانه لا يعرف القوطية. على انه لو فهم أن سبيته ابنة يوليان لم يبال لانه ما زال حاقدا عليه منذ حرمه بنت الشيخ صاحب الكرم ليلة نزولهم شريش . وكان يوليان خشن المعاشرة بسبب ما تسلط عليه من السوداء منذ بضعة عشر عاما لمصيبة ألمت به فأذهبت صبره وأصبح ضيق الخلق قصير البال ، فكان رفقاؤه لايسرون بمعاشرته خصوصا بدر لما بينهما من البون في السن . فلما نظر اليه يوليان كان يتلهى بتقليب سيفه بين أنامله وفكره عند فلورندا لانه كان قد افتتن بجمالها ، فلما رآه يوليان مشتغلا عنه التفت الى طارق وأفهمه خلاصة حديثه مع أوباس ، وانه يظن بدرا هو الذي سباها ، ورجاه أن يطلبها منه ، فالتفت طارق الى بدر وناداه : « بدر »

وكان بدر قد سمع كلام يوليان لطارق وفهم قصده فلما سمع طارق يناديه أجابه وهو لا يزال جالسا : « نعم »

وكان طارق شديد التعلق ببدر يحبه ويدلله ويعامله معاملة الأب لابنه أو الأخ الاكبر لأخيه ، فلما رآه أجابه بلا اكتراث ابتسم له وقال : « أراك لا تزال جالسا ، ألم تسمع ندائي ؟ »

فقال : « سمعت وأجبتك »

فقال طارق : « قم الى لأسألك سؤالا »

فوقف وقال : « وما سؤالك ؟ اسأل كل ما تريده واطلب ماشئته

الا سبيتى فانها لى ولا حاجة الى كثرة الكلام » . قال ذلك وهو يصلح عمامته كأنه يستعد للنزال ، فضحك طارق حتى بانت نواجذه وقال : « لا أدرى ما سبب غضبك ونحن لم نخاطبك فى شىء بعد . ألا سمعت قولنا ثم قلت ما تقوله ؟ »

قال بدر : « قل فانى سامع »

قال : « احك لنا كيف عثرت على هذه السبية »

▭

فقص عليهم بدر الحكاية باختصار حتى انتهى الى فرار رودريك وكيف أنه قتل الأب مرتين ثم غرق فى النهر . وكان ألفونس وأوباس لا يفهمان ما يقول فتقاربا واستدنيا سليمان ليترجم لهما . فلما وصل الى مقتل مرتين بيد رودريك قال أوباس فى نفسه : « لم يكن يليق قتله بغير تلك اليد ! » فلما فرغ بدر من حكايته قال له طارق : « لا شك أنك استأثرت بهذه السبية وأنت لا تعلم أنها ابنة الكونت يوليان ! »

قال : « نعم انى لم أكن أعلم ذلك ، ولكن علمى لا يغير شيئا من عزمى ! »

قال ذلك وتحول يريد الرجوع الى مقعده فناداه طارق بلهجة الجد وقال له : « كيف لا يتغير عزمك والكونت يوليان هو الذى أكسبنا هذا النصر ، ولولاه لم ندخل هذه البلاد ؟ أيليق بنا أن نسبى ابنته ووحيدته ؟ . أرجعها اليه ولك ما شئت من سبايا هذه الجزيرة وغنائمها »

فقال : « لا أريد شيئا غير هذه ، وهى غنيمتى فى الحرب . وهو الذى منعنى بالامس من غنيمتى الاولى لانها لم تؤخذ فى أثناء القتال ، وهذه ؟ ألم أغنمها فى ساحة الوغى ؟ ألم أحارب ملك القوط من أجلها ؟ وقد قتلته وكان قتله سببا فى فشل جنده . أتستكثرون على فتاة سبيتها ، وقد تركت لكم نصيبى من سائر الغنيمة ؟ »

فقال طارق وهو لا يزال يرجو اقناعه : « اذا كنت تفعل ذلك نكاية فى الكونت يوليان وانتقاما منه فانتقم من غير هذا السبيل . وأنت تعلم يا أخى أن عملك هذا يخالف حق الجوار ومعرفة الجميل . ماذا يقول المسلمون اذا علموا فضل الكونت فى هذا الفتح ثم قيل لهم اننا اخذنا ابنته سبية ؟ فارجع الى ما هو أجدر بك من كرم الخلق ، افعل ذلك اكراما لى وعملا بحقوق الاخوة »

وكان بدر شهما لايرضى ارتكاب هذا العار، ولكنه أحب الفتاة منذ

رآها ، وزاد تعلقا بها لانه تعب فى انقاذها فشق عليه التخلى عنها فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وعلى وجهه دلائل البشر وقال : « صدقت أيها الامير ان اتخاذ هذه الفتاة سبية يعد غدرا وخيانة ، ولكننى أحببتها ، ولا يمكننى التنازل عنها فليزوجنى الكونت اياها بشرع الله . فهل له بعد ذلك عذر ؟ »

فالتفت طارق الى يوليان كأنه يستطلع رأيه فقال يوليان : « ان الفتاة مخطوبة وهذا خطيبها » وأشار الى الفونس

فقال بدر : « لايهمنى ، فان الخطبة يسهل حلها »

فحمى غضب يوليان لهذا الجدال وضاق صدره فقال : « لقد أطلت الكلام بلا طائل ! ان ابنتى مخطوبة وهذا خطيبها . وهب أنها غير مخطوبة فلا نصيب لك فيها »

فوثب بدر ويده على قبضة حسامه وقال : « انها سبيتى فى ساحة الوغى ، أخذتها بحد هذا السيف ، فلا أتخلى عنها لأحد ولو كان أمير المؤمنين . الا أن يأخذها منى بالسيف كما أخذتها »

وكان سليمان يترجم لألفونس وأوباس كل ما يدور من الجدال ، فلما بلغ الى طلب المبارزة وقف ألفونس ويده على قبضة سيفه وقال : « أنا أولى الناس بمنازلة هذا الشاب ، وكلانا طالب ، فأينا غلب فهى له ! »

فوقف يوليان وأمسك الفونس وهو يقول : « بل أنا أولى بذلك منك فاذا قتلت هذا الغلام فقد أنلته الجزاء الذى يستحقه ، وان قتلنى فموتى خير من وقوعى فى مصيبة ثانية شر من مصيبتى الاولى . ولا طاقة لى على احتمال الاثنتين معا » . قال ذلك وتقدم ويده على قبضة حسامه ، فسبقه بدر واستل الحسام فناداه طارق فلم يصغ ، ونادى أوباس يوليان فلم يطعه لأنهما خرجا من طور التعقل لشدة الغضب ، وأقسم كل منهما انه لا يرجع حتى يقتل صاحبه أو يقتل هو ، فعلا الضجيج فى الخيمة ويعقوب وسليمان فى ناحية منها يتسارران !

وبدأ بدر فأطلق حسامه على يوليان بعزم شديد ولولا عمود الخيمة لقتله لا محالة ولكن السيف غاص فى العمود ووقف فيه وتصدعت يد بدر لشدة الصدمة ولم يعد يستطيع اخراج السيف من العمود فاغتنم يوليان انشغاله بذلك وانقض عليه انقضاض الصاعقة ، فخاف طارق على بدر فصاح فى يوليان فلم يصغ له ، وفعل ذلك أيضا أوباس ويوليان لا يبالى . فوثب طارق للفصل بينهما بالقوة ، فرأى سليمان

التاجر قد سبقه وتوسط بينهما وأمسك زند يوليان وهو يقول : «تمهل يا كونت بحياة طوماس ! »

ولم يكد سليمان يتلفظ بذلك الاسم حتى رمى يوليان السيف من يده واستلقى على الارض وأخذ فى البكاء ، فبغت الجميع حتى بدر ، والتفتوا الى سليمان كأنهم يستفهمون عن السبب ، فأشار اليهم ان يصبروا فوقفوا جميعا ، وتقدم سليمان الى يوليان وأمسكه بيده ، وجعل يخفف عنه وهو مستغرق فى البكاء . ثم التفت هذا الى سليمان وقال : « لماذا أذكرتنى بهذه المصيبة يا سليمان ؟ »

فقال : « وهل كنت ناسيا اياها ؟ »

قال : « كلا ولكننى لم أسمع هذا اللفظ منذ أعوام ، ولو لم تحلفنى به لكنت قضيت على هذا الغلام وخلصت من وقاحته وحماقته ! »

قال : « لا تبالغ فى شتمه وانظر الى وجهه وتفرس فيه ، فانك تذكر به حبيبا تحبه وتتوهم أنك فقدته وهو حى بين يديك ! »

□

فلم يفهم يوليان مغزى تلك الاشارة ، وكان قد جلس وتحول غضبه الى حزن . وظل أوباس وطارق وألفونس واقفين وقد علتهم البغتة مما شاهدوه ، وهم ينتظرون ما يقوله سليمان . فلما سمع يوليان اشارته تنبه وتفرس فى سليمان ليرى هل هو يقول الجد أو يهزل ، فرأى الجد باديا فى كل جارحة من جوارحه . وقبل أن يقول كلمة نهض سليمان والتفت الى الحضور وأشار اليهم أن يقعدوا ليسمعوا حديثا يريد أن يقصه عليهم فقعدوا الا بدرا ، فانه اغتنم فرصة اشتغالهم وخرج لاستبدال سيفه استعدادا لمنازلة يوليان ثانية . أما سليمان فقعد وقال : « اسمعوا أقص عليكم سرا حفظته منذ أعوام وفيه موعظة وحكمة » . وأخذ يقص حكايته بالقوطية ويترجمها الى العربية . قال ووجه خطابه أولا الى أوباس :

« لا يخفى على مولاى الاسقف ما قاساه اليهود فى أسبانيا من ظلم حكامهم القوط من صنوف الاضطهاد والجور حتى أجبروهم أخيرا على النصرانية أو يرحلوا من بلادهم ، فكان منهم من رحل ومنهم من تظاهر بالنصرانية وبقى فى البلاد يسعى الى افساد أمرها على الحكومة . ولا أخفى عليكم أنى أحد هؤلاء المتنصرين وقد قضيت مع الكونت يوليان أعواما وهو يحسبنى نصرانيا ، والحقيقة انى لا أزال على دين آبائى وأجدادى . وأظن مولاى الاسقف يعلم ان يعقوب (وأشار اليه) حبر من أحبار اليهود وغنى من كبار أغنيائهم ، قد تظاهر

بالنصرانية وأدخل نفسه فى خدمة البلاط الملوكى من أيام غيطشة المرحوم ، وسعى لديه فى رفع الضغط عن اليهود ، وكاد ينجح لو لم يحل دون ذلك أجل غيطشة . فلما تولى رودريك عاد الضغط الى ما كان عليه ونحن نعقد الجمعيات السرية ونبذل الاموال فى مقاومة هذه الحكومة الظالمة وهدم أركانها . ولم نكن ندخر وسعا فى معاكستها ومعاكسة رجالها من الكونتية أو القواد أو غيرهم ، ولكننا لم نكن نستطيع ذلك جهارا فكنا نفعله سرا. وأتيح لى بعد تظاهرى بالنصرانية الرحلة الى الآفاق فنزلت سبتة منذ بضعة عشر عاما وتقربت من حضرة الكونت وبذلت مافى وسعى لاكتساب ثقته ، ففزت بذلك وصرت أتردد على منزله كواحد من أهله ، وكان له ولدان أحدهما أنثى وهى فلورندا ، والثانى ذكراسمه طوماس. واتفق فى أثناء ذلك ان الحكومة جددت اضطهاد اليهود ، وأتتنا التعليمات السرية أن ننتقم لهم بأى وسيلة كانت . فتهيأ لى أن أحرم الكونت أعز ولديه وهو الصبى ، ولم تسمح نفسى بقتله فاحتلت فى سرقته وحمله معى فى أثناء أسفارى الى بعض قبائل البربر وبعته لأحد كهنتها الوثنيين بيعا رخيصا ، ولم أقل له من أين أتيت به ، فاشتراه ثم سلمه الى زياد والد الامير طارق فرباه مع أولاده . فشب الغلام لا يعرف والده ولا أحد يعرفه سواى ، وسموه بدرا لبياضه وهو هذا الشاب الذى بين يديكم . وبما أن الكونت يوليان قد انقلب على حكومة القوط الآن ونصر أعداءهم حتى أصبح من أنصارنا ، فلذلك وجب علينا اطلاعه على هذا السر ! »

وكان سليمان يتكلم وهم يتطاولون بأعناقهم خصوصا يوليان فقد حسب نفسه فى حلم ، وكان وهو يسمع الحديث يبحث ببصره عن بدر فى جوانب الخيمة وقلبه يخفق . وكانت الشمس قد غابت وأظلمت الخيمة وأحس طارق من تلك الساعة كأن غشاوة قد أزيحت عن عينيه اذ عرف أصل هذا الغلام والتفت ونادى « بدر ! » فلم يجبه أحد ثم انشق باب الخيمة ودخل بدر وقد بدل سيفه

فلما رآه يوليان وثب وهو لا يدرى ماذا يقول ونادى : « طوماس ! طوماس ! » . وهرع نحوه ، فلما رآه بدر مسرعا اليه تراجع ويده على قراب سيفه كأنه يهم أن يضربه به ، فوقف سليمان وقال : « تعال يا بدر وقبل يد الكونت ودعه يقبلك فانه أبوك ! »

فبغت بدر وحسبه يهزل حتى تقدم اليه طارق وقال له : « نحمد الله أنك وجدت أباك ، وقد كنا منذ عرفناك ونحن نتساءل عنه » .

فنظر بدر الى طارق وهو يقول : «الكونت يوليان أبى و فلورندا أختى ؟ من أين أتت هذه القرابة ؟ »

وكان يوليان فى أثناء ذلك واقفا أمام بدر وهو يتفرس فيه على نور الشفق ، ثم جاءوا بمصباح تناوله يوليان بيده وجعل يتفرس ببدر ويتأمل ملامحه ومعانى وجهه فتذكر بعد قليل ان لتلك الصورة شبها فى ذهنه ، فثار الحنو فى قلبه فأكب على بدر وضمه الى صدره وجعل يقبله ويتنشق ريحه ويبكى بكاء الفرح ، والناس وقوف وما فيهم الا من تحركت عواطفه لذلك المنظر الغريب ، ولم يتحقق بدر انه فى يقظة الا بعد قليل فقبل يد والده ووقف كأنه أصيب بالجمود !

مضت دقائق قليلة وأهل الخيمة يتبادلون عبارات الاستغراب ويحمدون الله على نجاة بدر من سيف والده بفضل سليمان . ثم التفت أوباس وهو لا يزال الى ذلك الحين مكشوف الرأس محلول الشعر كما جاء وقال لطارق : « يأمر الامير طارق حفظه الله أن تأتى ابنتنا فلورندا الى هنا ليتم التعارف »

فقال طارق : « وأين هى فلورندا يا بدر ؟ » . قال : « هى فى خيمتى » فأمر سليمان أن يأتى بها

وكانت فلورندا بعد أن جاءت تلك الخيمة قد أصلحت من نفسها وهى تتوقع أن يأخذوها الى أبيها فلما أبطأوا طلبت من الحراس ذلك فلم يفهموا مرادها على أنهم أفهموها بالاشارات أنها لن تبرح الخيمة، فمكثت ومعها خالتها الى العشاء اذ جاءها سليمان فلما رأته استأنست به وهشت له وقالت : « أين والدى ؟. أين ألفونس ؟ »

فضحك وقال : « ان والدك مشتاق الى رؤيتك وسترينه قريبا ، وأما ألفونس فلا أرب لك فيه بعد الآن لأن الفارس العربى الذى أنقذك من يدى رودريك لم يقبل الا أن تكونى له عروسا ! » . فبغتت وقالت : « وهل قبل والدى ذلك ؟ » . قال : « وماذا يفعل ؟ ». قالت : « وألفونس كيف فعل .؟ لا أقبل أحدا غيره يظهر يا سليمان انك تمزح »

قال : « تعالى وانظرى مجلس ذلك الشاب من أبيك »

فخرجت فلورندا وخالتها بجانبها ومعهما سليمان حتى أقبلوا على خيمة طارق ، فدخل سليمان وأشار اليهم ألا يتكلموا فدخلت فلورندا والبغتة غالبة على فرحها بلقيا والدها ، فسبقها سليمان الى بدر وأخذه بيده وجاء به اليها وقال له : « قبل فلورندا يا بدر ! »

فأجفلت هى وتراجعت فصاح بها أبوها : « قبليه يا فلورندا ! »
فلما سمعت ذلك وتحققت أن أباها أراده لها زوجا حولت وجهها عنه وأخذت فى البكاء وهى تقول : « لا . لا حاجة لى بذلك »
فوقف عند ذلك يوليان وضم ابنته بيمينه فقبلت يده وقبلها ، ثم ضم بدرا بيساره وقبله وقال : « قبليه يا فلورندا . انه أخوك طوماس الذى فقدناه منذ بضعة عشر عاما »
وكانت فلورندا تسمع وهى طفلة انه كان لها أخ وضاع وقطعوا الامل من حياته ، فلما قال لها أبوها ذلك تفرست فى بدر وهى لاتعرف صورته وما زال الخجل يمنعها من تقبيله ، حتى نهض أوباس وناداها فأجفلت لانها لم تكن تتوقع أن تسمع صوته هناك والتفتت فلما رأته هرولت اليه وأكبت على يده فقبلتها والعبرات تتسابق الى عينيها وهى لاتعلم ماذا تقول
أما هو فباركها وقال : « نحمد الله على سلامتك وعلى وجود أخيك بعد أن قطع الأمل من لقائه ، ونحمده على التقائك بألفونس ونجاتك من الشراك »
فتصدى ألفونس وقال : « ان نجاتها يا عماه يرجع الفضل فيها اليك وحدك ، فانك بركتنا ونعمة من الله لنا » . واختنق صوته ، فتنهد أوباس وقال : « ياليتنى استطعت ما أتمناه . ولكننى لو استطعته ما التقى بدر بأبيه وأخته ، ولا التقيت أنت بخطيبتك . المرء يسعى فى سبيل ، والله يدبر من سبيل أخرى . هذه ارادة المولى فما علينا الا أن نشكر الله على ما وقع »
وكانت الخالة العجوز واقفة فلما قيل لها انهم وجدوا طوماس ودلوها عليه ضمته الى صدرها وقبلته وسلمت على يوليان وألفونس ، ثم تناولت يد أوباس فقبلتها وقالت له : « بقى أمر لا يتم سرورنا الا به ، ولا يقدر عليه سواك »
قال : « أظنك تعنين زفاف فلورندا الى ألفونس ؟ وهذا واجب على لأنى واضع عربون الخطبة فامهلينى الى مساء الغد » فلم تستطع الاعتراض
ثم وقف طارق وقال : « يسرنى أن يتم لكم هذا الاجتماع فى يوم نصرنا الله فيه ، وأنتم منذ الآن فى ذمتى فتقيمون حيثما تشاءون آمنين مطمئنين مكرمين ، أنتم ومن يلوذ بكم »
وقضوا برهة يتحادثون فى شؤون مختلفة وعينا فلورندا لم تنتقلا عن عينى ألفونس ، ناهيك بما دار بين العيون من الحديث الخفى ،

حتى اذا انقضى هزيع من الليل قال يوليان : « هلم بنا ننصرف الى مراقدنا فاننا نحتاج الى الراحة بعد ما قاسيناه من العناء فى أثناء النهار » ، قال ذلك وخرج فتبعه أوباس وألفونس وفلورندا وبدر ، ودل يوليان كلا منهم على مكان ينام فيه . وتذكر الفونس يعقوب فبحث عنه فلم يره بينهم فظنه ذهب للمنام فى بعض الخيام

▭

باتوا تلك الليلة ولا نظنهم استطاعوا رقادا لفرط تأثرهم من ذلك الملتقى الغريب ، ولما أصبحوا أحب أوباس أن يشرف على تلك الموقعة ثم يمر بين المعسكرين ليعلم من مات من كبار الدولة ومن هرب ، فمشى ورافقه يوليان وبدر وألفونس ، فرأوا الجثث مبعثرة هنا وهناك ، وعرفوا من القتلى جماعة من القواد فى جملتهم كوميس فأسفوا عليه أسفا شديدا . ثم مروا بخيمة الملك فرأوا بالقرب منها الأب مرتين مجندلا فلم يشأ أوباس أن يتفرس فيه ، ولما عادوا من ذلك الطواف طلب أوباس من طارق أن يأذن لهم بنقل بعض الجثث للصلاة عليها ودفنها ، فأجابه الى طلبه فنقل جثث القواد وجثة مرتين وصلوا عليها ودفنوها . فلما رأتهم فلورندا يدفنون الموتى ذهبت الى أوباس وأخبرته بمقتل أجيلا وشانتيلا وطلبت اليه أن يصلى عليهما ويدفنهما ، فأجابها الى ما طلبت وقد أسف لمقتلهما ، فدفنهما ودفن معهما من قتل من أولاد الشيخ صاحب الكرم . ولما أخبرته بما كان من دفاع الشيخ وأولاده عنها أوصى طارقا به وبأهله خيرا

ولما غربت الشمس تهيأ ألفونس لعقد اكليله على فلورندا فى خيمة يوليان فاحتفلوا بذلك على أبسط الطقوس وقلوب الجميع تطفح سرورا لذلك اللقاء ووجوههم تبتسم ، الا أوباس فانه ما زال ساكنا كعادته لم يتغلب عليه فرح ولا حزن . وبعد تمام الاكليل سألهم أوباس عن المكان الذى يفضلون الاقامة فيه فقالوا : « حيثما تريد أنت » . فقال : « أما أنا فاتركونى وشأنى »

فقالوا : « كيف نتركك وأنت حكيمنا ومرشدنا ؟ »

قال : « لو كنت كذلك لنفعتكم . اننى سأقضى بقية هذه الحياة فى العبادة والصلاة منقطعا عن هذا العالم فقد رأيت من شروره ما كفانى . وهل أتوقع أن أرى بعد هذه الواقعة غير ما يزيد أسفى ويضاعف حزنى ، وأنا لا أستطيع العمل بما يدعونى اليه ضميرى ويستحثنى عليه الواجب ؟ فالأولى بى أن أقضى بقية هذه الحياة فى

مكان لا أرى فيه بشرا . ولا يراجعنى أحد منكم فى ذلك »

فلم يستطع أحد أن يراجعه الا رجل تصدى له من جملة الحضور وقال : « وأنا أين أذهب ؟ »

فتوهم ألفونس أنه يسمع صوت يعقوب ولكن القيافة غير قيافته. أما أوباس فعرفه فقال : « هذا يعقوب قد وفى نذره وأصلح لحيته واغتسل ! »

فتذكر الفونس شيئا من ذلك منذ اجتمع بعمه فى طليطلة ، فنظر الى يعقوب فاذا هو حسن الهنـدام وقد أصلح لحيته وتزيى بزى حاخامى اليهود تماما فقال له : « ماذلك يا يعقوب ؟ »

قال : « قد آن لى وفاء النذر والتحرر من ربقة الذل ، اذ أصبح الناس بعد هذا الفتح أحرارا يتبع كل رجل دينه . وأنا يهودى جنسا ودينا ، فأحب الرجوع الى مذهبى ، فأصلى فى كنيستى وأقرأ فى كتابى »

وباتوا تلك الليلة فلما أصبحوا لم يجدوا أوباس فى خيمته ولا فى سائر المعسكر ولا عثروا عليه من ذلك الحين . فعلمـوا أنه ذهب للتنسك كما قال

وأما ألفونس ويوليان فظلا عونا لطـارق وجنـده حتى أتم فتح الاندلس ، وقلما لاقى مشقة بعد تلك الواقعة الا فى استجة فانهم ساروا اليها توا بعد واقعة شريش وحاربوها حربا شديدة ، فلمـا فتحوها وقع الرعب فى قلوب الناس وهربوا الى طليطلة فأشار يوليان على طارق أن يفرق جيوشه فى مدائن الاندلس لأن الناس أخلوها وساروا الى العاصمة ، فبعث جيشا الى قرطبة ، وجيشا الى غرناطة ، وجيشا الى مالقة ، وجيشا الى تدمير ، وسار هو ومعظم الجيش الى طليطلة فوجدها خالية لأن أهلها لحقوا بمدينة خلف الجبل. أما الجيش الذى سار الى قرطبة فقد دلهم راع على نفق دخلوا منه البلد وملـكوه . والذين قصدوا تدمير فتحوها بالسيف وفتحوا غيرها من المدائن . أما طارق فلما رأى طليطلة فارغة ضم اليها اليهود وترك معهم رجالا من أصحابه وسار فى اتمام الفتح كما هو مفصل فى كتب التاريخ

السنة ١ **روايات الهلال** العدد ١

صاحباها ورئيسا تحريرها : أميل زيدان وشكرى زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحى

يناير ١٩٤٩ * ربيع الأول ١٣٦٨

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى مصر والسودان ٦٠ مليما ـ فى الأقطار العربية عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ٨٠ قرشاً سورياً ـ فى لبنان ٨٠ قرشاً لبنانياً ـ فى فلسطين ٧٥ ملا ـ فى شرق الأردن ٨٥ ملا ـ فى العراق ٩٠ فلساً

قيمة الاشتراك عن سنة (١٢ عدداً) : فى القطر المصرى والسودان ٦٠ قرشاً ـ فى سوريا ولبنان ٨٠٠ قرش سورى لبنانى ـ فى فلسطين وشرق الأردن ٨٠٠ مل ـ فى العراق ٨٠٠ فلس ـ فى المملكة العربية السعودية ٨٠ قرشاً صاغاً أو ١٧ شلناً ـ فى الولايات المتحدة وكندا وكولومبيا والمكسيك والأرجنتين ٦ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٠٠ قرش صاغ أو ٢٠/٦ شلناً

طريقة الدفع

فى مصر والسودان : نقداً أو بموجب أذونات أو حوالات بريدية أو شيكات ـ **فى خارج القطر المصرى :** بموجب شيك على أحد بنوك القاهرة أو حوالة بريدية « Money Order » أو الى أحد وكلائنا اذا كان هناك وكيل . ولا يمكن قبول أذونات البريد أو العملة الأجنبية

ملاحظة هامة : وكلاء روايات الهلال هم وكلاء الهلال

مركز الادارة : دار الهلال ١٦ شارع المبتديان . القاهرة ـ مصر

المكاتبات : روايات الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٤٦٠٦٤ (ثمانية خطوط)

الاعلانات : يخاطب بشأنها قسم الاعلانات بدار الهلال

892.73:Z39fA:c.2
زيدان ،جرجى
فتح الاندلس
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01037295

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

892.78
Z39F nA
c.1